صالح بن عبد الله العبود

فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام

دار طيبة
للنشر والتوزيع - الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين. وبعد فإنه:

فى عام ١٣٩٨/٩٧ هـ الجامعى، تقدمت بهذا البحث إلى جامعة الملك عبد العزيز، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية قسم الدراسات العليا الشرعية، فرع العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة لنيل درجة الماجستير، وكونت لجنة لمناقشتها من فضيلة الشيخ محمد قطب المشرف على البحث وفضيلة الشيخ محمد الغزالى وفضيلة الدكتور محمد محمد حسين، ونوقشت بتاريخ ١٣٩٨/٥/٥ هـ، ومن ثم حصلت على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، وحيث طلب منى بعض الإخوة الإذن بطباعتها من أجل انتفاع المسلمين خاصة والناس عامة، أعدت النظر فى مواضع منها، وحررت بعض تعبيراتها، وصححت شيئاً من الأخطاء فيها، وأضفت زيادات هامة وتحقيقات مفيدة

وأسأل الله القبول والمغفرة لى وللمسلمين أجمعين، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه .

صالح العبود

المدينة المنورة ١٤٠١/٨/٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم عليه .

(ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلاوأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخيرويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكروأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات . وأولئك لهم عذاب عظيم)[1] .

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً)[2] ،

---

(١) آل عمران : ١٠٢ ـ ١٠٥ .

(٢) النساء : ١

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ، إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما)[1] .

أما بعد :

فإنه يحسن أن نقدم بتمهيد من معنى القومية حسبما يتبادر إلى الذهن من مادتها اللغوية ، فنقول وبالله التوفيق :

القومية : مصدر صناعى ، ونسبتها : إلى قوم ، ولفظ قوم ورد فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة مطلقا ومقيدا إما بالإضافة إلى مؤمن أو كافر أو بصفة إيمان أو كفر أو مادخل فى أحدهما . وإذا ذكر مع لفظ : قوم لفظ : نساء على سبيل المقابلة صار لفظ : قوم يعنى الرجال فقط كقوله تعالى : (لايسخر قوم من قوم)[2] .

ثم قال تعالى : (ولا نساء من نساء)[3] .

---

(١) الأحزاب : ٧٠ ـ ٧٣

هذه خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فى سنن ابن ماجه ، باب خطبة النكاح ٦٠٩/١ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط / حلبى ، ١٣٧٢ هـ .

وانظر صحيح مسلم ، الجمعة ٣٣٦/١ ، ط / حلبى ، جماد ثانى ١٣٧٢ هـ

وهى مشروعة ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ٣/١ ، واستزدت من سياق الآيات مارأيته مناسباً فى استهلال البحث .

(٢،٣) الحجرات : ١١

أما إذا ذكر لفظ قوم وحده فيدخل فى معناه النساء .

قال الله تعالى : (إنها كانت من قوم كافرين)[١] .

ولأن قوم كل نبى رجال ونساء .

وسمى القوم قوماً : لأنهم فى الأصل يقومون بمهام الأمور ويقيمونها بما تقوم به وتصلح عليه[٢] بمشيئة الله تعالى كما قال سبحانه : (لمن شاء منكم أن يستقيم ، وماتشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين)[٣] .

واسم الفاعل : قائم ، ولله منه قوله تعالى : (هو قائم على كل نفس بما كسبت)[٤] .

وقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[٥].

ويصاغ منه قيوم ؛وقيوم اسم من أسماء الله الحسنى ، من معناه أنه سبحانه يقيم الخلق ، فقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وشرع له الدين القيم الذى أوحاه إلى صاحب المقام المحمود محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه به إلى الناس فبلغهم إياه حتى أصبح فيهم كتاباً قيما يهدى للتى هى أقوم ، وسنة قائمة على صراط مستقيم ، والله وضع الميزان ليقوم الناس بالقسط فمنهم قائم لله وحده يمشى سويا على صراط مستقيم بفضل الله ورحمته ، ومنهم قاسط يمشى مكباً على وجهه يصد عن سبيل الله ويبغيها عوجا والله

---

(١) النمل : ٤٣

(٢) انظر معاجم اللغة مادة : قوم

(٣) التكوير : ٢٨ ، ٢٩

(٤) الرعد : ٣٣

(٥) آل عمران : ١٨

عزيز حكيم ، (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم)[١] .

ثم يقيم الله القيامة ، وتعنو الوجوه للحى القيوم : (وعنت الوجوه للحىّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً)[٢] .

ولقد أوجب الله على عباده أن يقوموا له بما شرع ، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (قم فأنذر)[٣] ، (فأقم وجهك للدين القيم)[٤] .

وقال لأمته : (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[٥] ، (وقوموا لله قانتين)[٦] .

(ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله)[٧] ، (وأقيموا الشهادة لله)[٨] ، (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)[٩] .

وكل قومة على غير ماشرع الله فهى وإن قامت بقدر الله غير صالحة ولا مصلحة ولا دوام لها ولا تمكين لها فى الأرض .

قال الله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين)[١٠] .

---

(١) هود : ٥٤
(٢) طه : ١١١
(٣) المدثر : ٢
(٤) الروم : ٤٣
(٥) الشورى : ١٣
(٦) البقرة : ٢٣٨
(٧) المائدة : ٨
(٨) الطلاق : ٢
(٩) الرحمن : ٩
(١٠) الأنبياء : ١٠٥ ، ١٠٦

القومية العربية :

معنى لفظها هذا حسبما يتبادر إلى الذهن مطلقاً ، يدل على قومة العرب سواء كانت هذه القومة على الأساس الثابت كالإسلام، ولا ثابت غيره، أم كانت على غير الإسلام .

ولـكن بحثنا هذا ينحصر فى فـكرة القومية العربية المعاصرة ومايراد بها ، فلنقتصر على بحثها .

لماذا اخترت البحث فى هذه الفـكرة ؟

رأيت أن فـكرة القومية العربية قد أصبحت فى عصرنا مشكلة : مشكلة فى العقيدة : لبس بها الحق بالباطل، ومشكلة فى العلم : شبه بها للناس حتى ظن الجهل علماً والعلم جهلا .

وقد فرض محلها من التربية المكان الأعلى ، ومن التعليم بجميع مراحله المـكان الأمـكن فى كثير من البلدان الإسلامية ، حتى جعلت مبلغ العلم وسيلة وغاية ، واعتبر معتنقها قد بلغ من الوعى النهاية ، واستحق الثقة والولاية . بل إن ميدان التربية والتعليم قد استهدِف لغرسها فيه منذ أمد بعيد وعلى مراحل ، إنه الميدان الذى بدىء بها فيه كفـكرة ، وتـكاملت نظريتها على مسرحه عن طريق الدعوة السرية أولا ثم الجهرية ثانياً ، وقد انتشرت منه إلى سائر الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتشريعية وسائر ميادين الحياة البشرية فى المجتمع الذى سودت فيه ، ولا غرابة فإن ميدان التربية والتعليم منطلق التأثير الذى ينتشر بقوة فى أعمق أغوار المجتمع الإنسانى ، وأبعد أبعاده ولأن ميدان التربية والتعليم هو الميدان الذى نمارس فيه بحمد الله دراستنا التربوية والعلمية، بل وحياتنا

العملية كذلك،أردت التمييز بين الحق والباطل ، والفرقان بين العلم والجهل، وكشف الشبهات وفسر الملبسات فى هذه المشكلة حسبما يقتضيه الميثاق الذى أخذه الله على الذين أوتوا الكتاب : (لتبيننه للناس ولا تكتمونه)[1] على قدر الوسع والطاقة .

ثم من الناحية الأخرى ناحية الحب والعاطفة، فإن هذه الفكرة مبرجة مزينة ، ومنفقة بمدحة ، ومعربة بمحبة ، ومفروضة بقوة ، حتى بدت كأحسن العُرب الأتراب ، وأصفى الخلص ، وأعرف المعارف ، وأرسى الثوابت ، فانصرفت إليها قلوب غالية ، وأنفقت لأجلها أعمال وأموال ، وبذلت فى سبيلها مهج وأرواح ، فأردت بيان هذه الفكرة بعد استبانتها على حقيقتها بالبحث عن جنسها وفصلها ، وأصلها ومنبتها ، وبالخبر عن أمها ودينها ، وصدقها ووفائها ، وبالإيضاح عن عواقبها وما اختبأ من ورائها ، نصيحة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين وعامتهم و (الدين النصيحة) .

وفى حد علمى القاصر أن هذه الفكرة لم تبحث من قبل على نور كاف من الإسلام لاستبانتها فى ميدان التعليم العالى بحثاً مستوفياً عرض هذه الفكرة ومن أين استمدت ؟ وتاريخها ، وإبراز دور كل من اليهود والنصارى فى بعثها ، من مصادرها ، مع التعقيب بالنتيجة وتقرير المخلص والمفاز . والله أعلم .

---

(١) آل عمران ١٨٧

كيف سار هذا البحث ؟

قسمته إلى خمسة فصول :

جعلت الفصل الأول :

عرضاً لنظرية القومية ككل ، والقومية العربية كأحد أفرادها فى التعبير النهائى عند القوميين، بأمثلة مختصرة من مصادر مقبولة لها وعليها ، مراعياً اختلاف الزمان والمكان لكى ندرك افتراضاتها وقضاياها التى قبلت بها وطابعها المثبت .

يتضمن هذا العرض تعريف القوميين للقومية وتاريخهم لنشوئها فى أول القرن التاسع عشر الميلادى فى أوربا أولا ، ثم فى بلاد العرب بعد ذلك ، ولماذا تأخر ظهورها إلى هذا التاريخ ؟

والجواب : هو أن سيطرة المفهوم الدينى وقوة سلطانه على النفوس السبب الرئيسى لتأخر ظهور القومية قبل هذا التاريخ ، ثم سيطرة الولاء للملك أيضاً السبب الثانوى لتأخرها قبل القرن التاسع عشر الميلادى ، هكذا يجيب القوميون ، ويتضمن ذكر مايراه القوميون عوامل مكونة الأمم وهى: اللغة والتاريخ والوطن،والمصالح المشتركة ويتضمن بيان دعوة القوميين العرب إلى الإيمان بالعروبة بدلا من الإسلام .

وبيان أنهم يوجبون الجهاد والتضحية بالأموال والأنفس فى سبيل العروبة المشتركة بين مختلفى الأديان ، ويوجبون إزالة العقبات التى تحول دون ذلك كله ، وإن تكن هى الرابطة الإسلامية : أو الولاء للملك .

وبيان أن أساس دعوتهم وهمُ أن القومية ظاهرة طبيعية على وهمِ أن الطبيعة حتمية الوقوع بذاتها ، فالقومية على هذا ما هى إلا مرحلة من مراحل الطبيعة الاجتماعية التى لا مناص للبشرية من المرور بها والتزامها طوعاً أو كرها ، فما للإنسان العربى إلا أن يجتازها مختاراً غير مكره ، ما دام أن دورها فى بلاده آت عليه حتما ، وماله إلا أن يصرف قلبه إلى محبة قومه ، من غير اعتبار للدين لأنه يفرقهم ، وعليه إبراز التاريخ المشترك والعوامل المشتركة الأخرى على ما يرون فقط . وهذا هو الطابع القومى الذى من شأنه أن تنبعث معه مشاعر الاستعلاء والاعتزاز بالقوم والمباهاة بالأمجاد .

وبناء على ذلك يوجبون تأسيس الدولة على المبدأ القومى فحسب ، ونقض أى أساس قد قام عليه بناء يخالف هذا المبدأ القومى ، ويعملون بذلك .

لم أناقش فى صلب العرض هذه الفكرة حرصاً على تكامل صورتها فى الذهن بلا تقطيع ، وأرجأت مناقشتها ونقدها إلى المباحث الأخيرة فى الفصلين الرابع والخامس ، غير أن الضرورة ألجأتنى إلى التعليق فى الهامش على بعض التعبيرات التى رأيت أنه لا يصح السكوت عنها ، وخفت أن تفوت دون أن ينتبه لها أو أن تنسى بعد علوقها فى الباطن .

وفى الفصل الثانى :

بينت دور اليهود فى بعث القومية ، وكيف أن حكماءهم السفهاء استغلوها وتعلقوا بها من الحضيض الذى وقعوا فيه ، والتشتت الذى عاشوه فكانت الصهيونية مشجبهم المريح لذلك التعلق ، استطاعوا بواسطتها تجميع بنى قومهم حول جبل صهيون بفلسطين كمرتكز ارتكزوا عليه بمعاونة أوليائهم .

وبينت كيف أن اليهود استخدموا الفكرة القومية ذاتها لتفريق وفل أي وحدة تقف في طريقهم وتحول دون أطماعهم - خاصة التي جمعت أقواما وشعوباً مختلفة في دولة قوية على أساس الدين - فعمد اليهود ينشرون فكرة القومية داخلها لينتقض أساس وحدتها ولتتوزعها القوميات العديدة ، وأول وحدة جزؤوها هي الوحدة النصرانية ، فاحتووا أجزاءها ، وسخروها بهائم عاملة ، يحققون عليها أغراضهم ، ثم اتجهوا بها نحو الإسلام وأهله غزوا موحداً قد أذكيت فيه روح التعصب الصليبي ، وأثيرت به أحقاد اليهود ، وخططت له المخططات الشيطانية ، والحيل الماكرة ، شأن يهود من قديم ، وبدأوا بإلهاء ذوى النفوذ والجاه والمال والترف بجرهم إلى الغلو في محبة هذه القيم المزينة ليبعدوهم عن الوعى الإسلامي والفقه في الدين ، حتى نفذ فيهم الغزو بالتغفيل والتشكيك وإثارة الشهوات والأهواء عن طريق المحافل الماسونية وغيرها ، ووصل الأمر إلى أن غرروا ولاة أمر الخلافة العثمانية باستيراد القوانين الإلحادية (العلمانية) ، والأوضاع البشرية الظالمة[1] وإحلالها على رعيتهم بدلا من الشريعة الربانية ، وبالتدريج حتى لا ينتبه لها إلا وقد تغلغلت ، ولما تم ذلك كانت العقلية العثمانية قد تهيأت لقبول الولاء القومي وترك الولاء الإسلامي ، فأثارها اليهود في العنصر الحاكم قومية طورانية عنيفة لا تلوى على شيء من الإسلام ، بل تريد صهر جميع الأجناس في بوتقة التتريك ، حتى العرب تريد أن تتركهم ليصيروا أتراكا ، ويستغل هذا الاتجاه الطوراني نحو العرب في تحويل إحساس العرب به إلى الدفاع عن ذواتهم بدلا من الإسلام ، ويوحى إليهم أن عروبتهم وجنسهم هما المقصود

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ . الأحزاب : ٧٢

بالتجاهل والاحتقار ، لكى تثور فيهم النخوة للعروبة المهانة ، والحمية لجنسهم المهضوم ، ويمسوا ان الإسلام ورفعَ رايته والقيام بأمر خلافته أولى بحميتهم ونخوتهم ، وهو المقصود بالإطفاء والكفر ، وإلهاء العرب عنه بأنفسهم هو غاية الأعداء حتى يتركوه ، فإذا تركوه لا يغنى عنهم همهم بوجودهم وعزهم وحميتهم لعروبتهم ذلك لأنهم تركوا الإسلام وهو المبرر الوحيد لعزهم وحماية عروبتهم فى الحقيقة التى عرفها الأعداء .

ثم فى غمرة هذا الاهتمام بالنفس يستدرج أكثر العرب بالمحافل الماسونية والجمعيات السرية فى الشام وغيره وبالدول المسخرة لليهود ليلتزم العرب الولاء للقومية العربية تاركين الولاء الإسلامى ، حتى لا يجاهدوا فى سبيل الله أيضاً عند ما تقوم الحرب العالمية التى يثيرها اليهود ويخططون لها ويمولونها ، وفعلا لما قامت الحرب العالمية الأولى قاتل فيها هؤلاء العرب على أساس المبدأ القومى .

وكما أريد لهم كثوار ضد العثمانيين يطلبون إقامة دولة عربية على أساس العروبة فحسب ، لتجعل كل العرب سواء وما تم لهم ذلك إلى الآن، بل صار واقعهم على نقيض ذلك المقصود .

فلم يرع العالم إلا وقد تم لليهود مرادهم : فلسطين احتلوها ، والجهاد فى سبيل الله - الذى لايخيفهم غيره - قد عطلت أعلامه ، والخلافة الإسلامية الواحدة قد تجزأت وتمزقت بالقومية ، ولم يعد أحد يطلبها عن جدارة ، إذا كان العرب قد اندسوا بالقومية أيضاً وتنازعوا ذات بينهم بسببها ، وفشلوا وذهبت ريحهم ، وصاروا غير قادرين بحالهم هذه على حمل عبء خلافة المسلمين والولاية عليهم كما أن غيرها فى حال أسوأ فهم أعجز من باب أولى ، وصار العرب كلما أرادوا تقارباً ولو على أساس المبدأ القومى

الذى رضيه اليهود بديلا من الإسلام ليقووا به فإن اليهود وحماة صهيون قد تسلطوا على التفريق بينهم وتخذيل بعضهم ببعض : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك)(١) .

والفصل الثالث : خصصته لبيان دور النصارى فى حمل لواء القومية العربية بادىء ذى بدء ، إنهم أول من دعا إليها من بيروت وسائر الشام ومن القاهرة ومن باريس ومن غيرها وأسسوا الجمعيات الأدبية والعلمية فى الظاهر ، وهى فى الحقيقة لنشر الفكرة القومية فى العرب ودعوتهم إلى اعتناقها ، ثم أسسوا الجمعيات العملية والثورية السرية ، ثم الجهرية لتنفيذ هذه الفكرة وفصل العرب عن الخلافة العثمانية بمقتضاها ، وكان فى بداية هذه الجمعيات جميع أعضائها من النصارى ثم استمالوا إليها كثيراً من المسلمين الناشئين(٢) .

وبينت أن للنصارى مصلحة وأهدافاً من فكرة القومية العربية خاصة كظفرهم بأن يكون لعرب النصارى قدر مساوٍ للمسلمين فى البلاد الإسلامية وفى حكم المسلمين وسياستهم وتوجيههم فى ديارهم وهذا ما لم يكن ولا ينبغى لهم فى دولة الإسلام العزيزة ، فما كان من نصارى الصليب إلا أن يغتنموا ضعف دولة الخلافة الإسلامية وضعف العرب فى فقه الإسلام ، وضعف رغبتهم فى الوحدة الإسلامية فقام النصارى ينصبون للعرب قاسماً مشتركا بينهم هو فكرة العروبة ، يرتفع إليها النصارى وينخفض إليها المسلمون ، فلا يصح فى ملتها فرق بينهم حيث التقوا على صعيد العروبة سواء فحسب

---

(١) الحشر : ١٦ .

(٢) إشارة إلى قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : (ينقض الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية) .

وهذا على ما فيه من غبن للمسلمين وكسب للنصارى لم يكتف به النصارى أيضاً ولم يفوا به لسائر العرب ، ورغم تظاهرهم بهذا المبدأ القومى أول الأمر كرواد صدق ، كانوا فى الواقع يدعمون جمعيات (التبشير) التنصير الغربية فى العرب بكل قواهم ويؤازرون بعثاته سراً وعلناً وينشطون فى ذلك كلما تحروا أن يدخلوا العرب فى دائرة النفوذ النصرانى أو أن يخرجوهم على الأقل من دين الإسلام .

ولما حصلوا على مرادهم من القومية العربية استطالوا على العرب من غيرهم ، خاصة المسلمين، كما فى الشام بما ظفروا به من نفوذ فى الداخل العربى ويقوى الصليبية الأعجمية الغازية لمصلحة صهيون وسائر أعداء الإسلام من الخارج مؤثرين وهم عرب رابطة الصليب مع العجم - على رابطة العروبة ولم يشفع عندهم قدر العروبة المشترك ونسوا أو تناسوا أنه المبدأ القومى الذى حملوا لواءه ودعوا جميع العرب إليه وإلى ترك أديانهم من أجله جانباً ، ولم يعد غريباً أن يمالئوا قوى الصهيونية العالمية ويمكنوهم فى بلاد المسلمين وإن كانت البلاد العربية تحتوى رابطة العروبة ، لأنهم فى الحقيقة وإن كانوا من العرب لم يرتفعوا إلى مستوى العروبة بل مازالوا فى مستوى أعداء الإسلام العجم الصليبيين .

وإذا كان قد تجلى فى دور اليهود التحام جهود النصارى بجهود اليهود فى تفريق وحدة الخلافة العثمانية التى قامت على الإسلام ، وإبعاد العرب عن الولاء الإسلامى وفصلهم عن المسلمين بفكرة القومية العربية ففى دور النصارى يتجلى هذا الالتحام أكثر كما يظهر تعاون نصارى العرب مع النصارى قاطبة فى غزو الاسلام وأهله خصوصاً بنشر الأفكار الإلحادية ونقلها إلى العربية عن طريق الصحف والمجلات والكتب وتوزيعها فى البلاد العربية

فضلا عن الاحتلال المسلح للبلدان الإسلامية كمصر وغيرها وفرض القوانين الإلحادية والأوضاع الجاهلية على المسلمين بدلا عن شريعتهم الربانية .

كل هذا لتضليل عقلية العرب وصد ناشئتهم عن معرفة الإسلام . (والله متم نوره ولو كره الكافرون)[1] .

والفصل الرابع : جعلته نقداً لفكرة القومية ذاتها ، بتحليل حقيقتها واستعراض الواقع الذى آلت بالعرب إليه إزاء عصبة صهيون العالمية ، وفحص أصول كبير دعاتها ، ومعارضة بعضها ببعض لنرى : هل هى محكمة أم متناقضة .

ومن ثم نرى مدى فاعلية ملتزميها وهل كانوا بجد يؤمنون عن علم بواقعية صحيحة لما يصورونه للعرب من وعود حسنة تلاقيهم بها القومية العربية ؟ وعلى ذلك يوجبون الإيمان بها فعالة والايمان بالمستقبل الذى تأتى به ، وأن ذلك حتمى ، فإن آمن العرب بالقومية وجاهدوا فى سبيلها فازوا بالسعادة وإلا هلكوا ! ! !

على ضوء الاسلام بالأدلة القائمة والأمثلة المقارنة أوضحت التحليل وناقشت التعليل ، ثم أثبت ما وصلت إليه من نتائج وأحكام ، ودعمتها بأحكام علماء معاصرين .

وصار الفصل الخامس : خاصاً بالمخلص والمفاز . لكن ناقشت أولا من يرى أنه يلزم التزام القومية العربية فحسب . كمخلص من أزمة تهدد

---

(١) الصف : ٨ .

العرب كعرب ، وحل مؤقت يدفع به أحد ضررين هو أخفهما ، وأن العرب إذا لم يقتصروا على لزوم القومية العربية ترتب على ذلك ذوبانهم وانمحاء شخصيتهم ولذلك يتصور بعضهم أنهم تتضمن الإسلام ، ولا يلزم من الاقتصار على التزامها تركه أو منافاته ، أو يتصور بعضهم أن الاقتصار على التزامها خطوة تقرب الأمة إلى الاسلام ، ومنهم من يرى أن الاسلام ذاته ما هو إلا من عبقرية العرب . وهؤلاء هم المتأثرون بالفلاسفة الذين يرون أن النبوة نوع من الإدراك ، تدرك بالرياضة والاكتساب ، فيرى هؤلاء : أن الإسلام إدراك عربى نبع من ذاتية العرب فحسب ، واجهوا به زمناً مضى وانقضى فما على هذه العبقرية العربية الذكية المدركة إن هى أدركت أن القومية العربية خير ملائم لهذا العصر وهو عصر القوميات ، وهذا أيضاً هو التصور الغربى .

عرضت هذه الآراء أمام الحقيقة وهى : (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله) كلمة الإسلام ، وتضمن ذلك العرض ذكر صور لواقع العرب بدون الإسلام ، قديمة وحديثة ، قد اكتملت فيها مشخصات العروبة من غير نقص ، ولا غفلة عن وعيها ، ولا تخلف فى تعاملهم على أساسها ، قد اشتركوا فى لغة واحدة هى العربية وأرض واحدة هى الجزيرة العربية ، وتاريخ واحد هو تاريخ حروبهم وايامهم وأنسابهم ومآثرهم ، وحضارتهم وبداوتهم ، وبينت كيف كان غناء هذه الصور بين أهل زمانها الماضى والحاضر شرقاً وغرباً ، ثم قارنت هذا الغناء بالغناء الذى أسبغه الله عليهم حين قبلوا نعمته وهى الإسلام ، فأتمها الله عليهم ودخلوا فيه أفواجاً ، فانقلبت حالهم من الأسوأ إلى الأحسن .

وأشرت إلى القومة الراشدة التى قامها خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم

بإذن الله تعالى فدعوا إلى الله وقالوا إننا من المسلمين وهم عرب فأنقذوا من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن نار الآخرة إلى جنتها ، قصروا قيصر الأرباب المتخذة من دون الله فى النصرانية غرباً ، وكسروا كسرى عبادة النار والمزدكية الاباحية الشيوعية شرقاً ، ونشروا نور الله (الإسلام) فى مشارق الأرض ومغاربها ، وما من علم ولا قوة يتبجح بهما أهل الشرق والغرب اليوم ، إلا وقد اقتبست أنوارهما الفاتحة وأخذت مفاتيحها المنيرة من الاسلام .

ثم بينت كيف يمكن للعرب اليوم ، وهم الأقرب والأولى لأنهم عرب والقرآن عربى ولأنهم أحفاد الراشدين ، أن يقوموا مثل تلك القومة الراشدة بمشيئة الله تعالى .

وبينت قرب مفتاح قفل الدنيا والآخرة منهم لو يبصرون ، هذا القفل الذى أعيا كل من حاول فتحه بغير مفتاحه وما مفتاحه سوى : (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله) القريب من العرب كل القرب وهو مبدأ الاسلام الرئيسى ، والحقيقة كل الحقيقة التى لا ينافيها إلا باطل إنه كلمة الله العليا وشهادته وشهادة الملائكة وأولى العلم ، وكفى بالله شهيداً (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الاسلام)(١) .

وبشرت ببشارة المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى . وهى أن المسلمين هم الذين سيسلطون بإذن

---

(١) آل عمران : ١٨ ، ١٩ .

الله على اليهود ويقتلونهم حتى ليختبيء اليهودى خلف الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم ياعبد الله خلفى يهودى تعال فاقتله .

أحسب أن قد بينت فى هذا البحث : أنه لا مخلص ولا مفاز حق إلا بالإسلام كما هو الحق والواقع الذى ليس بعده إلا الضلال والخيال ، ووفيت عنوانه الموسوم : (فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام) . وأعترف بقصورى وتقصيرى ذاتياً واندراجى تحت كلية الخطائين من أسرع باب ، ولكن استغفر الله وأتوب إليه ، ثم اعترف بما ينبهنى إليه العلماء وأقوم بإصلاحه إن شاء الله تعالى ، وأرغب فى أخلاق المسلمين وهى مكارم الأخلاق .

الشكر :

الشكر لله ، أولا وآخراً وظاهراً وباطناً ، فهو الأول الذى ليس قبله شيء والآخر الذى ليس بعده شيء ، والظاهر الذى ليس فوقه شيء ، والباطن الذى ليس دونه شيء ، وهو بكل شيء عليم وبنعمته تتم الصالحات . ثم أشكر أستاذى المشرف على هذا البحث الأستاذ محمد قطب ، فقد قام بدوره وأحسن جزاه الله خيراً ، وأشكر الذين تكرموا وأعارونى مراجع هامة فى القومية العربية ، أخص بذلك أستاذى محمد أمين المصرى والزملاء فؤاد سند سليمان العائد وعبد الله الجفالى .

ولقد أفدت بفضل الله من هذه المراجع فائدة كبيرة وميسرة لم أشد رحل سفر إلى مكانها ولا جهدت فى استيرادها من الخارج ولله الحمد ، وأشكر كل من أفادنى من خلال مؤلفاته أو مذاكرته عند لقائه كما أشكر من ساهم فى نشره وطبعه وتوزيعه لنفع المسلمين والناس بأى صورة من الصور المشروعة .

وأتحمل وحدى مسئولية عملى والله المستعان وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، إن أحسنت فمن الله وحده وله الحمد والشكر وحده وإن أسأت فمن نفسى ومن الشيطان(١) وأعوذ بالله المحمود على كل حال وأسأل بمنه وكرمه أن يتقبل هذا البحث وأن ينفع به المسلمين خاصة والناس عامة ولا يكلهم إليه وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

---

(١) قال غير واحد من الصحابة كأبى بكر وابن مسعود فيما يقولونه باجتهادهم : « إن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان » انظر : تفسير المعوذتين مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، ج٢ ، ص ٢٠٩ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت - لبنان .

الفصل الأول

عرض لحقيقة فكرة القومية العربية

فى تعبيرها النهائى من مصادرها

(أ) ساطع الحصرى

تعريف بحاله :

« تربى فى تركيا وتلقى فى حداثته وشبابه التربية المعهودة لدى جيل تركيا الفتاة تلك التربية التى كانت تستند إلى الأفكار الوضيعة الفرنسية والقومية الأوربية[1] شغل مراكز هامة فى وزارة التربية العثمانية . التحق بالحكومة العربية فى دمشق وصار وزيراً للتربية فى حكومة الملك فيصل ، ثم رافقه إلى العراق حيث عين مرة أخرى فى وزارة التربية[2] . رافق فيصل هذا إلى أوربا ، وذهب إلى أستامبول للاتصال بالكماليين ، كان له أثر كبير فى تكوين وعى قومى فى العراق ، نفى من البلاد بعد فشل انقلاب رشيد عالى الكيلانى ، عاش فى بيروت ثم فى القاهرة كموظف رسمى

---

(١) إلياس مرقص ، نقد الفكر القومى ، ساطع الحصرى ، ص ١٢/ والبرت حورانى ، الفكر العربى ، ص ٧٣١ .

ومن المتقرر أن الماسون هم مؤسسو جمعية تركيا الفتاة ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله فى دور اليهود فى القومية فى الفصل الثانى من هذا البحث .

(٢) المصدرين السابقين .

فى جامعة الدول العربية[1] وفيما كان فى بيروت ثم فى الجامعة العربية فى القاهرة وضع سلسلة من الأبحاث دارت خصوصاً حول النظرية القومية والدفاع عن القومية العربية ..

ويمكن النظر إليها كالتعبير النهائى لتلك الفكرة القومية التى برزت خلال الأعوام اللاحقة لعام (١٩٠٨ م) والتى سيطرت على الحياة السياسية فى سوريا والعراق حتى (١٩٤٥ م).

« نجد فى كتاباته نظرية نقية للقومية . . . استمدها خلافاً لما سواه من الكتاب لا من الفكر الإنجليزى والفرنسى فحسب، بل من جذورها فى الفلسفة الألمانية أيضاً . لقد قرأ فيخته كما لم يفعل حسب علمنا أى قومى عربى آخر »[2]

« الدعوة للقومية العربية هى محور عمله وحياته (أكثر من نصف قرن) » .

« ولم تتردد القاهرة فى منحه جائزة الدولة التقديرية على كتابه الأخير « الإقليمية جذورها وبذورها » وفى أوائل عام (١٩٥٥ م) نشرت مجلة الثقافة الوطنية الشيوعية اللبنانية تعليقاً طويلا على كتابه : « العروبة أولا » . خصت معظمه بالمديح والتأييد[3]

ويقال عن الحصرى : « إنه أكبر وأقدم دعاة الفكرة القومية ، أنه

---

(١) إلياس مرقص ، ص ١٢

(٢) ألبرت حورانى ، ص ٣٧١ .

(٣) إلياس مرقص ، ص ٩ .

فيلسوف الفكرة القومية العربية » « وهو مرجع أساسى بالنسبة لجميع العاملين فى حقل الفكرة القومية »(١) .

« نجد أفكار وأقوال الأستاذ الحصرى فى الكتب المدرسية ، مثلا فى سوريا : كتاب (المجتمع العربي) للصف الثانى عشر ، وكذلك (التربية الوطنية) للصف التاسع .

« قد طبعت بعض مؤلفاته خمس طبعات حتى (١٩٦٦ م) . . . . أن عدد نسخ كتبه فى المشرق العربي لا يقل بحال من الأحوال عن مئة ألف(٢) .

والملاحظ : من كتابات القومية العربية ذكر ساطع الحصرى مرجعاً هاماً لفكرة القومية ، والقوميون يلتقون على أفكاره ولا يعارضونه فى جوهرها وهو : « إلزام العرب مبدأ القومية كغاية يدعى إليها » .

منهج الحصرى وخطته :

ندع الحصرى يتحدث عن منهجه بنفسه حيث ننقل قوله :

« إن أعمالى فى قائمقامية رادويشته التابعة إلى ولاية قوصوه خلال عهد المراقبة الدولية المفروضة على الولايات الثلاث أى ماكدونيا ، كانت أكسبتنى بعض الخبرة فى كيفية تدبير الأمور دون إفساح المجال إلى اعتراض هيئة المراقبة وتدخلها مع التغلب على الدسائس والمناورات التى

---

(١) إلياس مرقص ، ص ٩ /ومحمد جلال كشك ، القومية والغزو الفكرى ، هامش ص ٣٨/ وجريدة العمل لسان حال الكتائب اللبنانية سنة (١٩٥١ م) نقلا عن أبحاث مختارة فى القومية العربية للحصرى ، ص٥١٣ .

(٢) إلياس مرقص ص٩ .

كان يقوم بها البعض من المراقبين . ولذلك استعرضت فى ذهنى كل تلك الوقائع والتجارب وقررت لنفسى الخطة التى يجب اتباعها فى هذا الشأن :

بحث الأمور والمشاريع بحثاً دقيقاً وشاملا قبل إيصالها إلى مكتب المستشار والتسلح بسلاح قوى من العلم والمنطق فى مناقشتها معه .

والعمل على الدوام بهدوء تام دون إثارة وضجيج من إخفاء الغرض الأصلى من ذلك العمل فى بعض الأحيان .

« إن المرتبة العليا من السياسة » ، أى سياسة التربية الوطنية والقومية تدخل ويجب أن تدخل فى صميم أعمال المدارس وأغراضها .

وأما المراتب الأخرى . . . فتبقى ويجب أن تبقى بعيدة عن المدارس واهتماماتها .

« هذه الخطة التى كنت شرحتها ونشرتها فى إحدى المحاضرات التى ألقيتها فى الاستانة قبل أحد عشر عاماً ستكون من أهم المبادىء التى سألتزمها خلال عملى فى العراق ، إنى سأتوسل بكل الوسائل لتقوية الشعور الوطنى والقومى فى نفوس أبناء العراق ، وبث الإيمان بوحدة الأمة العربية بينهم وذلك دون أن أنتسب إلى حزب من الأحزاب السياسية التى لابد أن تتألف عاجلا أو آجلا »(١) .

منهجه مع الاشتراكية والشيوعية هو قوله :

« أنا لا أخالف من يدعو إلى الاشتراكية ، حتى أننى لا أعارض من يقول بالشيوعية ، غير أننى أطلب إلى هؤلاء الا يمزجوا دعوتهم هذه

---

(١) ساطع الحصرى ، مذكراتى فى العراق ، ١/٣٧ ، ٣٨ .

بالفكرة الأممية ، وألا يجعلوا حركتهم معادية للنزعة الوطنية »(١) .

أما منهجه مع الإسلام فهو قوله :

« إن فكرة القومية العربية صادفت فى طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة ، وعقبات خطيرة وقد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالى : فإنها اخترقت أولا السد المنيع الذى تكون من امتزاج فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة الإسلامية . وهى على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التى تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية والرابطة الإسلامية من ناحية أخرى »(٢) :

« والديانة الاسلامية من جملة هذه الأديان العالمية ... وهل أوجدت بهذه الصورة رابطة أقوى وأعم من الروابط القومية الأخرى ؟ إن التاريخ يشهد على عكس ذلك تماماً »(٣) .

« ولا شك فى أن روح القومية الحقة ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر انتصاراً حاسماً(٤) .

ومن ميادين نفوذ خطته حسبما يقول جامعة الدول العربية التى خولته على حد قوله أن يفتتح معهدها للدراسات العربية العالية لمنح الماجستير بافتتاحية عامه الدراسى الأول والتى ضمنها الخطة التى يتمنى أن يتبعها هو

---

(١) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، ص ١٥٣ .

(٢) ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٢٢٩ .

(٣) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة ، ص ٤٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٩٦ .

وزملاؤه الأساتذة فى سيرهم بالمعهد وألقاها بحضور هيئة التدريس والإدارة فى ١٩٥٣/١١/٧ م ، ومما جاء فيها :

« إن أهم أهداف هذا المعهد هو المساهمة فى الأعمال التى ترمى إلى تعجيل التطور الذى ذكرته آنفا(١) وتقوية الفكرة القومية العربية بين جميع الناطقين بالضاد بأحسن الصور وأنجع الوسائل « سندعم جميع دراساتنا من قانونية واقتصادية وتاريخية وأدبية بدراسات تحوم حول القوميات بوجه عام ، والقومية العربية بوجه خاص ، سنستكشف عناصر القومية ومقوماتها باستعراض جميع النظريات التى ظهرت ، والمناقشات التى دارت لنتوصل إلى عناصر القومية العربية ومقوماتها ، على ضوء تلك النظريات والمناقشات ، كما أننا سنتتبع كيفية نشوء فكرة القومية فى مختلف البلاد الغربية والشرقية بتفاصيل وافية لنستنير بها فى أمور القومية العربية » .

« إننا سنهتم بهذه الأبحاث إهتماماً بالغاً ..

« ولذلك قلت : إن أهم الثمرات التى نرجوها من أعمال هذا المعهد ومساعيه هى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها »(٢) .

---

(١) التطور الذى ذكره هو : « مسايرة أوربا فى تطورها » حتى فى ميدان الدين والقومية ، انظر ص ١٦ ، ١٧ من : ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية .

(٢) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، ص ٢٣ ، ٢٥ .

الفكرة القومية

يقول ساطع الحصرى : « الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية التى تربط الفرد البشرى بالجماعات ، وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحى فى سبيلها »(١) .

« إن الإنسان يحب أمته - تحت تأثير النزعة القومية - ويشعر نحوها بارتباط قلبى شديد ، ويعتبر نفسه جزءاً منها ، فيفرح لكل مايزيد مجدها ، ويتألم من كل ما يقلل قوتها ...

« إن منبع الوطنية وبذرتها الأولى : حب الموطن ، وأما منبع القومية وبذرتها الأصيلة فحب الأهل »(٢) .

« إن العوامل التى تربط الأفراد بعضهم ببعض وتحبب بعضهم إلى بعض - فتؤلف منهم أمة واحدة كثيرة ومتنوعة جداً ، الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ ، والاشتراك فى اللغة والتاريخ والتشابه فى العواطف والعوائد والتماثل فى ذكريات الماضى ونزعات الحال وآمال المستقبل ... كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التى تولد التقارب والتعاطف وتكون الأمم الأوطان » .

« ولكننا إذا لاحظنا أنواع الروابط التى تكون الجماعات السياسية

---

(١) نفس المصدر السابق ، ٢٨ ، والنزعات الاجتماعية منها ممدوح يحب ، ومنها مذموم يكره فمن أيهما تكون الوطنية والقومية على المفهوم الأوربى الوثنى ؟

(٢) المصدر السابق ، ٣٢ ، وهل هذا الحب صالح والله سبحانه يقول : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم) الممتحنة : ٣ .

على وجه أخص نجد أن أقواها وأفعلها ، هى نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ . . . وهى التى تتغلب على كل ما عدوها ، وتستتبعها استتباعاً »(١) .

نشوء الفكرة القومية

يقول الحصرى فى محاضرة عنونها بقوله : « نشوء الفكرة القوميه - منذ أوائل القرن التاسع عشر » « وقد طرأ على أوضاع أوربا السياسية - منذ مؤتمر فينا - (١٨١٥ م) من التطورات والانقلابات ما لم يسجل التاريخ مثيلا له ، فى أى عهد من العهود الغابرة » .

« فقد تكونت وانقرضت - خلال المدة المذكورة - دولتان عظيمتان : هما الامبراطورية النمسوية والسلطنة العثمانية » .

« وأما العامل الأساسى الذى أنتج هذه التحولات السياسية الخطيرة بهذه السرعة الخارقة فكان نشوء « الفكرة القومية » ، وتغلغها فى نفوس الشعوب ، تغلغلا جعلها من القوى المؤثرة والمبادىء الفعالة فى تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية

« وتتلخص هذه الفكرة من حيث الأساس فى وجوب تأسيس الدول على أساس القوميات ، لأن كل أمة من الأمم تكون « عضوية اجتماعية طبيعية » ذات كيان معنوى خاص ، فيحق لها أن تستقل فى إدارة شئونها ،

---

(١) المصدر السابق ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، وهل هذه الروابط رابطة بنفسها حقيقة ؟ أين هى فى الواقع بغير الله ؟ وأين هى يوم ينفخ فى الصور ؟ مع قوله تعالى : (فلا أنساب بينهم) (المؤمنون : ١٠١) .

دون أن تخضع لمشيئة أمة أخرى ، وأن تؤسس « دولة خاصة بها مستقلة ومنفصلة عن غيرها »(١) .

ويتحدث الحصرى عن موقف كثير من المفكرين والكتاب من نظرية ما يسميه حق القوميات فذكر أن البعض يدعو إليها والبعض يناهضها ثم قال يرد على المناهضين : « ولكن للطبيعة أحكام لا تخضع لمشيئة الأشخاص ، ولا تتأثر بالدعايات التى تقوم لها أو عليها ، وللطبيعة الاجتماعية أيضاً سنن تسير عليها غير آبهة بالأضرار أو المنافع التى تنجم عنها ، ولذلك سارت فكرة حقوق القوميات سيرها الطبيعى ، ووصلت إلى نتائجها المحتومة ، وأعادت بناء الدول الأوربية على أسس جديدة تختلف عن أسسها القديمة اختلافاً كلياً »(٢) .

وكان الحصرى قد تساءل لماذا لم تنشأ هذه الفكرة إلا فى القرن التاسع عشر ؟

ويجيب بأن المانع هو سيطرة مفهوم أن الملك يملك الدولة ، « فتخضع لمشيئته خضوعاً مطلقاً لا يقيده أى قيد » كما هى حال « ملوك أوربا بأجمعهم » « حين يتصرفون بممالكهم تصرفاً مطلقاً كما يتصرف الأفراد بالأراضى والعقارات التى يملكونها » .

---

(١) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ٦٧ ، ٦٨ . وفى عبارة الحصرى هنا يذكر أن نتائج فكرة القومية محتومة ، وليس حتمى الوقوع إلا ما أراده الله تعالى ، كما ذكرنا أن للطبيعة أحكاماً غير خاضعة وسنناً تسير غير آبهة بما ينجم عنها ، بينما فى الحقيقة أنه ليس ثمة أحكام مطلقة لا معقب لها إلا ما حكم الله به ، وليس ثمة سنن لا تتغير إلا سنة الله تعالى ، فنسبة هذا التصور للطبيعة غير صحيح .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن المانع من نشوء الفكرة القومية هو سيطرة الاعتقاد بأن « الله الذى يخلق الممالك ويوزعها كما يشاء أغدق على امبراطورنا خصالا ومزايا كثيرة ، ونصبه سلطاناً علينا ...

« لأننا نقرأ فى الكتاب المقدس بأن الله فاطر الأرض والسماء يعطى السلطان بفضل مشيئته ورحمته »[١] .

ثم ذكر الحصرى نماذج للحركات القومية الأوربية كمثال يحتذى ، فذكر ألمانيا وأثنى على الأمة الألمانية بأنها كانت تتمتع بأدب راق وثقافة عالية ، ولما كانت مع هذا مجزأة إلى دول ودويلات مستقلة تماماً ويحول دون اتحادها فى الدرجة الأولى - أنانية الملوك والأمراء وتمسكهم بالامتيازات التى كانوا يتمتعون بها . قامت الحركات القومية فى ألمانيا على أساس ضمان تعاون الدول الألمانية وتفاهم ملوكها وأمرائها[٢] .

وذكر إيطاليا وأنها تختلف عن ألمانيا بأن بعض أقطارها تابعة لدول أجنبية فكانت الحركة القومية فى إيطاليا على أساس تخليص الأقطار من سيطرة الأجنبي من جهة وتوحيد الدول المستقلة من جهة أخرى[٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ٦٣ ، ٦٥ . وهنا يفصح الحصرى عن أن سيطرة الاعتقاد : بأن الله الذى يخلق الممالك ويعطى السلطان من يشاء سبب لتأخر ظهور القومية فى عهد قوته .

(٢) المصدر السابق ، ٦٩ ، وبذلك يعرض الحصرى بالدول العربية التى استقلت وتميزت عن بعضها أنه لتمسك ملوكها وأمرائها كل بامتيازاته الخاصة لتفعل مثل ما فعلت ألمانيا .

(٣) المصدر السابق ، وهنا يعرض بالأقطار العربية التى لم تستقل لتفعل مثل ما فعلت إيطاليا .

وزعم أن شعب اليونان قد أضاع استقلاله تماماً لأنه ظل تحت السلطنة العثمانية قروناً عديدة ولم يبق له شيء من خصائصه الأصلية غير لغته الخاصة ومذهبه الأرثوذكسي . فنشأت القومية اليونانية على أساس تذكير التاريخ وإثارة الحماس الديني في ظل الكنيسة الأرثوذكسية التي قد حافظت على كيانها محافظة قومية تامة(١) .

وزعم الحصري أيضاً أن الأمة البلغارية أضاعت أيضاً استقلالها تماماً يوم دخلت بأجمعها تحت حكم السلطنة العثمانية فضلا عن أنها كانت أرثوذكسية المذهب تابعة للكنيسة اليونانية التي تعمل على نشر اللغة اليونانية بين الشعب البلغاري بوسائل شتى . فنشأت الفكرة القومية البلغارية على أساس إحياء اللغة البلغارية والتذكير بالتاريخ البلغاري ، ثم الاستقلال عن الكنيسة اليونانية أولا وعن الدولة العثمانية ثانياً(٢) .

ويؤكد الحصري نظرة القوميين إلى أن السبب الرئيسي لتأخر ظهور القومية هو قوة الدين بما يقوله عن الأتراك فيما يلي :

---

(١) المصدر السابق ، ويفهم من كلام الحصري أن السلطنة العثمانية أبقت لشعب اليونان لغته ومذهبه الديني حتى وصل به الأمر إلى ثورة الحماس الديني فيه ضد من خالف مذهبه فكيف يكون قد أضاع استقلاله تماماً لأنه ظل تحت سلطنة تحمي خصوصياته من لغة ومذهب ؟ ولكن الحصري يعرض بعرب مسلمين يوالون السلطنة العثمانية بدافع حماسهم حماية الإسلام ليجعلوا دينهم مذهبياً قومياً فينفصلوا به عن من لا يذهب مذهبهم وليس من قومهم كما فعلت اليونان « في ظل الكنيسة الأرثوذكسية التي قد حافظت على كيانها الخاص محافظة قومية تامة » .

(٢) المصدر السابق، ٦٩ ، ٧٠ . وهنا يعرض الحصري بعرب يستثقلون تبعيتهم للاسلام لهيمنة حضارته عليهم فضلا عن هيمنة سلطانه ليفعلوا مثل فعل شعب بلغاريا على حد خبره .

« وأما عند الأتراك فالأمور كانت أكثر تعقيداً من جميع النماذج التى ذكرناها آنفاً . لأن الشعب التركى كان العنصر الحاكم فى دولة إسلامية كبيرة تجمع بين السلطنة والخلافة ، فالشعور القومى ظل تابعاً للشعور الدينى مدة طويلة ، وذلك أوجد بعض الحالات الخاصة التى حملت القوم على معالجة الأمور بأساليب ووسائل خاصة ، وكان أهم هذه الوسائل إصلاح اللغة والأدب بنظرات قومية بحتة ، وإعادة النظر فى مباحث التاريخ على أساس تبعيدها من النظرات الدينية ، وإيجاد تاريخ تركى جديد يثير فى النفوس حس الغرور والمباهاة بأمجاد الأجداد ... »(١) .

ويختتم الحصرى كلامه عن نشوء الفكرة القومية بالرد على من يقول : « إن عصر القوميات انتهى نظراً لانتهاء أعماله فى أوربا » فيقول :

« ولذلك أكرر القول بأن الفكرة القومية لم تتم بعد مهمتها فى هذه البلاد (العربية) وإن كانت قد أتمتها فى كثير من البلاد . ولا شك فى أنها ستؤدى مهمتها فى هذه البلاد أيضاً عاجلا أو آجلا »(٢)

تساؤل آخر : لماذا تأخر نشوء القومية فى البلاد العربية ؟

وهذا التساؤل يثيره الحصرى فرعاً لتساؤله الأول : لماذا لم تنشأ فكرة القومية فى أوربا قبل القرن التاسع عشر الميلادى ؟

ويجيب الحصرى على تساؤله هذا بنحو إجابته عن تساؤله الأول فيقول :

---

(١) المصدر السابق ، ٧٠ ، وهذا ما يدعو إليه العرب ، قومية محورها « إثارة حس الغرور فى النفوس » .

(٢) المصدر السابق ، ٧٢ ، وهذا جزم عجيب حينما تعقد به قلوب بينما هو لا يطابق الواقع . لكن قد يطابق حس الغرور .

« إن أسباب ذلك كثيرة ومتنوعة . . . ولا شك فى أن أول هذه الأسباب وأقدمها هو ، السلطة المعنوية التى كانت تتمتع بها السلطنة العثمانية باعتبارها « دولة الخلافة الإسلامية » .

« هذه السلطة المعنوية القوية كانت تخدر فينا روح القومية العربية وتجعلنا لانشعر بأننا أمة مغلوبة على أمرها ، مستسلمة لسلطان أجنبى عنها ، نسينا أن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين(١) » .

«استمر الحال على هذا المنوال مدة طويلة حتى أنه عندما بدأت جماعة مستنيرة(٢) من الناطقين بالضاد تنتبه إلى ذلك وتطالب بحقوق العرب وتتكلم عن حقوق اللغة العربية ، قامت جماعات كبيرة تعارضهم معارضة شديدة ، زاعمة بأن هذه المطالبات تسىء إلى الرابطة (الإسلامية) العثمانية وتنافى الأخوة الإسلامية ،

«واستمر هذا التأثير المعنوى يعمل عمله فى نفوس الكثيرين من متنورى العرب . . . إلى أن قام الكماليون يحاربون الجيش الذى جرده الخليفة ضدهم - خدمة لأغراض المستعمرين - وإلى أن فضح الأتراك أنفسهم

---

(١) المصدر السابق ، ١٩ ، وأود أن أسأل ماذا فى هذه المعنوية من ذم ؟ إن هى خدرت فينا روح معنوية تميزنا عن سائر المسلمين « والمسلمون سواسية كأسنان المشط » ، أليس هذا هو شأن الإسلام فى تهدئة كل روح تفرق بين المتماثلات وتفاوت بين المتساويات أو تسوى بين المختلفات كالفجار والأبرار وهم لا يستوون . من هنا نقم الشيوعيون على الإسلام وقالوا : الدين أفيون الشعوب .

(٢) أى تنور فى ما خرج عن نور الله (الإسلام) ؟ أم أنه يقصد بمتنور ما يقصده الجماعة النورانيون من اليهود .

أنواع المساوىء التي كانت تقستر وراء ستار الخلافة الاسلامية(١) .

اللغة والتاريخ

يرى الحصرى القومى أن اللغة والتاريخ هما أكبر مكونات الأمم(٢) لكن التاريخ أصغر من اللغة ، أما اللغة فهى كبيرة العوامل التى يزعم أنها مكونة وهذا قوله فيما يلى :

«إن أهم العوامل التى تؤدى إلى تكوين القرابه المعنوية التى يشعر بها الأفراد فى الأمم المختلفة هى اللغة والتاريخ ، فإن الاعتقاد بوحدة الأصل إنما يكون فى الدرجة الأولى من الوحدة فى اللغة والاشتراك فى التاريخ » .

« اللغة هى أهم الروابط المعنوية التى تربط الفرد البشرى بغيره من الناس . . »(٣) .

« وبما أن اللغات تختلف بين قوم وقوم ، فمن الطبيعى أن نجد الأفراد الذين يشتركون فى اللغة يتقاربون أكثر من غيرهم . ويتماثلون ويتعاطفون أكثر من سواهم ، ويتميزون عمن عداهم ، فيؤلفون بذلك أمة متميزه من الأمم الأخرى(٤) ...

---

(١) المصدر السابق ، ١٩ ، والكماليون هم أتباع أتاتورك خادم الاستعمار الكافر حقيقة .

(٢) بينما أن اللغة لا توصف بأنها مكونة ولا التاريخ ولا غيرها ولا جميع من سوى الله تعالى ، إنما الذى يختص بهذ الوصف هو الله رب العالمين الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، فسبحانه وتعالى عما يشركون .

(٣) المصدر السابق ، ٤٢ .

(٤) المصدر السابق ، ٤٣ .

« إن اللغة هي روح الأمة وحياتها ، أنها بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى وهى من أهم مقوماتها ومشخصاتها ، أما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها ، فإن كل أمة من الأمم إنما تشعر بذاتها وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص »(١) .

ويتحفظ الحصرى عند ذكر التاريخ فيقول :

« عندما أقول التاريخ لا أقصد بذلك التاريخ المدون فى الكتب ، التاريخ المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات - بل أقصد بذلك التاريخ الحى فى النفوس ، الشائع فى الأذهان . المستولى على التقاليد »(٢) .

القومية العربية

من محاضرة ألقاها الحصرى فى قاعة جمعية الوحدة العربية بالقاهرة فى ١٩٥٠/١٢/٢ م استخلص هذا العنوان فى أبحاثه التى اختارها فى القومية العربية ومما جاء فى بحثه تحت هذا العنوان :

« إن كل شعب يتكلم العربية هو شعب عربى ، وكل من ينتسب إلى

---

(١) المصدر السابق ٤٤ . إن روح الأمة وحياتها ليس لغتها ولكنه من أمر الله قال الله تعالى : (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (الاسراء : ٨٥) ، وذاكرتها وشعورها ليس إلا ذكر الله الذى أنزله للعالمين قال تعالى : (إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) (التكوير : ٢٩) .

(٢) أى لا يقصد التاريخ الإسلامى فى قرونه الماضية والتى تذكر الأمة العربية بشرفها وعزها وتوقظها على واقعها المتباعد عن الإسلام فتعود إليه ، وإنما يقصد تاريخها الحاضر ، نسيانها لذكرها المستولى على التقاليد والأذهان كى يدوم .

شعب من هذه الشعوب العربية هو عربي ... وأما إذا لم يعرف هو ذلك، ولم يعتز بالعروبة ... (١) فعلينا أن نبحث عن الأسباب التي تحمله على الوقوف هذا الموقف . فقد يكون ذلك ناتجاً عن الجهل ، فعلينا أن نعلمه الحقيقة . وقد يكون ناشئاً عن الغفلة والانخداع ، فعلينا أن نوقظه ونهديه سواء السبيل ، وقد يكون ناتجاً عن فرط الأنانية ، فيجب علينا أن نعمل للحد من أنانيته »(٢) ويستعرض الحصرى نظرية الألمان فى أساس القومية فيقول :

« كان الألمان يقولون منذ أوائل القرن التاسع عشر : إن أساس القومية ومعيارها الصحيح هو اللغة ، ثم نظرية الفرنسيين فيقول :

« وأما الفرنسيون فقالوا : إن القومية ليست باللغة ، بل إنما هي بالإرادة والمشيئة »(٣) .

ويصحح نظرية الألمان ليأخذ بها العرب فيقول :

« وعلى كل حال ، أنا لا أتردد فى القول بأن النظرية الألمانية فى هذه القضية ، هى النظرية الصحيحة التى أيدتها الوقائع التاريخية ودعمتها الأبحاث العلمية »(٤) .

---

(١) إنما الاعتزاز بمن له العزة كما قال الله تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (المنافقون : ٨) .

(٢) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة ، ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٨ . يلاحظ أن النظرية الالمانية تنظر إلى اللغة كمعبود أساسى للقومية ، بينما النظرية الفرنسية تعتبر إرادة الأمة هى المعبود للقومية وكلاهما شرك بالله الذى لا معبود حق سواه فسبحانه وتعالى عما يشركون . =

ويصل إلى خلاصة قوله فى القومية العربية فيقول :

« وخلاصة القول : أننا فكلما (هكذا) تعمقنا فى درس القضايا القومية العامة ... وكلما توسعنا فى درس تاريخ العرب الخاص ... تأكدنا من الحقائق التالية :

المصريون والسوريون ، واللبنانيون، والفلسطينيون،والعراقيون، والنجديون ، والحجازيون ، واليمانيون ، والليبيون ، والتونسيون ، والمغاربة . . كلهم ينتسبون إلى أمة واحدة هى الأمة العربية .

« هنا شعوب عربية عديدة ، ولكن الشعوب كلها تنتسب إلى أمة واحدة هى الأمة العربية .

« هناك دول عربية عديدة ، ولكن هذه الدول كلها تسوس فروع أمة واحدة ، هى الأمة العربية .

« لكل واحد منا . . . لكل واحد من منتسبى هذه الشعوب . . . لكل واحد من مواطنى هذه الدول . . . أن يقول أنا مصرى ، أو أنا عراقى أو أناسورى أوأنا لبنانى . . . ولكن عليه أن يقول فى الوقت نفسه : أناعربى(١)كما يجب عليه أن يقول : العروبة فوق الجميع(٢) » . . .

= ذلك أن قومي ألمانيا يتصورون أن لغتهم تخلق عقولهم وتحرك الفرد حتى أعمق أغوار تفكيره ومشيئته وتجعل المتكلمين بها كلا موحداً يربطهم بروابط متينة، وإن كانت غير مرئية :ولذا يجب على الألمانى أن يبنى ولاءه وآراءه عليها ، هذا حسبما تفيده أقوال فيلسوفيهم هردر ، وفيختة . وهى التى أعجب بها الحصرى فصححها ونقلها وقال بها ولأجلها خطأ وترك نظرية فيلسوف القومية الفرنسية رينان . وكان معجباً ويقول بها ، وتلك هى التى تنظر إلى مشيئة الأمة أنها مطلقة إذا شاءت شيئاً كان غير مقيدة بمشيئة الله تعالى .

(انظر إلياس مرقص ، نقد الفكر القومى ، ص ٨١ — ٩٩) .

(١) ثم ماذا ؟ هل العروبة كافية منجية ؟

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٨ ،وهذا الذى يوجبه الحصرى على كل عربى أن =

الإيمان القومى

هذا العنوان للحصرى من محاضرة ألقيت بنادى المثنى ببغداد وتحت هذا العنوان ينتقل الحصرى إلى الدعوة إلى الإيمان القومى، وهو بالنسبة للعرب : الإيمان بالقومية العربية ويعرفه بأنه : « إيمان الوطنى بمجد الأمة وكفاءتها وبقدرة الوطن ومستقبله »(١) .

ويقول : « إن الكفاح القومى والجهاد فى سبيل النهضة القومية ... يحتاج إلى إيمان راسخ فى النفوس ...

« يتطلب بذل المجهود لبث الإيمان القومى فى النفوس ولتقوية هذا الإيمان وتغذيته بكل الوسائل الممكنة »(٢) .

= يقوله : « العروبة فوق الجميع » هو كشعار ألمانيا القومى : «ألمانيا فوق الجميع » والذى جعلوه عنوان نشيدهم الحماسى ، وكما لقوميي ألمانيا نشيد حماسي يستهلون به، فإن الحصرى يذكر سكان البلاد العربية بالنشيد الحماسى المعروف :

بلاد العرب أوطانى من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن إلى مصر نتطوان

(وانظر أبحاث مختارة ، للحصرى ص ١٩٠) .

وهذا النشيد الحماسى كان الصغار يتلقنونه عن أساتذة ويرددونه ويستهلون به صباح يومهم الدراسى فى المدارس الابتدائية ومن ضمنه هذا الشطر : «فلا دين يفرقنا » وسواء كان نفيا للدين أو نهيا عنه فهو دعوة إلى تركه لانه يفرق العرب على قسمين : كافر ومؤمن بخلاف ما يوجبه الحصرى على كل عربى أن يقول : «العروبة فوق الجميع » . بينما الذى فوق الجميع حقيقة هو الله تعالى كما قال سبحانه : (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) (الأنعام : ٨) .

(١) المصدر السابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

وأخيرا يقول الحصرى : « ولذلك كله أقول بلا تردد : إن أول الواجبات التى تتحتم علينا لتقوية الإيمان القومى - هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية »(١) .

ثم يحث شباب العرب على التزود بالأمل لتقوية هذا الإيمان القومى ويستدل بإحدى الأساطير اليونانية الوثنية على أهمية هذا الأمل غير أنه لا يخفى ما توحى به إلى نفوس الشباب المستجيبة : من أن صراع الحياة إنما هو صراع بين آلهة كى يحقق هؤلاء الشباب مغامرات تلك الآلهة فى سلوكهم فيقول الحصرى عن باندور :

« كانت جمة الخصال . تكونت من عطايا جميع الإلهات . إن كل آلهة من الإلهات الموجودة إلى ذلك الحين أعطتها شيئاً من خصالها ولهذا السبب سميت هذه الآلهة الجديدة باسم باندور بمعنى عطية الكل .

« عند ما غضب جوبتر على هركول وأراد أن ينتقم منه فكر فى إغرائه بواسطة باندور : سلمها علبة سحرية وطلب إليها أن توصلها إليه دون أن تفتحها وتطلع على ما فيها . وحملت باندور هذه العلبة غير أنها لم تستطع أن تتغلب على حب الاستطلاع فى نفسها ففتحت العلبة فى طريقها وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوىء والشرور وينتشر فى الأرض بسرعة العاصفة مع أزيز هائل . اندهشت باندور من كل ذلك وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة غطاء

---

(١) المصدر السابق ، ١٠٦ ، ولكن الإيمان النافع هو الإيمان بالحق الذى بينه الله تعالى بقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) (الحجرات : ١٥) .

العلبة بسرعة ... غير أنها إلى أن تمكنت من ذلك كان قد خرج من العلبة جميع الشرور ولم يبق فيها إلا شيء واحد .. وكان ذلك الذى بقى فى العلبة مقابل تلك الشرور ... هو الأمل(١) .

« إن حالة العالم العربى الآن أيها السادة تشبه الحالة التى حدثت عند انفتاح علبة باندور .. لقد انتشرت المصائب والشرور فى العالم العربى ولم يبق بين أيدى أبنائه شىء غير (الأمل) .

يجب علينا أن لا ننسى الأمل ... هو أثمن عوامل العمل ، فيجب علينا أن نحرص عليه كل الحرص فلا نترك سبيلا إلى تسلل القنوط إلى القلوب ، فليكن قلب كل واحد منا شبيها بعلبة باندور يحفظ الأمل ولا يكتفى بحفظه فحسب بل يسعى إلى تغذيته وتقويته إلى أن يتحول إلى إيمان لا يتزعزع يدفعنا إلى العمل المتواصل بروح التضحية والإخلاص » .

وللحصرى أسفله بالخط الدقيق تعليقا نصه : « هذا ما كنت قلته قبل نحو ربع قرن من الزمان لجمع من الشبان الناهضين . غير أنى اليوم عندما أعدت قراءة هذه الأسطر ، شعرت بسرور حاد يغمر جوانحى لأنى قد لاحظت بأنه لم يعد يحق لى أن أقول : « لم يبق شىء غير الأمل » لأنه لم ينقطع الأمل من التأثير فى نفوس العاملين المخلصين تأثيره السحرى الباهر فإن جهود هؤلاء قضت على الكثير من المساوىء والشرور ، وأكسبت

---

(١) وهل هذا الأمل غير الذى عناه الله بقوله : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) (الحجر : ٣) .

البلاد العربية الكثير من المزايا والمحاسن ... ولذلك جعلت « الأمل » الآنف الذكر جديراً بأن يتحول إلى الإيمان »(١) .

عقبات وحواجز

فى طريق سير فكرة القومية فى العرب

يتحدث الحصرى عن هذا فيقول ما نصه : « إن فكرة القوميةالعربيه صادفت فى طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة وعقبات خطيرة . وقد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالى فاخترقت أولا « السد المنيع » الذى تكون من امتزاج « فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة الإسلامية » . وهى على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التى تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية والرابطة الإسلامية من ناحية أخرى . وأما العراقيل والعقبات الباقية أمام تيار فكرة القومية العربيه فهى عبارة عن النزعات الإقليمية المتولدة من تعدد الدول العربية .

ولهذا السبب أعتقد أن استبعاد النزعات الإقليميه مع نشر فكرة الوحدة العربية أصبح فى الظروف الحالية من أهم واجبات المفكرين والكتاب والأدباء فى جميع البلاد العربية »(٢) .

الرابطة القومية والرابطة الإسلامية

يرى الحصرى أن الرابطة القومية أقوى وأعم من الرابطة الاسلاميه ولذا فإن روح العروبة ستقتحمها فى آخر الأمر وهذا نص كلامه : « والديانه الإسلامية من جملة هذه الأديان العالمية » ...

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٢٢٩ .

« وهل أوجدت بهذه الصورة رابطة أقوى وأعم من الروابط القومية الأخرى ؟ إن التاريخ يشهد عكس ذلك تماما » .

« لم تستطع أن توحد القوميات حتى فى الأدوار التى وصلت سلطتها وسيطرتها خلالها إلى أقصى الدرجات »(١) .

« ولا شك فى أن روح العروبة الحقه ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر انتصارا حاسما فى كل الميادين »(٢) .

ويستشهد الحصرى على هذا الانتصار بكلمة يقول إنها « صدرت عن لسان زعيم عربى مسلم » وهى : « نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد »(٣).

وقد صرح الحصرى فى كتابه ميسلون (ج ٢ ص ١٩٨) أن فيصل ابن الشريف حسين قال فى سوريا عن العرب : « هم عرب قبل عيسى وموسى ومحمد ، وأن الديانات تأمر فى الأرض باتباع الحق والأخوة ، وعليه فمن يسعى للشقاق بين المسلم والمسيحى والموسوى فما هو بعربى » .

وفى (ص ١٩٤) أنه قال : « العربية قد تأسست على قاعدة المساواة

---

(١) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، ص ٤٦ ، ٤٧ . وهذه مكابرة للواقع التاريخى الذى يشهد أن الإسلام ألف الله به بين قلوب المسلمين حتى انصهروا فى وحدة لم يعرف البشر أحسن ولا أكمل منها فى الوجود ، ذلك أنها جمعت بين الأسود والأبيض والعربى والعجمى وصهرت الفوارق الزائفة بينهم حتى صار الإسلام مقياسهم الوحيد فى التفاضل والأولوية فى المراتب والولاية .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٦ ، وهذا يقين لا يطابق الواقع فى التاريخ . ولا الإيمان والعلم .

(٣) ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٢٥٠ .

فهى تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً ».

وفى (ص ٧٧) أنه قال : « الدين لله والوطن للجميع »(١) .

وهذه أقوال بشر بها عند ما دخل فيصل هذا سورية على رأس جيش الثورة التى وجهها وقادها لورانس العرب ملتقيا بالجنرال اللنبى ، وينسبها الحصرى إلى فيصل يعنى بذلك أن إسلامه لم يمنع روح العروبة فيه أن تحمله على هذا القول الذى يقتحم إسلامه فى سبيلها ويبغى ذلك حجة على دعواه أن الإسلام لا يربط المسلمين برابطة أقوى وأعم من رابطة العروبة للعرب وأن روح العروبة ستنتصر فى آخر الأمر .

الحصرى يدعى : أن الوحدة العربية حقيقة
وأن الوحدة الإسلامية حلم

يقرر الحصرى بعد درسه وتحليله وتفكيره وتقديره أن الوحدة العربية أفضل من الوحدة الإسلامية وأسهل وأنه يمكن تحقيقها فيقول :

---

(١) نقلا عن كتاب العقلية العربية بين الحربين ١٩١٨ م – ١٩٢٩ م ، كتبه على حاج بكرى ، وقدم له نبيه أمين فارس ، ص١١٧ ، وانظر : مقدمة نبيه فارس لكتاب جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص ٢١ ، وقوله : الدين لله والوطن للجميع . تجزئة لملك الله بغير إذنه فإن الكل لله تعالى كما قال سبحانه : (ولله ملك السموات والأرض) (آل عمران : ١٨٩) وقد أنكر الله هذه التجزئة بقوله تعالى: (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين) (الزخرف : ١٥) .

« أعتقد بأن القضايا الأساسية التي يجب درسها وحلها عند التفكير في « للمفاضلة بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية » تتلخص فيما يلي :

هل الوحدة الإسلامية من الآمال المعقولة التي يمكن تحقيقها أم هي من الأحلام الطوبائية التي لا يمكن تحقيقها ؟ وعلى فرض الشق الأول : أتحقيقها أسهل أم أصعب من تحقيق الوحدة العربية ؟ وهل يوجد شيء من المنافاة بين هاتين الوحدتين ؟ وهل من سبيل إلى تحقيق الوحدة العربية ؟ .

« إن كل من يضع هذه الحقائق الراهنة نصب عينيه ويتصور خريطة العالم الإسلامي ويلاحظ موقع العالم العربي فيها يضطر إلى التسليم بأن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الإسلامية وبأن هذه الوحدة الأخيرة لا يمكن أن تتحقق على فرض إمكان تحققها إلا بالوحدة العربية »(١) .

ويكابر الحصري بالرد على القائلين : « بأن فكرة الوحدة العربية اختلقت لمحاربة الوحدة الإسلامية ، وذلك لفصل بعض الأقطار الإسلامية تسهيلا لإدامة السيطرة عليها » فيقول : « إني لا أستطيع أن أتصور رأيا أكثر بعداً عن حقائق التاريخ والسياسة وأشد مخالفة لأحكام العقل والمنطق من هذا الادعاء الغريب » .

ويردف بقوله : « إن فكرة الوحدة العربية من التيارات الطبيعية التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية ، لا من الآراء الاصطناعية التي يستطيع أن

---

(١) ساطع الحصري ، أبحاث مختارة في القومية العربية ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

يبتدعها الأفراد ، أو تستطيع أن تخلقها الدول »(١) ويردف الحصرى بقوله: « هذا ما يجب أن يكون إيمان كل متنور من الناطقين بالضاد(٢) » .

وكذلك يرد الحصرى على القائلين على الدوام : « إن الوحدة العربية وهم وخيال فلنكن واقعيين فلا نسير وراء الخيال » فيقول : « وقدعرفت طائفة من ضعاف الإيمان بالقومية العربية يقولون على الدوام : « إن الوحدة العربية وهم وخيال فلنكن واقعيين فلا نسير وراء الخيال » .

« وأما أنا فأقول لهؤلاء : إن كثيرا من الأمور التى كانت تعتبر من الخيالات فى الماضى أصبحت من الأمور الواقعية فى الحالة الحاضرة ، ولا شك فى أن كثيرا من خيالات اليوم ستصبح بدورها من الحقائق الراهنة فى الغد القريب أو البعيد » .

« بل إن للخيال كثيرا من الأنواع الخلاقة التى تلعب دورا هاما فى حياة الأفراد والأمم »(٣) .

ويحكم الحصرى على معارضى الوحدة العربية بالوحدة الإسلامية أنهم خالفوا أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة بقوله : « وأما من عارض الوحدة العربية باسم الوحدة الإسلامية أو بحجة الوحدة الاسلامية

---

(١) يريد الحصرى أن يقول بمقتضى إيمان كل متنور من الناطقين بالضاد فإن الوحدة العربية تيار طبيعى لامفر منه أما الوحدة الإسلامية فهى من الآراء الاصطناعية التى يستطيع أن يبتدعها الأفراد ...

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٥ . وليس من الخيال البشرى أى نوع له صفة خلاقة وإنما ذلك من اختصاص الخالق سبحانه فهو الخلاق العليم .

فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة »[(١)] :

ويحكم أيضاً على الوحدة الإسلامية ذاتها بقوله : « ليس من الممكن أن تتحقق فى هذا القرن بعد أن تعقدت الحياة الاجتماعية وتعضلت المشاكل السياسية وخرجت العلوم والصناعات من سيطرة التقاليد والمعتقدات» (٢)

بل إن الحصرى لم يتحرج من الإشادة بشاعر نصرانى دعا إلى الكفر فى سبيل الوحدة العربية ولم يتحرج من نقل قوله فى مؤلفاته القومية وهو هذا البيت :

سلام على كفر يوحد بيننا ‏ ‏ ‏ ‏ وأهلا وسهلا بعده بجهنم[(٣)]

* * *

(ب) مثال آخر للفكرة القومية: فى المعهد العالى بجامعة الدول العربية ألقيت المحاضرات فى القومية على نمط مفهوم الحصرى من الأساتذه الآخرين ومنها بين أيدينا كتاب « القومية العربية ، تاريخها وقوامها

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٥ وأى عقل ومنطق هـذا ؟ هل هو منطق المسلم أم منطق الكافر ؟ ، إنه منطق بيت الشعر الذى أشاد به الحصرى : سلام على كفر يوحد بيننا . . .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٤ . ولكن فى الإسلام حل عقد الحياة الاجتماعية وفيه شفاء معضلات السياسة ، وإذا كانت العلوم والصناعات قد خرجت من سيطرة التقاليد والمعتقدات الأخرى فإنها لا زالت فى قبضة الإسلام ولن تخرج من قبضته إلا إذا خرجت عن حكمها كعلوم ثابتة وصناعات متقنة . وقد وقع ذلك فى الوحدة الإسلامية ، أما الوحدة العربية فأين هى ؟ .

(٣) ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٢٥٠ .

ومراميها ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية . وهو مجموعة محاضرات عن القومية العربية ، ألقاها الأستاذ الأمير مصطفى الشهابي على طلبة المعهد عام (١٩٥٨ م)، وهو موجود بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، بمكتبتها تحت رقم ١٥٨/٣٢٠ ، م / س / م .

يهدى الشهابي كتابه هذا بقوله :

« إلى روح أخى عارف الشهابي الذى وقف حياته القصيرة على بث عقيدة القومية العربية وقضى شهيداً فى سبيلها ، وعلمنى أن أحب العروبة وأن أبذل جهدى فى خدمتها » .

وقال عن كتابه هذا :

« يتألف هذا الكتاب الصغير من محاضرات ألقيتها على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بناء على رغبة الأستاذ الجليل شفيق غربال مدير ذلك المعهد .

« وقد حاولت فيها أن أفصح للطلاب . . . عن رأيي فى كنه عقيدتنا القومية ، وتاريخها الحديث ، والعوامل المكونة لها ، والأهداف التى ترمى إليها ، والفلسفة المثالية التى تحدد أغراضها وعلاقتها بالقوميات السائرة وبالبشرية جميعاً »(١) .

وعن عوامل القومية يقول الشهابي : « اختلف علماء الاجتماع والفلاسفة وسائر المفكرين فى حصر عوامل القومية ، أو قل مقومات القومية : أهى البلد أى أرض الوطن ؟ ، أم العرق أو قل السلالة ؟ أم

---

(١) الأمير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها ، ص ٩ .

اللغة ؟ أم العناصر السياسية والاقتصادية ؟ أم التاريخ المشترك ؟ أم الدين ؟ أم الإرادة المشتركة ؟ أم هى كلها ؟ أو بعضها ؟ . واختلفوا خصوصاً فى مدى تأثير كل من هذه العناصر فى تكوين الأمم وانفصال بعضها عن بعض أو تميز بعضها من بعض »[1] .

وعن الدين والقومية يقول : « ولقد كانت الأديان فى التاريخ ، أى قبل نشوء مبدأ القوميات حديثاً أهم صلة روحية بين أبناء البشر ، ولكننا نرى فى أيامنا هذه أن رابطة القومية قد تفوقت على رابطة الدين لدى كثير من الأقوام التى تدين بدين واحد »[2] .

وفى خلاصة بسطه القول عن عوامل القومية يقول :

« والذى يهمنا ذكره فيما يتعلق بقوميتنا العربية أنها من حيث الفكرة المثالية تقوم كغيرها من القوميات على الشعور والإيمان بأن العرب فى جميع أقطارهم أمة واحدة ، وعلى إرادة السعى لتحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه الأمة » .

« أما العوامل الواقعية التى ترتكز عليها قوميتنا العربية ، أى بواعث الفكرة المثالية فأهمها عاملان :

---

(١) المصدر السابق ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ . وتلك الرؤية إن صحت بالنسبة لما يسمى أديان فليست حجة على تفضيل القومية على الإسلام لأن الاسلام هو الدين الحق وماسواه باطل والذى يصح على الباطل لا يقال إنه يصح على الحق ، وما تفوق أى رابط فى أناس على الإسلام إلا أن يفوقوه هم جهلا وظلماً « وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولا » (الأحزاب : ٧٢) .

الأول : اللغة العربية الفصحى ، فهى التى تولد فينا ذلك الشعور القوى المشترك بالتعاطف والتساند بين أبناء الناطقين بالضاد على مختلف شعوبهم وأقطارهم ، وهى التى تولد فينا تلك الإرادة أو النزعة المشتركة التى تحدونا على اعتبار هذه الشعوب أمة عربية واحدة ، واعتبار أقطارها وطناً مشتركا واحداً هو الوطن العربى الأكبر لتلك الأمة .

« وأما العامل الثانى : فهو تاريخنا المشترك .

فالقسم المشرق من تاريخ أمتنا العربية عامل أساسى فى تكوين النزعة القومية فينا ، وذلك بأن من المؤثرات الفعالة فى نفوسنا تذكر ما للماضى أمتنا من أثر حميد فى الثقافة والمدنية ، وما كان لرجالاتها من بطولة وما حفظت الأيام لنا من تراث علمى وأدبى عظيم ، وما خلفت لنا من قيم روحية لا كفاء لها .

« وبعد إن القومية إيثار لا أثرة ، وتضحية لا جر مغنم ، وعقيدة فى سويداء القلب لا شقشقة على عذبة اللسان ، ويا ويح أمة لا تؤمن بقوميتها ، ولا تقبل التضحية فى سبيلها ، ولا تعرف كيف تضمن لنفسها عناصر الحياة من علم وثقافة واقتصاد وقدرة على حكم نفسها بنفسها ، وعلى مدافعة العدوان عن وطنها . فأمة كهذه الأمة لا مكان لها ولا استقلال فى عصر القوميات وفى معترك التسلط الاستعمارى .

« ومن الأجرام الفظيعة أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية ، وأن يتجاوزوها إلى الإيمان الأعمى بعقيدة العالمية أو الأممية فى هذا الزمن »[1] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ، ١٧ ، ١٨ .

وكان الشهابى قد قال عن الإسلام بعد أن جعله مع النصرانية قسما واحداً يجوز عليه مايجوز عليها من أحكام مانصه :

« أما القسم الثانى كالإسلام والنصرانية فهو أيضاً يولد فيمن يدينون به نزعة تساند قوية ، ولكنه يتجاوز النزعة القومية إلى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى »[١] .

وحين يقول الشهابى : « ومن الأجرام الفظيعة . . . » يريد بالأجرام جمع جرم وهو الذنب ، أى من الذنوب الفظيعة عند الشهابى أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية وأن يتجاوزوها إلى الإيمان الأعمى فى نظره بعقيدة العالمية أو الأممية فى هذا الزمن . وهو يقصد بالعالمية والأممية مايقصده الحصرى بقوله مامعناه : أن الديانة الإسلامية وسعت نطاق القومية العربية وصانتها من الانشطار ، ولكن الحركة الإسلامية لم تبق مرتبطة بالقومية العربية ارتباطاً تاماً ، وكون الديانة الإسلامية وسعت نطاق القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الإسلامية لأنها تجاوزتها إلى العالمية[٢] .

ويقصد الشهابى بالعالمية والأممية مايقصده بهما اليهود من الإسلام والمسيحية (النصرانية) بدليل قوله عن الإسلام والنصرانية بعد أن جعلهما قسما واحداً أنهما قسم يتجاوز النزعة القومية إلى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٢) انظر : ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، من ص (٣٥٤) إلى ص (٣٥٩) .

ومن العجب أن الشهابي جعل القسم الأول من الأديان من حيث نظر القومي هو اليهودية والوثنية ، لأنه قسم يختص به قوم أو شعب أو جماعة. فهو في تعليل القوميين أفضل من الدين العالمي ، كالإسلام لأن الإسلام يتجاوز النزعة القومية إلى العالمية . أما مثل اليهودية والوثنية فإنها مختصة بقوم أو بشعب أو بجماعة فهي تزيد ترابطهم وتساند قوميتهم وقد تضاهي عامل اللغة المشتركة والتاريخ المشترك وفيما يلي نص قول الشهابي بالحرف الواحد : « والأديان من حيث مبدأ القومية قسمان : قسم يختص به قوم أو شعب أو جماعة ، وقسم يدين به الناس من مختلف الأقوام والشعوب ، فالقسم الأول كاليهودية وكعبادة بعض الأوثان يولد في أصحابه نزعة خاصة تنضم إلى النزعة القومية أو الجماعية فيزداد بها ترابطهم وتساندهم ويكون الدين عندهم ديناً قومياً ، ويكون في كيانهم عاملا قوياً قد يضاهي عامل اللغة المشتركة والتاريخ المشترك .

« أما القسم الثاني كالإسلام والنصرانية فهو أيضا يولد فيمن يدينون به نزعة تساند قوية ، ولكنه يتجاوز النزعة القومية إلى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى »(١) .

« ومن الأجرام الفظيعة أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية وأن يتجاوزوها إلى الإيمان الأعمى بعقيدة العالمية أو الأممية في هذا الزمن »(٢) .

---

(١) الأمير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها ، ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧ ، ١٨ .

هكذا يرى الشهابى أن التجاوز إلى العقيدة العالمية كالإسلام من الذنوب الفظيعة خصوصاً إن كان المتجاوز أمة ضعيفة كالعرب فى هذا الزمن ، أما إن كان الدين ينضم إلى النزعة القومية كاليهودية وعبادة بعض الأوثان ولا يتجاوزها فالقومية المفضلة تزداد به قوة وسنداً وقد يكون العامل القوى المضاهى لعامل اللغة المشتركة والتاريخ المشترك .

والشهابى منطقى فى قوله هذا مع المبدأ القومى، وصادق بلسان القوميين عن نظرتهم إلى الدين من مبدأهم .

وأعجب من هذا صدقه فى وصف موقف القومية الذى يريده للعربية مع غير العالمية من نظائرها القوميات الأخرى لأنها ليست عالمية كالإسلام فيقول :

« ومن الخطأ الظن بأن القومية ظلم أو مشاركة لغيرها من القوميات . فالقومية لا تكون كذلك إلا عند الأقوام التى لها دول استعمارية غاشمة . أما عند غيرهم من الأقوام ، فالقومية لاتكون إلا عقيدة إنسانية عادلة تحرص على احترام حقوق القوميات السائرة حرصها على جعل تلك القوميات تحترم حقوقها »(١) .

وفى الخاتمة يركز الشهابى على تعريف القومية العربية على الخصوص وتحديد كنهها فيقول : « القومية العربية عقيدة قوامها ، من حيث الفكرة المثالية ، أمران :

الأول : الشعور والإيمان بأن الشعوب العربية فى جميع أقطارها أمة

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩ .

عربية واحدة ، وأن أوطان تلك الشعوب أجزاء من وطن كبير واحد، هو «وطن الأمة العربية .

والثانى : إرادة السعى لتحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لهذه الأمة . والعوامل الواقعية التى تقوم عليها القومية العربية ، أى بواعث ذلك الشعور وذلك الإيمان وتلك الإرادة هى على الأخص :

١ — الاشتراك فى اللغة العربية الفصحى .

٢ — والاشتراك فى التاريخ ، وأخص منه مآثر العرب وآثارهم فى العلم والثقافة والحضارة(١) .

٣ — والاشتراك فى المصالح السياسية والاقتصادية فى الحاضر وفى المستقبل .

« والقومية العربية لاترتكز على عامل العنصرية وإن يكن معظم سكان البلاد العربية يمتون إلى سلالة بشرية واحدة هى السلالة العربية القديمة المسماة بالسلالة السامية .

« ولا ترتكز على الدين وإن يكن معظم هؤلاء السكان مسلمين ، ففى القومية العربية : « العربى : من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربياً ،

---

(١) إذا يخرج الإسلام من مآثر العرب وآثارهم ، وقد أفصح الشهابى عن هذا بعد ثلاثة أسطر بقوله : « ولا ترتكز على الدين وإن يكن معظم هؤلاء السكان مسلمين ... الخ» .

مهما يكن دينه ، ومهما تكن السلالة البشرية التى ينتمى إليها »[١] .

(جـ) فكرة القومية العربية فى محاضرات
الدكتور محمد معروف الدواليبي

يتحدث الدواليبي وهو المتخصص فى أصول الفقه والدراسات الفقهية ، تحت عنوان عقده فى محاضراته التى صدرت له حديثاً باسم « دراسات تاريخية عن أصول العرب وحضاراتهم الإنسانية » لناشرها الدكتور صلاح الدين المنجد ، فيقول الدواليبي :

عناصر القومية

« اجتاز العرب فى السنوات الأخيرة مرحلة تاريخية من مراحل العروبة فتحركت فكرة القومية العربية فى كل مكان بعد غفوة طال أمدها ، وفترة اشتد علينا أثرها ، وبعد حين من الدهر أتى على العرب لم يعودوا فيه شيئاً مذكوراً » .

« ولكن بالرغم من ذلك ، فإن فجر العروبة من جديد قد طلع وأن شمسها عما قريب تؤذن بالإشراق ، فوجب علينا أن نجند لذلك أنفسنا فى كل مكان ، وأن نحشد لها إمكانياتنا على الدوام وأن نطهر نفوسنا من عناصر الضعف ، وأن نزيل منها جراثيم التردد ، وأن نزودها بالإيمان

---

(١) الأمير مصطفى الشهابى القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها ، ص ٣٥٩

الذى لايتزعزع ذلك الإيمان الذى تنهزم أمامه المكائد والشهوات ، وترسخ به أقدام العروبة ليكون أصلها ثابت فى الأرض وفروعها فى السماء »[١] .

والدواليبي فى هذا يسير على نهج الحصرى أيضا كما سار الشهابى ، ويقول الدواليبي :

« لقد دعيت أثناء مرورى بالقاهرة فى شهر كانون الثانى من سنة (١٩٥٠ م) إلى سماع محاضرة لصديقنا الكريم والعالم الجليل المرحوم الأمير مصطفى الشهابى ، وقد ألقاها فى جمعية الوحـــدة العربية فى القاهرة »[٢] .

ويذكر الدواليبي أنه شهد فى هذه المحاضرة عدم الاتفاق على مفهوم واحد « لمعنى القومية العربية لدى المؤمنين بهـا ، فضلا عن الجاحدين الكافرين »[٣] .

قال الدواليبي : « وهذا ما استدعى بعد بضعة عشر يوماً محاضرة أخرى لصديقنا العربى الكبير المرحوم أبى خلدون ساطع الحصرى فى

---

(١) الدكتور محمد معروف الدواليبي ، دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضاراتهم الانسانيـة ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، وحكم الدواليبي بأن العرب قبـل القومية فى حين من الدهر لم يعودوا فيه شيئاً مذكوراً غير مسلم ، فإن العرب كانوا ضمن الخلافة الإسلامية أرفع ذكراً منهم بعد إلغائها بظهور القومية . والتى أصلها ثابت وفرعها فى السماء هى الكلمة الطيبة « لاإله إلا الله » التى ضربها الله مثلا أعلى وليست العروبة ، ولا أقدامها كما يريده الدواليبي .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

نفس النادى ، وتساءل لماذا يختلف المفكرون فى هـــذه البلاد بوجه خاص ، وفى سائر أنحاء العالم العربى بوجه عام ، كل هـذا الاختلاف فى مثل هـذه المسائل الأساسية التى تمس كيان الأمة وتتصل بصميم حياتها ؟ »[١] .

ثم ذكر الدواليبى أنه شهد اختلافاً فى دمشق على أثر محاضرة لبعض الشباب القوميين فى معنى القومية العربية التى آمنوا بها ، لم يكن أقل مما شهده فى مصر ، ولـكن الأهم لدى الدواليبى هو « سؤال فتحى رضوان : من أنا ومن أنت ؟ » ، « وجهه . . . فى محاضرة ألقاها فى نادى نقابة الصحفيين فى القاهرة عام ١٩٥٣ م ونشرها فى جريدة أخبار اليوم فى عددها الصادر فى ١٩٥٣/٣/٢١ م »[٢] .

قال الدواليبى : « وهاكم خلاصة الأجوبة كما فقلها العربى الـكبير أبو خلدون السيد ساطع الحصرى فى كتابه « العروبة أولا »[٣] .

ثم استمر الدواليبى فى روايتها ، وأخيراً يختم ببيان « المفهوم البسيط للقومية » الذى ينبغى أن تستقر عليه مفاهيم المؤمنين بالقومية العربية حسبما يقرره كبارهم فيقول :

« وهى الرابطة بين أبناء هذا القوم « (وهى العروبة فى العرب) » وما العرب إلا الذين وحدت بينهم اللغة العربية » ، « وما وحدة اللغة إلا أثر من وحدة التاريخ »[٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، ويلاحظ : أن اختلاف جميع المؤمنين بالقومية =

ويستعرض الدواليبي خلافات أوربا الدولية وآثارها فى نظريات القومية، وخاصة مابين الفرنسيين وبين الألمان، وينقل عن الحصرى فيقول: «ويقول الأستاذ ساطع الحصرى فى ذلك : وكان الألمان يقولون منذ أوائل القرن التاسع عشر إن أساس القومية ومعيارها الصحيح هو اللغة . (ولما) «كان القول بالنظرية الألمانية يحول دون تثبيت فرنسا لأطماعها، ويعرض ماحققته من توسيع فى أراضيها إلى الانفصال . . . كان من مصلحة الفرنسيين أن يعارضوا نظرية اللغة بنظرية الإرادة ، وقالوا فى ذلك : إن القومية ليست باللغة بل هى بالإرادة والمشيئة»[1] .

ثم أخذ الدواليبي يناقش هذه النظريات وقد بدأ بنظرية الإرادة فقال: «ولو تقبلنا النظرية الفرنسية كما هى لجردنا معظم الأقطار العربية من قوميتها العربية ، لا لسبب إلا لأن حكامها لايريدون ولا يشاءون هذه الوحدة ، وكان من الخطأ الكبير أن نأخذ بما جنح إليه بعض أصدقائنا فى هذا الموضوع وقال فيه : إن الإرادة فوق اللغة» .

ولهذا فالدواليبي يطرح «ومن غير تردد» النظرية الفرنسية » وكما تركها من قبله الحصرى ، ويقصى نظرية الدم ونظرية التقاليد والعادات ، ويبطل نظرية وحدة الأرض ويحكم على نظرية المصالح المشتركة بأنها من

= العربية على أساس العروبة فحسب ليس اختلافهم على وجوب الإيمان بها كمبدأ يعتقد ويلتزم وغاية يضحى فى سبيلها ويدعى إليها ، وإنما اختلافهم على مفهوم العروبة ، ما هو ؟ أكما يقول الألمان : إنها اللغة ؟ أو كما يقول الفرنسيون : إنها الارادة ؟ أو كما يقول غيرهم مماهو مشترك بين الأمة إلا الدين، فيرون أنه يفرق بين العرب فأسقطوه من حسابهم القومى . هذا جوهر اتفاقهم واختلافهم كله .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

أوهى النظريات ، أما وحدة الدين فيقول الدواليبي فيها : « ولعل من أهم النظريات التي يجب أن نقف عندها قليلا هي نظرية وحدة الدين وإقامة القومية عليها ، ولهذه النظرية عندنا معشر العرب أهمية خاصة لما كان للاسلام من أثر عظيم فى تاريخ وحدة العرب ، وفى تاريخ وحدة لغتهم ، وفى تضخيم قاعدة هرم العروبة فى الأرض وفى السكان ، وفى بعثهم بعثاً جديداً خالداً ، مما جعل الإسلام جزءاً من تاريخ العروبة منذ البعث الإسلامى ، وهذا مما لا ينكره أحد غير أن هذا الأثر العظيم للإسلام فى تاريخ العروبة لاينبغى له أن يخرجنا من موضوعنا وهو القومية ورابطتها إلى الدين ورابطته ، ولا ينبغى معه أن يلتبس علينا الأمر مابين دائرة القومية ، ومابين دائرة الدين . . .

« فالعرب كانوا عربا فى الجاهلية ولم يكونوا مسلمين ولا ينكر ذلك أحد من المتنافسين ، وكان العرب فى الجملة حينذاك وثنيين ، ولم يكونوا بذلك غير عرب ، بل ولم تكن الوثنية شرطا لعروبتهم . بل كان فى العرب منذ ذلك العهد الجاهلى : يهود ونصارى ، ولم يخرجوا بذلك عن عروبتهم لدى أحد من الباحثين . .

« وبناء على هذه الوقائع الواضحة لايمكن أن نعتبر الدين بصورة مطلقة عنصراً أساسياً من عناصر القومية العربية »(١) .

---

(١) المصدر السابق ، من ص ١٠٦ ، إلى ص ١١٤ . هكذا يقول الدواليبي وهكذا يرى أن أهمية الإسلام إنما لما له من أثر عظيم فى توسيع نطاق العروبة ، كما يرى الحصرى وتقدم ذكره فى ص ٥٠ من هذا البحث ، ولذا حكم بأن الإسلام جزء من تاريخ العروبة فهى الأصل التى يريد أن تكون أقدامها ثابتة فى الأرض وفرعها فى السماء بدلا من الكلمة الطيبة التى ضربها الله مثلا وهى قول : « لا إله إلا الله » ، انظر ص ٥٤ من هذا البحث .

ثم يحدد الدواليبي بدقة المفهوم اللائق بالقومية العربية وبأسلوب تخصصه فيقول :

« ولعلنا فى أسلوبنا وسلوكنا طريقة التقسيم والسير فى الاستدلال المعروفة عند علماء أصول الفقه ، أو طريقة الاطراح المعروفة عند العلماء اليوم ، أو طريقة حصر الأدلة ثم فحصها واحدة فواحدة ، وحذف غير الصالح منها أولا كما فعلنا ، يسهل علينا دفعة واحدة أن نقول الآن بالجملة : إن الأبحاث العلمية ، والأحداث السياسية ، والوقائع التاريخية ، برهنت كلها على أن اللغة والتاريخ هما العنصران الأساسيان للقومية لدى كل أمة .

« ولكننا لابد لنا من استعراضهما استعراضاً دقيقاً وسريعا كما فعلنا من قبل فى بقية النظريات التى طرحناها .

« إذا كانت الأمة هى التى تجمعها قومية تشد أبناءها بعضهم إلى بعض برابط الوحدة التى لا انفصام لها ، فإن هذا الرابط لن يكون إذن من الروابط القائمة على الإرادة التى قد تفصمها إرادة أخرى كما أشرنا إليه من قبل .

« بل إن هذا الرابط هو شىء آخر فوق الإرادة وأقوى منها ، وهو التاريخ الخلاق للجماعة ، ذلك التاريخ الذى بلغ من قوة فعله فى تكوين الجماعة أن وحد لغتها ليوحد طريقة التعبير عن أفكارها ، وأن وحدة طريقة التعبير فى الأفكار لدى الجماعة هى عنوان على وحدة الأفكار نفسها جملة فيما يتعلق بالنظرة الخاصة بهذه الجماعة إلى الحياة التى تجمعهم فى آلامها وآمالها ، وأعظم بها من رابطة تعتبر الأساس الذى لامراء فيه فى تكوين القومية وأقامتها على وحدة اللغة .

ونحن نرى من ذلك : أن وحدة اللغة ماهى إلا أثر من وحدة التاريخ، وما كل تاريخ إذن يستطيع أن يكون قومية ، ويوحد لغة ، ويوحد بين جماعة ، مالم يبلغ من القوة مايوحد بها أولا فيما بين الجماعة فى طريقة التعبير عن تفكيرها ، وبذلك توجد الوحدة فى اللغة إلى جانب الوحدة فى التاريخ .

« وإن الوحدة السياسية للجماعة قد تنفصل عن الوحدة اللغوية ، ويصبح لدينا فى أمة من الأمم كالعرب اليوم مثلا وحدات سياسية متعددة ضمن وحدة واحدة لغوية ، وذلك أثر لاشك فيه من آثار غفوة القومية لافقدانها ، لأن القومية الواحدة تظل فى ذاتها موجودة مادامت اللغة قائمة فيما بين جماعة ما ، وما دوام اللغة فيما بين الجماعة الواحدة إلا التعبير الصحيح عن وحدة الأفكار لديهم فى الجملة فيما يتعلق بنظرتهم الخاصة إلى الحياة التى تجمعهم كما قلنا فى آلامها وآمالها ، وتلك جامعة لا انفصام لها ، وكذلك ما كان من صنع التاريخ وإرادته فهو فوق صنع الساسة ، وأقوى من إرادتهم[1] ، ولابد للقومية من أن تهب يوما من رقادها ، ويومئذ

---

(١) يصف الدواليبى فى تحديده لمفهوم القومية هنا التاريخ بأنه خلاق وله إرادة فوق الإرادة وبلغ من قوة فعله فى تكوين الجماعة أن وحد لغتها ليوحد طريقة التعبير عن أفكارها ، فكيف يصح هذا والتاريخ لا يقوم بنفسه ؟ ثم إن لكل قوم تاريخ كما أنه لكل قوم إرادة والإرادة قد تفصمها إرادة أخرى كما يقول الدواليبى ، أفليس كذلك التاريخ ؟ قد يفوقه تاريخ آخر ؟ ثم يستدل الدواليبى بدوام اللغة فيما بين الجماعة الواحدة، على أنه التعبير الصحيح عن وحدة الأفكار لديهم فى الجملة فيما يتعلق بنظرتهم الخاصة إلى الحياة التى تجمعهم فى آلامها وآمالها . فهل دوام اللغة العربية وهى أفضل اللغات فيما بين العرب وكلهم عرب ، تعبير صحيح عن وحدة أفكارهم فيما يتعلق بنظرتهم الخاصة إلى الحياة الدنيا التى جمعتهم فى آلامها وآمالها ، وهم مابين مؤمن بالله ورسوله والحياة الآخرة وبين كافر لايرى سوى الدنيا ؟ ، أين وحدة =

تحدثك أخبارها وتقول لك إن ربك أوحى لها(١) .

وفى الخاتمة يقول الدواليبى :

« وبعد فإننا نستطيع الآن ، وعلى ضوء ماشرحنا واستعرضنا ، أن نقول فيما يتعلق بعناصر قوميتنا : إنها اللغة العربية ، وتاريخ قومها . .

« وأن نقول أيضاً على ضوء ذلك : إن العربى هو كل من يتكلم اللغة العربية ، ويكون كيانه حصيلة تاريخ قومها ، دون أن يحد من ذلك قطر ، أو تقف دونه إرادة شخص ، فمن مراكش إلى العراق ، ومن السودان واليمن إلى أقصى شبه الجزيرة فى شمالى الشام أمة عربية واحدة ذات قومية

= الأفكار ولو فى الجملة بين مسلم وكافر ؟ وكيف يصح وصف اللغة بأنها جامعة رابطة لا انفصام لها وقد انفصم المتكلمون باللغة العربية إلى خصمين اختصموا فى ربهم ؟ وهذا شاهد من التاريخ فيما رواه البخارى فى صحيحا كتاب المغازى باب قتل أبى جهل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: أنا اول من يجثوا بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة . وقال : فينا أنزلت هذه الآية : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) . وهم الذين تبارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة و أبوعبيدة ابن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة والوليد بن عتبة (٥/٦٣) .

وهؤلاء الستة ممثلى فريقين متفارقين ولغتهم واحدة وتاريخهم واحد ووطنهم واحد ، وشهد شاهد آخر حى معاصر من أهلها ذلك القتال الواقع بين العرب فى بيروت بؤرة القومية العربية فلم لم تمنعه اللغة والتاريخ والوطن المشتركة ؟

إنما الذى لا انفصام له : العروة الوثقى ، الكفر بالطاغوت والإيمان بالله . وليس اللغة :

والخلاق الفعال لما يريد القوى الذى لا غالب له ولا حال لما ربط ولا رابط لما حل هو الله السميع العليم وليس التاريخ .

(١) التى تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها هى الأرض إذا زلزلت زلزالها ، وليست القومية .

واحدة ، لأنهم يتكلمون لغة واحدة ، ويجمع بينهم تاريخ واحد ، وآلام واحدة وآمال واحدة ، فهم جميعهم عرب شاءوا أم أبوا ، وما تنكر أحد لقوميته إلا جاهلا فعلموه ، أو غافلا فأيقظوه ، أو عاقا فاقد الضمير فأدبوه[1] .

(د) فكرة القومية العربية فى مناهج التعليم بالمدارس الأولية

يمثل ذلك كتاب عنوانه : « القومية العربية » للصف الثالث الثانوى وما فى مستواه تأليف على عبد الله ، صلاح العرب عبد الجواد ، سمير باقى يوسف ، إشراف ومراجعة الدكتور صوفى حسن أبو طالب ، الدكتورة عائشة راتب ، حقوق الطبع محفوظة لوزارة التربية والتعليم المصرية وفى أعلا غلافه صدر بالكتابة التالية : جمهورية مصر العربية ، وزارة التربية والتعليم ، الفلسفة والتربية القومية ، وشعار الجمهورية المصرية ، وفى قائمة المراجع ذكروا : ساطع الحصرى من مراجعهم ، وطبع بمطابع دار الهلال بالقاهرة عام (١٩٧٤ م) وبعدد (٣١٥٠٠) نسخة ، وأودع بدار الكتب برقم ٤٩٢٤/١٩٣٤ .

وفى مقدمة هذا الكتاب يقول المؤلفون :

ن القومية العربية إلى أبنائنا من طلبة الثانوية العامة وما فى مستواها ، لنتيح لهم أن يشيدوا صرح إيمانهم بالأيديولوجية العربية على نسيج من المفاهيم الأساسية اللصيقة بظاهرة القومية ، وأن يبلغوا من وعيهم بهذه المفاهيم إلى مستوى العقيدة المستبصرة إننا نتقدم

---

(١) المصدر السابق من ص ١١٨ ، إلى ص ١٢٠ .

إلى الطالب العربى بأفكار موجزة عن القومية فى النطاق العلمى البحت، وقد حرصنا فى عرض المعلومات على إبراز الجوانب النظرية والأفكار الفلسفية التى استندت إليها الحركات القومية »(١) .

ويعرفون القومية بأنها رابطة تربط الإنسان بكائن هو الأمة يتحد أفراده فى اللغة والتاريخ والإقليم ، ويقولون عن هذه الثلاثة أنها تكون الأمة ، وهذا نص قولهم :

« فوحدة الإقليم هى العلامة المميزة للأمة عن القبيلة ، والبيئة لها أثرها الواضح فى تكوين عادات وسلوك وأخلاق السكان بل الصفات الجسمانية لها أيضاً .

« ووحدة اللغة تمثل روح الأمة وكيانها وتكشف عن طباعها وعاداتها وطرق تفكيرها ، فضلا عن وحدة الثقافة .

« ووحدة التاريخ تؤدى إلى وحدة المشاعر ، ووحدة الآلام والآمال ثم وحدة المصير » .

« هذه العناصر الثلاثة تتضافر فى خلق الكيان الذاتى للجماعة ، مما يظهر أفرادها فى وحدة نفسية متميزة ، ويخلق فيهم الشعور بأنهم أبناء أمة واحدة »(٢) .

---

(١) القومية العربية ، للصف الثالث الثانوى وما فى مستواه ، تأليف : على عبد الله وزملائه ، ص ٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ وانظر من ص ١٤ ، إلى ص ١٧ .

وقد أوضحوا مظاهر هذا الشعور فقالوا :

« للشعور القومى عدة مظاهر يمكن التعرف عليها ، كالتفاخر بفضائل الأمة والتنديد بمساوىء أعدائها ، والتباهى بما أسهمت به الأمة فى تطور حضارة البشرية ، وتخليد أعمال الأبطال والموهوبين من أبنائها وتفضيل ما هو قومى عما عداه ، والتحيز لأبناء الأمة ضد الأجانب عنها والولاء التام لكل القضايا القومية والتضحية فى سبيلها بصرف النظر عن مطابقتها أو مخالفتها للمصالح الفردية أو الطبقية أو المحلية أو الإقليمية »(١) .

وقالوا عن أصول القومية الفكرية :

« استمدت القومية بمفهومها السياسى أصولها الفكرية من كتابات المفكرين ذوى النزعة الإنسانية التى طغت على الفكر الأوربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ...

« أهم هذه التيارات الفكرية تتمثل فى فكرتين أساسيتين هما : القانون الطبيعى ، والعقد الإجتماعى ...

« فكرة القانون الطبيعى من نتاج الفلسفة الإغريقية الرومانية »...

« هذا القانون أوجدته الطبيعة » ....

« هذا القانون يمنح الإنسان مجموعة من الحقوق تثبت له وهو فى حالته الطبيعية » ...

« ومبادىء القانون الطبيعى هى التى تحدد أيضاً العلاقة بين الدول بعضها بالبعض الآخر » ...

---

(١) المصدر السابق : ص ٣١ .

« ومضمون نظرية التعاقد أن انضمام الإنسان إلى جماعة بشرية معينة يقوم على الارادة والاختيار فهو قبل انضمامه كان يعيش متمتعاً بحقوق منحته إياها الطبيعة ، ثم وجد أنه من مصلحته أن يعيش مع غيره من بنى جنسه فيتكون منهم اتحاد له كيانه الذاتى بالنسبة لغيره من الجماعات البشرية الأخرى » .

« أسهمت النظريتان فى نشر الوعى القومى وإبراز المقومات الذاتية للشعوب ، وأصبحتا عماد الحركة القومية خلال القرن التاسع عشر »[١] .

ويقررون أول تطبيق عملى للمبدأ القومى فيقولون :

« تعتبر الثورة الفرنسية أول تطبيق عملى للمبدأ القومى ولذلك يعتبر قيامها بداية ظهور المبدأ القومى إلى حيز الوجود » .

« وقد قامت الثورة عام (١٧٨٩ م) على أساس المبادىء الفكرية والفلسفية ذات الصبغة الإنسانية التى سادت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر والتى أدت إلى ظهور فلسفة المذهب الفردى ولذلك ارتبطت القومية بالديمقراطية بل تلازمت الفكرتان ، فالثورة الفرنسية مزجت بين ثلاثة مبادىء يكمل بعضها البعض الآخر وهى :

١ — الحكم الشعبي . حيث الأمة مصدر السلطات وصاحبة السيادة وليس الحكام .

٢ — تقرير الحرية والمساواة بين الفرنسيين جميعاً .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦ - ٤٢ . وهذه الصفات المنسوبة للطبيعة من إيجاد وعطاء وتكوين إنما هى من خصائص الله وحده . أما الطبيعة فلها طابع وهى مخلوقة محتاجة

٣ — اعتبار الدولة أداة لحماية النشاط الفردى وعدم جواز تدخلها فى المجال الاقتصادى .

وهذه الفلسفة هى ما لخصها شعاراً لثورة الثلاثى : الحرية - المساواة - الإخاء(١) .

وقالوا عن تأثر القومية بالرومانسية :

« دخلت الشعوب فى صراع مرير ضد ملوكها وأمرائها انتهى بقيام عدة ثورات عام (١٨٤٨ م) فى أوربا تهدف إلى تحقيق الوحدة القومية ، وصارت الدولة القومية هى المثل الأعلى ...

« اعتمدت (هذه الثورات) إلى حد كبير على أفكار الحركة الرومانسية التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر ، واشتد ساعدها فى القرن التاسع عشر .

« ظهرت هذه الحركة (الرومانسية) فى صورة حركة أدبية وفكرية وفنية ، ثم اتخذت طابعاً سياسياً ذا اتجاهات متعددة ، منها اتجاه يهاجم الديمقراطية السياسية ويمجد المذاهب الجماعية مما أدى إلى عبادة الدولة والتضحية بالفرد فى سبيلها ويهتم بماضى الأمة وتراثها بقصد إبراز شخصية الأمة وعراقتها .

والرومانسية - وتسمى أيضاً الابتداعية - ساهمت فى نمو الروح القومية ووجهتها وجهة جماعية وجعلت الغلبة فى الطابع القومى لماضى الأمة وأمجادها . فهى كحركة أدبية ركزت اهتمامها على الرجل العادى والأشياء العادية ، فاتجهت إلى دراسة الأدب الشعبي والأساطير والموسيقى الشعبية

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢ ، ٥٣

بما يظهر خصائص كل شعب . وتأثرت المشاعر القومية بهذا الاتجاه، فأخذت طابعاً ثقافياً فى المقام الأول . فأبرز دعاة القومية الطابع الثقافى لكل أمة ، وعمقوا هذا الفهم بتسجيل التاريخ القومى الخاص بها بقصد إظهار شخصيتها وعراقتها .

وكان من أهم آثار هذا الاتجاه أن القوميين اتخذوا من ماضى الأمة مثلا أعلى يحتذونه فى مستقبل حياتهم . وتعتبر القومية الألمانية وحركة القومية الإيطالية تطبيقاً عملياً للرومانسية فى المجال القومى »[1] .

وعن القومية العربية قالوا :

« مبدأ الوحدة العربية التى تنادى به القومية العربية هو تطبيق للأفكار القومية التى سادت أوربا ولكنه يتفق مع تاريخ الحضارة العربية[2] .

تزعم المثقفون – الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الأوربية – الحركة القومية ، فنشروا الأفكار القومية بين الناس .

« وكان أكثر أنصار فكرة الوحدة العربية فى الشام ، حيث توجد أقلية مسيحية نشطة وقوية تشربت الثقافة الأوربية والعربية فى مدارس الإرساليات »[3] .

أما عن الإسلام وصلة القومية العربية ، فيرى المؤلفون : أن الإسلام كتاريخ وحضارة هو عربى ولأنه مازال يمثل الجانب الثقافى والروحى

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٦ ، ٤٧ .

للأمة العربية فهو ركن أساسي في القومية العربية وليس شرطاً للانتماء إليها بإجماع القوميين ، لأن من العرب المسيحي (النصراني) والوثني واليهودي ويقولون ما خلاصته :

إن الإسلام دين الأكثرية من العرب لكن منهم المسيحيين ومنهم اليهود ومنهم الوثنيين ، والجدل حتى الآن يثور حول الإسلام والقومية ، فبعضهم يقول : إن الإسلام من تاريخ العرب ، والتاريخ العربي مشترك بين الجميع فهو من مقومات القومية العربية ، وهو كتاريخ ركن أساسي ، وهو الذي خلق الأمة العربية[١] وهو دين ودولة لكن المقصود بالإسلام هو الجانب الحضاري التاريخي منه وليس الجانب الديني لأن أمور الحياة الدنيا أي الدولة وهي حركة سياسية من خصوص جميع العرب ، أما الجانب الديني فيقصد به العبادات وهي تخص المسلمين وحدهم[٢] ولذا فإن اعتناق الإسلام ليس شرطاً في الانتماء إلى القومية العربية ، وإن قيل إنه ركن أساسي فيها فذلك على اعتبار أنه جزء من تاريخ العرب .

وبعضهم الآخر يذهب إلى استبعاد الإسلام من القومية العربية ، إما لأنه يصفه بأنه أفيون الشعوب ، وإما لأنه يرى ضرورة فصل الاسلام عن القومية كما فعلت أوربا[٣] .

---

(١) هكذا يقولون : بينما الخالق هو الله وحده .

(٢) ليس للإسلام الطوعي مجال سوى أمور الحياة الدنيا فإذا انتهت لا ينفع نفساً إيمانها ، وإنما في الآخرة جزاء ما عمل في الدنيا ، والإسلام شامل لجميع أمور الحياة الدنيا ، وأمر من الله لا يسع أي حكومة وشعب أو شخص أن يخرج عنه على الاطلاق . لا يسعهم يوم القيامة خروجهم عنه في الدنيا .

(٣) المصدر السابق ، انظر : من ص١٢٨ إلى ص ١٣٩ .

وأخيراً يقررون : « ضرورة الوحدة العربية » لأنها كما يزعمون : « حقيقة إجتماعية » ، « تستجيب لدواعى القومية من ناحية ، وتتمشى مع ظروف العصر من ناحية ثانية » ، « ضرورة إقتصادية تفرض نفسها على على الدول العربية جميعها » ، « ضرورة سياسية » ، « ضرورة ثقافية وعلمية » هى الإطار المناسب لتحقيق التقدم وملاحقة الركب العلمى وإتاحة الفرصة أمام العقول العربية لصقل الحضارة العربية وتطويرها » ، « هى السبيل الوحيد أمام العرب للحاق بركب الحضارة والتقدم وتبوء المكانة الدولية اللائقة بتاريخهم المجيد »(١) .

(هـ) فكرة القومية العربية فيما ينشر للعامة من ثقافة أدبية

فى مجلة العربى الشهيرة كتب صاحبها الدكتور أحمد زكى فى أول عدد منها يقول :

« والمجلة العربى » لا تصل معنى العروبة بدين ، فكل الناس عباد الله وكل سالك إليه سبيلا ، والسبل اختلفت والغاية واحدة ، والحى يسعى لتأمين الحياة ، وبالدين هو يسعى لتأمين ما بعد الحياة ، والتجربة الإنسانية عبر القرون الدامية دلت على أن الدين - وهو سبيل الناس لتأمين ما بعد الحياة - ذهب بأمن الحياة ذاتها ، فلم يبق عاقل مفكر ، يتمسك بحرية الفكر التى هى هبة من هبات الله إلا يقول : دعوا الناس تسلك إلى الله أى طريق تشاء ، وحتى غير السالك عليه وحده تبعة أنه لا يسلك ، لا على الناس »(٢) .

---

(١) المصدر السابق انظر : من ص ١٩٦ إلى ص ٢٠٦ والمجيد لا يسمى به إلا الله أو صفته .

(٢) نقلا عن أبى الحسن الندوى من كتابه : العرب .. والإسلام ص ٦ .

ويقول عبد الله التل بعد أن أورد هذا النص عن افتتاحية أول عدد من مجلة العربي لديسمبر سنة ١٩٥٨ م :

«وحين وجهت للدكتور بعض الملاحظات عن هذا الكلام العجيب يصدر عن أستاذ جليل وعالم تحرير ، رد فى افتتاحية العدد الثانى بما يزيد الطين بلة فقال :

« وأما سلوك أهل الأديان جميعاً لنصرة أديانهم عبر القرون فقد كان وبالا على الإنسانية ذهب بسلام الحياة ذاتها . . . »(١)

و واضح من كلام أحمد زكى هذا عدم الإيمان بالحياة الأخرى بعد الموت . وكلامه كلام قومى عربى يتحدث عن القومية العربية و يصدر لها مجلته التى يسميها « العربى » وقد جاء فيها فى عدد يناير ١٩٥٩م هذا القول :

« والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب إينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين » .

وتنشر مجلة العربى للدكتور محمد أحمد خلف الله قوله تحت عنوان « القومية العربية كما ينبغى أن نفهمها » :

« إن الساسة اليوم ينادون بالقومية العربية ، وتحقيق الوحدة العربية أقرب منالا من تحقيق الوحدة الإسلامية ، أن مصلحتنا اليوم فى تحقيق هذا الهدف القريب ، ثم إن الفكرة العربية أكثر انتشاراً وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلامية إنها تشمل سكان العالم العربى جميعاً ، أما الإسلام فلا يشمل هؤلاء السكان ، لقد تعرب سكان هذه البلدان أجمعين ولم يسلموا

---

(١) عبد الله التل ، جذور البلاء ، قسم ١ ، ص ٢٦٢ .

أجمعين أنه لا يزال منهم النصارى ولا يزال منهم اليهود »[١] .

وسائر ما تنشره مجلة « العربى » على الناس معروف لايخرج عن إطار الفكرة القومية المعاصرة ، ويقول الكاتب المشهور محمود تيمور فى مجلة العالم العربى فى عدد (١٧١) تحت عنوان : النثر والقومية العربية :

« لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ... إن القومية العربية لهى نبوة هذا العصر فى مجتمعنا العربى . ورسالة هذه النبوة هى تجميع القوة وتكتيل الجبهة والانطلاقة بالطاقة البشرية فى كيان المجتمع العربى نحو كسب الحياة وإن كتاب العرب فى أعناقهم أمانة هى أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة يزكونها بأقلامهم ، وينفخون فيها من أرواحهم ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار »[٢] .

ويقول على ناصر الدين فى مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه : « قضية العرب » :

« القضية العربية لن تكون أبدا عند العربى المؤمن الحر العاقل الشريف الصالح الخير الأبى المترفع إلا قضية إيمان ، إيمان بالوطن للوطن ، كقضية الإيمان بالله لله ليس غير » .

ويتكلم عن مهمة قضية العرب وأهدافها فيقول :

« وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم وكل عصبية إلا العصبية القومية ، وتفصل الدين عن السياسة ، وتحرم على رجال الدين الاشتغال

---

(١) نقلا عن أبى الحسن الندوى من كتابه : العرب .. والإسلام ص ٣ .

(٢) نقلا عن أبى الحسن الندوى من كتابه : « العرب ... والاسلام » ص ٣ فى الهامش .

بها ، وتعلم العرب إنما كان أن يتعصب بعنف لأمرين : قوميته والحق » .

وفى شرحه لمعنى العروبة يقول :

« العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية فى هذه الحياة الدنيا مع دعوتها إلى أسمى ما فى هذه الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات »(١) .

وعن محمد المبارك فى كتابه « الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات » : أن عمر الفاخورى قديماً قال فى كتاب له سماه : « كيف ينهض العرب ؟ » ما نصه :

« لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربى ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبى الكريم والمسيحيون والكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم والبروتستانت على تعاليم لوثر الإصلاحية ، وثوريو فرانسا فى عهد الرعب على مبادىء روسو الديمقراطية ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك » (٢) .

وفى كتاب ينشر للمواطنين بعنوان : « القومية العربية » تأليف الدكتور أبو الفتوح رضوان ، وذكر مؤلفات للحصرى من مراجعه ، يقول أبو الفتوح فى مقدمته :

« إذا عددنا القوى التى يزخر بها العالم فى عصرنا هذا وتؤثر فيه

---

(١) المصدر السابق ص ٢ ، ٣ .

(٢) راجعت الأستاذ محمد المبارك فأقر ثبوت النص فى كتابة ونسبته إلى صاحبه .

وتوجه سياسته وتشكل أحداث تاريخه، فإن القومية العربية تأتى فى مقدمة هذه القوى .

« وليست القومية العربية قوة أى قوة ، ولكنها قوة هائلة أصبح يعمل لها ألف حساب . . .

« فقد ركع الاستعمار أمام قوة القومية العربية . ركع أكثر من مرة . . .

« ومع ذلك فإذا كانت القومية العربية واضحة من حيث هى قوة . فإنها ليست بهذا الوضوح من حيث هى فكرة . وإذا كانت جياشة من حيث هى عاطفة ، فإنها أقل سيطرة من حيث هى معنى . وإذا كان مسلماً بها من حيث هى ماض ، فأنها موضع نقاش من حيث هى حاضر . وإذا كانت مرئية من حيث هى وجود عام فإنها خافية من حيث هى تفاصيل وإذا كانت حقيقة ثابتة عند أصحاب الوعى . فإنها مرض فى قلوب أصحاب المصالح » .

« ولقد تقدمت ثورة ٢٣/يوليو/ سنة ١٩٥٢ م الصف العربى وقادته فى معركة نضال القومية العربية فكريا ضد المفاهيم الخاطئة ، ومادياً ضد الاستعمار وعملائه . وكسبت هذه الثورة تلك المعارك للقومية العربية ، حتى علت كلمتها ، وتقررت حقيقتها ، وأصبحت من أهم معالم العصر التى يتأثر بها ويعيش المواطن العربى .

« ومن أجل هذا كله حق على هذا المواطن أن يدرس القومية العربية ليعرف أسسها وحقيقتها والقوى المؤثرة فيها وما تتعرض له من جانب الأصدقاء والأعداء على السواء حتى تصح أفكاره عنها وتثبت عواطفه نحوها .

« وهذا كتاب وضعناه فى القومية العربية جلوناها فيه على حقيقتها، مرتبطة بأصولها، قائمة على مقوماتها الفكرية والمادية، مقترنة بفلسفتها، مشيرة إلى نتائجها الحتمية »[1] ويتحدث أبو الفتوح عن مفهوم القومية العربية فيقول: إن مفهومها لم يكن واحداً وقد ضعف أو اختلط بغيره ومع ذلك، فإن العرب دائماً يعودون إلى الإحساس بها ... وأمام المحن والكوارث التى كانت تثبت لهم دائماً أن موئلهم الوحيد هو القومية العربية للتخلص من كل محنة وكارثة ».

ويجعل أبو الفتوح لتطور مفهوم القومية العربية أربع مراحل:

١ — « مرحلة العروبة »: « من ظهور الإسلام إلى سيطرة الاستعمار العثمانى (عام ١٥١٧ م) »

فلما ظهر الإسلام ووحد النبى صلى الله عليه وسلم الجزيرة العربية، ووحد العرب تحت راية العروبة .. بدأ العرب يشعرون بكيانهم كأمة واحدة ...

« ولقد وجههم الإسلام نحو هذه الغاية الواضحة وفرض عليهم الشعور بوحدة العروبة والسير تحت رايتها ».

ويستدل على هذا بآيات من القرآن الكريم تدل له هى قول الله تعالى: (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) الآية، ١٢٠ من سورة التوبة، وقوله تعالى: (سيقول لك المخلفون من الأعراب) الآية: ١١ من سورة الفتح، وقوله تعالى: (قل للمخلفين

---

(١) أبو الفتوح رضوان، القومية العربية، تقديم ص ج، د، ه.

من الأعراب) الآية : ١٦ من سورة الفتح ، وقوله تعالى : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) الآية : ٢ من سورة يوسف ، وقوله تعالى : (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) الآية : ٣٧ من سورة الرعد ، وقوله تعالى : (إنا جعلناه قرآناً عربياً) الآية : ٣ من سورة الزخرف .

ويقول أبو الفتوح : « فعندما خرج العرب للفتح خرجوا كأمة عربية تحارب أقواماً من الفرس والروم ، كانوا يشعرون شعوراً قوياً برابطة الدم العربي الذى كان يربطهم بأهل البلاد المفتوحة التى كان يحتلها الروم والفرس »(١) .

ثم يقول :

« المرحلة الثانية : الجامعة الإسلامية :

« تغير مفهوم القومية العربية تحت الحكم العثمانى فتنازل العرب عن عروبتهم حين استكانوا إلى أن يكونوا جزءاً من دولة إسلامية كبيرة هى الدولة العثمانية »(٢) .

« وبذلك تحول مفهوم قوميتهم العربية عندهم إلى شىء آخر كلية هو

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣٦ والملاحظ أن الدكتور أبا الفتوح رضوان لم يذكر غزوات بدر واحد والأحزاب والفتح وحنين وهى من أكبر المعارك العربية على حد تسميته لهذه المرحلة لان هذه المعارك تنقض تأسيسه وتبطل دعواه :

إن الإسلام وجههم نحو القومية العربية وفرض الشعور بوحدة العروبة عليهم والسير تحت رايتها .

ولو كان الأمر كما يدعى لما وقعت هذه المعارك بينهم وهم عرب لم يخرج واحد منهم عن العروبة :

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٠ ، ٣٤٢ .

الجامعة الإسلامية . وكلها أوهام تردى فيها العرب بعامل الغفلة والجهل»[١].

« وهكذا غلبت الفكرة الإسلامية على فكرة العروبة حتى عند العرب أنفسهم تحت ضغط التهديد الاستعمارى ...

« وأسهم العرب مع الأتراك فى إسقاط عبد الحميد فى سنة ١٩٠٩ م وكان سقوطه آخر مراحل الخلط بين القومية العربية وبين فكرة الجامعة الإسلامية »[٢].

ثم يقول :

« المرحلة الثالثة : العودة إلى المفهوم العربى للقومية العربية :

ويشيد أبو الفتوح بالذين أحيوا هذا المفهوم فى سوريا فيقول :

« وكانت سوريا هى مهد الحركة القومية العربية بمفهومها العربى ، وقد ظهر فيها هذا الاتجاه من سنة ١٨٥٧ م حين تأسست الجمعية العلمية السورية ... وقد اتخذت ... شكلا أدبياً ...

« وانتقلت الحركة من الأدب إلى العمل السياسى عند ما قامت جمعية سرية فى بيروت[٣] ...

« وظهرت الجمعيات العربية التى نسجت سياستها من خيوط العروبة النقية » .

ثم أخذ أبو الفتوح يتحدث عنها : اللامركزية ، والقحطانية أو العهد ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٤٤

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٩ ، ٣٥٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٥١ ، ٣٥٣ .

والعربية الفتاة ، ويقول : إنه بواسطة هذه الجمعيات « انجابت الغشاوة عن أعين العرب »(١) .

وسيأتى ذكر هذه الجمعيات فى دورى اليهود والنصارى فى مكانها إن شاء الله تعالى . وكذلك ما يشيد به أبو الفتوح بقوله :

« واستجابة لهذا المفهوم العربى للقومية العربية تحالف العرب مع الدول الاستعمارية ضد الدولة العثمانية فى إبان الحرب العالمية الأولى ، وهذا يتضح من محادثات الشريف حسين مع مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٥ م - ١٩١٦ م) . كما يتضح من اتصال الجمعيات العربية الوطنية فى بلاد الشام بجورج بيكر قنصل فرنسا فى بيروت ، ومن اتصال حزب اللامركزية بكتشنر المعتمد البريطانى بالقاهرة »(٢) .

والمرحلة الرابعة عند أبى الفتوح ، هى : بعد ثورة مصر فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ م ومن نصوص كلامه قوله :

« فالقومية العربية هنا فى فلسفة الثورة غاية فى حد ذاتها ...

« أتى جمال عبد الناصر فمذهب القومية العربية ووضع أصولها الفكرية وعمق مفهومها وجعلها نظاماً متكاملا من الفكر وأحالها بكل ماصنع إلى عقائدية واضحة »(٣) .

ويتنبأ أبو الفتوح لمستقبل القومية العربية فيقول : إنها « مضمونة

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٧ ، ٣٧٣ .

المستقبل » ، « ضرورية للعرب لأن لها وظيفة أساسية فى حياتهم » ، « ضرورة من ضرورات المعيشة فى العالم المعاصر » « فالمستقبل للقومية العربية لأنها حتمية تاريخية ، كما قلنا ولابد للعملية التاريخية من أن تتم »(١) .

خلاصة التفكير القومى

وخلاصة التفكير القومى « المفلسف » هو : أن المرحلة القومية حتمية، لأنها آخر مراحل التطور الحتمى ولها دورها فى نشوء الدول وزوالها ، وهى أعلى درجات التفكير الإنسانى .

« إن انتقال الإنسان من شكل إجتماعى إلى آخر عبر التاريخ ، منذ التجمع العائلى حتى المجتمعات القومية ، مارا بالعشيرة والقبيلة ، والمجتمع الدينى ، والامبراطوريات السياسية والدينية ... لم يكن انتقالا اعتباطياً ، ولا انتقالا أعمى بلا هدف ... وقد ترك الإنسان هذه المجتمعات الواحدة تلو الأخرى حتى وصل إلى المجتمع القومى ... »(٢) .

« وكان هذا الانتقال عبر التاريخ يسير جنباً إلى جنب مع تبلور الوعى القومى لدى الأمم بحيث جاء المجتمع القومى فى النهاية عصارة تجربة الإنسان فى البحث عن وضع أفضل لحياته ... »(٣) .

---

(١) المصدر السابق ، صفحات : ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٢) الحكم دروزة وحامد الجبورى ، « مع القومية العربية ، ص ٣١ ، نقلا عن الشيخ محمد على ضناوى ، « الطريق إلى حكم إسلامى » ط ١ ، ص ١٦٨ .

(٣) نفس المرجع السابق .

فأنت تلمح من هذا التفكير مشابهته للتفكير الشيوعى : فالشيوعيون يقولون : إن الصراع الطبقى عبر التاريخ كان مراحل حتمية ، وآخر هذه المراحل هى الشيوعية كما كانت أول المراحل بشكل مصغر ، وسوف تزول مراحل الصراع الطبقى جميعاً وتحل الشيوعية حتماً بشكل عام وتزول الدولة من الوجود . وترى أخى القارىء سيطرة نظرية الوثنية فى ما يسمى النشوء والارتقاء ، مع انعكاس الميزان وعدم إقامة الميزان فى التفكيرين .

الفصل الثانى

دور اليهود فى نشوء فكرة القومية ... وأهدافهم

يوجب الفصل الرابع من الرسالة الرابعة من التلمود الذى يسمى سنهدرين على اليهود إقامة مجمع قومى عظيم يسمى سنهدرين.

والفصل العاشر من نفس الرسالة يسمى العقاب، ويتضمن وسائل العقاب والردع ضد اليهود الخارجين على السنهدرين.

ويقول إسرائيل إبرهامز:

« بقى اليهودى بسبب التلمود بينما بقى التلمود فى اليهودى »(١)

ويقول إبرهامز أيضاً:

« لقد أجمع يهود العالم على أن قوميتنا اليهودية المشتركة لن يكتسحها قصيرو النظر المتعصبون من دعاة الوطنية المحلية. فجميعنا إذن صهيونيون بحكم أن الصهيونية هى التى تقوى فينا روح التضامن وتشعرنا بقوميتنا اليهودية المشتركة »(٢).

ويقول برنارد لويس وهو يهودى ورئيس قسم التاريخ فى كلية

---

(١) نقلا عن ظفر خان، من كتابه: التلمود ص ٢٩، ٣٤.

(٢) نقلا عن عبد الله التل من كتابه: جذور البلاء، ص ١٤٣.

الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن ومتخصص فى مفاهيم الأمم والقوميات(١) .

« وهناك قومية من نوع آخر ... وهى القومية اليهودية وهى إحدى العناصر التى أسهمت فى نمو الحركة السياسية الصهيونية ، ووعى اليهود لرابطتهم الذاتية مثل وعى العرب لذاتهم قديم قدم وجودهم ، وهذا الوعى مثل وعى العرب أيضاً مر بمراحل القبلية العرقية والثقافية ، وتبلور بشكله المتميز الدائم على صعيده الدينى(٢) .

« ولقد بدأت حركة القومية اليهودية فى وسط وشرق أوربا حيث كانت تعيش الأقلية اليهودية المحافظة منعزلة لم تتمثلها المجتمعات الأوربية فلم تذب هذه الأقلية فيها .

« وكان لهذه الأقلية جميع متطلبات الدولة القومية عدا شيئين :

١ — اللغة القومية الواحدة .

٢ — الأرض القومية الواحدة .

---

(١) انظر النص على يهوديته فى كتاب الأستاذ ماجد كيلانى ، الخطر الصهيونى على العالم الإسلامى ، ص ٧١ . وفى بحث من إعداد الشيخ أحمد صالح محايرى فى المجلد الخامس من بحوث مؤتمر توجيه الدعوة وإعداد الدعاة العالمى المنعقد فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٢٤ - ١٣٩٧/٢/٢٩ هـ ، ص ١٤) وسألت الدكتور ناصر بن سعد الرشيد : هل برناردو لويس يهودى ؟ فقال : نعم ، على ما هو مشهور عنه .

(٢) برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط تعريب الدكتور نبيل صبحى ص ١٣٧

فكانت حركتا البعث العبرى والصهيونية تهدفان إلى تأمين هذين الشيئين المفقودين .

« واليهود شعب قادر على استنباط الأشياء الجديدة ، ولقد شهد لهم بذلك أصدقاؤهم وأعداؤهم على السواء فهم الذين اخترعوا الرأسمالية والشيوعية ، ولقد قال البعض إنهم هم جاءوا بالمسيحية والإسلام(١) .

« ثم تركزت الأحلام الصهيونية على شيئين بصورة خاصة : على اللغة العبرية . . وعلى فلسطين أى على لغة لم يكونوا يتكلمون بها وعلى أرض لم يكونوا يعيشون فيها ، ومع ذلك كان الشيئان بالنسبة لهم لغة مقدسة وأرضا مقدسة ، فلقد قدست اللغة العبرية بالتوراة وقدست الأرض بظهور اليهودية فيها .

« وليس مهما بالنسبة لإسرائيل وجود القومية العلمانية ، أى ليس مهما أن يكون رعاياها علمانيين أو حتى ملحدين .

ومن يدرى فقد تتحول إسرائيل - إذا قدر لها أن تعيش - إلى مجتمع علمانى طبيعى(٢) »

من هذه النقولات عن يهود يتضح أن القومية من هدى اليهود اتخذوها كوسيلة للنهوض من واقعهم الأسوأ فى الانحطاط والتمزق والكراهية ، وليس عندهم ما هو أحسن من القومية .

فكانت الصهيونيه مفيدة لهم بل منقذا لهم مما هم فيه لأنها دعوة لتجمعهم حول جبل صهيون بفلسطين التى يرون جميعاً أنها أرض الميعاد ،

(١ ، ٢) برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، تعريب الدكتور نبيل صبحى ، ص ١٣٧ - ١٤١ .

فإذا احتلوها فهو بداية قيام دولتهم وتسلطهم على العالم حتى غيرهم من غير المسلمين يساعدهم على هجرتهم إلى فلسطين وعلى إقامة دولة لهم فيها ، ودخل فى الصهيونية من ليس من اليهود لمصلحه اليهود .

وليس خافيا على شياطين اليهود إمكان استغلال فكرة القومية لتقويض دول غيرهم وتجزئتها ، وإن فكرة القومية ما صلحت لهم إلا وسيلة للتخلص من تمزقهم فى الأرض وما يتبعه من ذل .

أما دولة قويه عزيزة جمعت أقواما عديدة فى وحدة متينه على أساس الدين وحده فإن فكرة القومية تشتت وحدتها وتمزق قوتها بذهاب كل قوم بقوميتهم وبهذه الفرقة يسهل على اليهود احتواؤهم وضرب بعضهم ببعض ، أى جعلهم شيعا يذيق بعضهم بأس بعض ، ولذلك كان لليهود دور كبير فى تفتيت وحدة الدولة العثمانية بنشر الأفكار القومية بدلا من الفكرة الإسلاميه الواحدة النابعة من كلمة (لا إله إلا الله) ، وتعديد الولاءات للقوميات بدلا من توحيدها ولاءاً واحداً للإسلام وللقائمين عليه .

واليهود ينظرون إلى الدولة العثمانية منذ تأسيسها إلى زمن سقوطها أنها حامية الإسلام وناشرته ، فها هو ذا برنارد لويس اليهودى الغربى يتحدث عن تاريخها فيقول :

« كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها فى سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد اعتداء خارجى، وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون تقريباً فى حرب مستمرة ضد الغرب

المسيحى ، أولا لمحاولة فرض حكم إسلامى على جزء كبير من أوربا ، وهى محاولة رافقها النجاح .

وثانياً : لشن حرب دفاعيه تأخيرية مديدة ، تقف فى وجه الهجوم المعاكس الذى قام به الغرب .

وكانت الامبراطورية العثمانية فى نظر الرجل العثمانى التركى بمثابة الإسلام ذاته . وفى التواريخ العثمانيه ، وعندما يتكلم المؤرخون عن ولايات الامبراطورية يشيرون إليها بقولهم إنها دار إسلام ، وعندما يذكرون جيوشها يقولون عنها إنها جيوش الإسلام ، ورئيسها الدينى « شيخ الإسلام » ، وكانت الشعوب التى تتألف منها الامبراطوريه العثمانيه تعتبر ذاتها أولا وآخرا شعوباً إسلاميه ، وكانت لفظة عثمانيه تعنى اسم السلالة المالكة . ولم تصطبغ لفظه عثمانيه بصبغة قوميه ذات مدلول قومى إلا فى القرن التاسع عشر ، وكذلك تحت تأثير الفكرة الليبراليه الأوربية »[1] .

نعم « لم تصطبغ لفظة عثمانية بصبغه قومية ذات مدلول قومى إلا فى القرن التاسع عشر وذلك تحت تأثير الفكرة الليبراليه الأوربية » ، هذه الفكرة الليبرالية الأوربية هى التى غزا بها اليهود وأعوانهم عقول العثمانيين فأخرجوهم عن الشريعة الربانية وتطبيقها إلى القوانين (العلمانية) الإلحادية تدريجياً حتى تهيأ ملء أدمغتهم بلوثة : (الفكرة الليبرالية

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية ص ٢٨ .

الأوربية) عند ذلك نبتت فيها فكرة القوميات واستيقظت فيهم روح الفرقة والفشل لأنهم فى غمرة وغيبوبة عن وحدتهم القوية بالإسلام وعن الإسلام ذاته وهو مبرر وجودهم وعظمتهم وعزهم وفضلهم على العالمين .

وعن طريق اليهود تم دخول الفكرة الليبرالية الأوربية والعلمانية الغربية والإلحادية فى الامبراطورية العثمانية (الخلافة الإسلامية) ، ذلك أنه ديدن اليهود منذ انبثق نور الإسلام .

كما قال الله تعالى : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)(١) .

ولأن الإسلام صلاح واليهود إنما يسعون فى الأرض فساداً

كما قال الله تعالى : (ويسعون فى الأرض فساداً)(٢) .

ولقد حاولوا فتنة الرسول صلى الله عليه وسلم عن بعض ما أنزل الله إليه فحذره الله تعالى بقوله : (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)(٣) .

قال ابن كثير فى تفسيره : « أى واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور ، فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة . .

---

(١) المائدة ٨٢ .
(٢) المائدة ٦٤ .
(٣) المائدة ٤٩ .

« وقال محمد بن إسحاق (وساق سنده) عن ابن عباس قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فأتوه فقالوا : يامحمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل فيهم (وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) إلى قوله (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم »[١].

ولأن اليهود بطبيعتهم لايطيب لهم العمل بالفتنة إلا عن طريق الخفاء والدس، فإنهم ركزوا على الخطط السرية والعمل من وراء المحافل الماسونية والقوميات التى دبر اليهود مسارها إلى وجهة يريدونها حينما ثارت على دينها وملوكها ، كالأمة الفرنسية لما ثارت على قيصرها وحامى نصرانيتها بتوجيه وتخطيط من اليهود. يقول الدكتور محمد محمد حسين : « أكثر الناس يجهلون أن شعار الثورة الفرنسية اليهودية : « الحرية — والإخاء — والمساواة » ، هو من وضع مجمع بوردو الماسونى »[٢].

ويتأكد ذلك من قول وليام غاى كار :

« وإذا كان يخامر البعض شك فى حقيقة الدور الذى لعبته الماسونية فى الثورة الفرنسية ، فسنثبت هنا مناقشة جرت حول هذا الموضوع فى

---

(١) اسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ٢/٦٧ .

(٢) محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ، ٨٣ .

مجلس النواب الفرنسى عام ١٩٠٤ م بعد بضعة أسئلة استجوابية تقدم بها المركيز روزانب حول ما إذا كانت الماسونية الحرة هى صانعة الثورة الفرنسية قال : « إننا متفقون إذن بصورة كاملة على هذه النقطة بالتحديد ، وهى أن الماسونية كانت الصانع الوحيد للثورة الفرنسية ، وهذه التصفيقات التى أسمعها الآن فى المجلس تبرهن على أن بعض الموجودين يعلمون بذلك مثلى تماماً » .

« وعندئذ نهض النائب جومل وهو أحد الأعضاء المعروفين لمحفل الشرق الأكبر ، وقال : نحن لا نعلم ذلك فحسب ، بل إننا نعلنه على الملأ »[١]

ويقول وليام غاى كار أيضاً :

« وعام ١٩٢٣ م أقيمت حفلة عشاء كبرى . . . وفى هذه الحفلة اقترح رئيس محفل الشرق الأكبر فى فرنسا على الحاضرين أن يشربوا نخب الجمهورية الفرنسية وليدة الماسونية الحرة الفرنسية ونخب الجمهورية العالمية التى ستولد من الماسونية العالمية »[٢] .

ويقول كار أيضاً :

« عام ١٩٢٣ م أيضاً طالبت المحافل بتطبيق فكرة العلمنة[٣] وقد أدلى

---

(١) وليام غاى كار ، أحجار على رقعة الشطرنج ١١٢

(٢) وليام غاى كار ، أحجار على رقعة الشطرنج ١١٢ .

(٣) وفكرة العلمنة هى الإلحاد وهى الفكرة الرئيسية التى يعتمد عليها النورانيون فى القومية .

هيريو ، ببيان وزارى تأييداً لهذه الفكرة فى السابع عشر من حزيران ١٩٢٤ م »[1] .

هذه نقول تثبت دور اليهود فى إفساد فرنسا وتحويلها من قيصرية دينية على مايشعر به أهل أوربا إلى جمهورية قومية علمانية . ثم الركوب على ظهر شعبها واستغلاله لتحقيق أهدافهم .

وفيما يلى بيان كيفية استغلال اليهود للفرنسيين وغيرهم فى فتنة الباب العالى فى الخلافة العثمانية عن الحكم بما أنزل الله ليحطموها ويزيحوها عن طريقهم إلى فلسطين ، والتسلط على العالم .

ومما يبين نوايا اليهود هذه ماورد فى خطاب لأحد حكمائهم فى عام ١٧٩٨ م ، أى بعد الثورة القومية فى فرنسا بتسع سنوات وقد أثبت هذا الخطاب المؤرخ اليهودى ليفى أبو عسل فى كتابه يقظة العالم اليهودى ، ومما ورد فيه قوله :

« فهيا بنا أيها الإخوان لتجديد هيكل أورشليم . .

« إنه يجب العمل بالوسائل التالية لتحقيق هذا المشروع المقدس وهى إقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى الأربعة عشر بلدا التالية ، وهى إيطاليا ، وسويسرة ، والمجر ، وبولونيا ، وروسيا ، وبلاد الشمال ، وبريطانيا العظمى ، وأسبانيا ، وبلاد ولس ، والسويد ، وألمانيا ، وتركيا ، وآسيا ، وأفريقيا . . .

« أما البلاد التى ننوى قبولها باتفاق مع فرنسا فهى إقليم الوجه البحرى

---

(١) المصدر السابق ، ١١٢ .

من مصر مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر ، فهذا المركز الملائم أكثر من أى مركز فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة الآتية من البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الشمالية والجنوبية .

« ثم إن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا ، وموقع بلادنا على المتوسط يمكننا من إقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وغيرها من بلدان أوربا .

« أما الاتفاقات والترتيبات الأخرى باقتراحاتنا على الباب العالى فلا يجوز نشرها علنا وعلى رؤوس الأشهاد . وسنكون مضطرين لإبقاء هذه المسألة منوطة بحسن إدارة الأمة الفرنسية »(١)

وتوصلت الأمة الفرنسية مركوبة الماسونية اليهودية إلى أن تجبر تركيا على منح امتيازات لمدارسها فى داخل تركيا كما يقول سرجى نيلوس تعقيبا على مقررات (بروتوكولات) حكماء صهيون (١٨٩٧م) .

« إن هذه الوثائق . وقد وجدها صديق (أليكس نيقولا نيفقش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية القيصرية) فى مكاتب بمركز قيادة جمعية صهيون القائم الآن فى فرنسا .

« إن فرنسا قد أجبرت تركيا على منح امتيازات لجميع المدارس والمؤسسات الكاثوليكية التى طردتها من فرنسا حكوماتها السابقة هذه الحقيقة تثبت بلا ريب أن دبلوماسية المدارس الدريفوسية (نسبة إلى

---

(١) نقلا عن عبد الله التل ، من كتابه : جذور البلاء ١٤٢ وما بعدها .

دريفوس ضابط يهودى فى الجيش الفرنسى) لاتهتم إلا بحماية مصالح وأنها تعمل على استعمار آسيا الصغرى باليهود الفرنسيين . إن صهيون تعرف دائما كيف تحرز النفوذ لنفسها عن طريق مايسميهم التلمود البهائم العاملة التى يشير بها إلى جميع الأمميين »[١] .

وهذه الامتيازات التى نفذت منها فرنسا الماسونية واستطاعت أن تجبر تركيا عليها لمصلحة اليهود ترجع إلى ثغرات قد فتحها العثمانيون على أنفسهم فى الداخل وفى الخارج :

أما فى الداخل : فكان السلاطين كما يقول زين نور الدين زين : « لايطبقون الشرع الإسلامى على الجاليات غير المسلمة إلا فى حالات نادرة . . .

« وفسروا هذا المبدأ بأن على السلطان الفاتح أن يلتزم بما منح الأباطرة البيزنطيون هذه الجاليات من امتيازات وضمانات، بل للسلطان أن يضع لهم أحكاماً خاصة بهم توفر لهم تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة . .

« فنشأ مايسمى نظام الامتيازات وهو نظام كانت تتبعه الدولة البيزنطية والصليبيون فى الدويلات التى أنشأوها فى الشرق الأدنى »[٢] .

ومن هذه الجاليات فى الدولة العثمانية وعلى الخصوص فى القسطنطينية جالية يهودية كبيرة وقد ذكر شيريب سبيريد وفيتش فى كتابه : حكومة العالم الخفية لرسالة نشرتها سنة ١٨٨٠ م مجلة البحوث اليهودية الفرنسية ،

---

(١) محمد خليفة التونسى ، الخطر اليهودى (بروتوكولات حكماء صهيون) ص ١٨٧ .

(٢) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ٣١ ، ٣٢ .

والواردة مع بعض الاختلاف فى النص فى كتاب : اليهود ، إعداد زهدى الفاتح ص ١١٤ مأخوذة عن كتاب صدر سنة ١٦٠٨ م بعنوان : « La Silva Curiosa »

وقالت مجلة البحوث الفرنسية اليهودية عن هذه الرسالة : « فى ١٤٨٩/١/١٣ م كتب شامور حاخام مدينة إرل — من أعمال مقاطعة بروفانس — إلى المجمع اليهودى القائم فى الآستانة يستشيره فى بعض الحالات الحرجة . ومما جاء فى الكتاب : إن الفرنسيين فى إكس وإرل ومرسيليا يهددون معابدنا فماذا نعمل ؟ . . فجاء الجواب التالى :

أيها الإخوة الأعزاء :

بأسى تلقينا كتابكم وفيه تطلعوننا على ماتقاسونه من الهموم والبلايا فكان وقع هذا الخبر شديد الوطأة علينا . وإليكم رأى المرازبة والحاخامات :

— بمقتضى قولكم : إن ملك فرنسا يجبركم أن تعتنقوا الدين المسيحى . اعتنقوه لأنه لايسعكم أن تقاوموا غير أنه يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى راسخة فى قلوبكم .

— بمقتضى قولكم : إنهم يأمرونكم بالتجرد من أملاككم . فاجعلوا أولادكم تجاراً ليتمكنوا رويداً رويداً من تجريد المسيحيين من أملاكهم .

— بمقتضى قولكم إنهم يعتدون على حياتكم فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم .

— بمقتضى قولكم : إنهم يهدمون معابدكم . فاجعلوا اولادكم كهنة وإكليريين ليهدموا كنائسهم .

— بمقتضى قولكم : إنهم يسومونكم تعديات أخرى كثيرة ، فاجعلوا أولادكم وكلاء دعاوى ، وكتبة عدل، وليتداخلوا دائما فى مسائل الحكومة، ليخضعوا المسيحيين لنيركم — فتستولوا على زمام السلطة العالمية . وبذلك يتسنى لكم الانتقام .

سيروا بموجب أمرنا هذا فتتعلموا بالاختبار أنكم بهذا الذل وهذه الضعة التى أنتم ستصلون بها إلى ذروة القوة والسلطة الحقيقة . فى ١٣ كاسلو (ت ٢) ١٤٨٩ م

التوقيع

أمير يهود القسطنطينية[١]

فهؤلاء اليهود من ضمن الذين تمتعوا بتساهل السلطان العثمانى وتركهم على وضعهم وامتيازاتهم التى منحتها لهم جاهلية القانون الرومانى الإغريقى والبيزنطى المدنى والتجارات المالية، بل إن السلطان الإسلامى ضمن لليهود فى بلاده العثمانية تلك الامتيازات وسن لهم أحكاماً خاصة بهم وفرت لهم تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة ، وبتنفيذ أحكامهم الجاهلية على الأرض الإسلامية ، ووجود اليهود داخل الخلافة الإسلامية على هـــذا الوضع الامتيازى الخارج عن الشرع وربط الخلفاء بتعيين مستشارين يهود فى بلاط الخلافة ومجالس الحكم ومرافق أخرى ، وما كان اليهود فى موقفهم من الإسلام منذ بعثة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم إلا أشد الناس عداوة فهل يخرجون عن هذا الموقف من الإسلام وقد وجدوا لهم من حملته معاونا ؟

---

(١) شيريب سبيريدوفيتش ، حكومة العالم الخفية ، ترجمة مأمون سعيد ، تحرير وتقديم أحمد راتب عرموش ص ٢٦ ، ٢٧ .

وقد قرأنا قبل قليل فى جواب أمير يهود القسطنطينية إلى حاخام مدينة إرل فى فرنسا أسس مخطط اليهود لتحطيم العالم النصرانى والسيطرة عليه والذى قد نفذوه بالفعل حتى استولوا على زمام سلطة النصارى العالمية وهدموا دينهم وأفسدوا حياتهم رغم أنهم أولياء لهم.

كما قال الله تعالى: (بعضهم أولياء بعض)(١).

فما موقفهم مع من هم أشد الناس عداوة لهم ؟ إنهم على الأقل لن يخرجوا عن مخططهم هذا فى نظرتهم إلى المسلمين أيضاً ، بل أشد تبعا للحال ، ولا تستوى حال العدو تجاه عدوه مع حال الولى تجاه مولاه ، وشتان ما بين الحالين.

قال الله تعالى: (لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ)(٢)

وتقدم قوله تعالى : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود)(٣).

ولقد كان هذا الإفساد من اليهود فى الخلافة العثمانية ، حتى دخلوا فى شؤون حكم المسلمين وفيما يسمونه الإصلاح والتنظيمات للدولة العثمانية عن

---

(١) المائدة ٥١.

(٢) آل عمران ١١٨ ، ١١٩.

(٣) ص ٨٥.

طريق المستشارين والأعوان والمحافل الماسونية ، وبذروا بذور التجزئة والانحلال وأثاروا بالتالى القومية من باطن الخلافة ، حتى تقضقضت وانهارت .

لقد دخلوا فى حزب الاتحاد والترقى أو جمعية تركيا الفتاة حتى هوّدوه على قوته واستفحاله .

وسيأتى مزيد بيان وأدلة فيما يلى إن شاء الله تعالى.

لقد ساعد على خطوة الانفتاح هذه التى أقدم عليها الخلفاء العثمانيون من الداخل حتى وسعت الخروق الداخلية فلم تعد قابلة للترقيع انفتاح العثمانيين أيضاً للخارج بذلك الامتياز الذى أعطى لفرنسيس الأول ملك فرنسا سنة ١٥٣٥ م وهو أول ملك أوربى أغدق عليه السلطان سليمان القانونى مثل هذا الامتياز ، وهذا الملك الفرنسى كان الوحيد بين ملوك الدول الأوربية المسيحية (المنهزمة) الذى حظى من السلطان بلقب : باديشاه ، وفى سنة (١٦٠٦ م) أعطى هـــذا اللقب لامبراطور عائلة هابسبورج . . . وكان ذلك على وثائق معاهدات تجارة وصداقة تتم بينهم .

« وللمرة الأولى لم تكن الوثائق هذه معاهدة صلح فرضها العثمانيون المنتصرون فى عاصمتهم ، بل كانت معاهدة قامت المفاوضة عليها بين طرفين متساويين على حدود الدولتين »(١) .

« وحصل الفرنسيون بموجب ذلك الامتياز لملكهم على امتيازات

---

(١) برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط، ١٨٣ . وانظر : زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ٣٣ .

صداقة وتجارة أخرى واسعة فى البلاد الإسلامية

« وفى سنة ١٥٨٠ م حصل البريطانيون رسمياً فى عهد الملكة اليزابيت على امتيازات خاصة عند ما عين وليم هاربون اول سفير بريطانى لدى الباب العالى .

« وتبع هذه الامتيازات تشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية تامة للنظر فى الدعاوى بين الرعايا الذين ينتمون إلى هذه القنصلية أو تلك ، وكان رعايا الدول الأجنبية المقيمون فى الخلافة العثمانية من غير المسلمين لايخضعون للقوانين العثمانية بل كانوا يتمتعون بأحكام خاصة بهم ، وكان القاضى فى هـــذه المحاكم القنصلية القنصل نفسه يعاونه مستشاران ، وكانت الأحكام الصادرة عن هذه المحاكم تنفذ على الأرض التركية الإسلامية .

« وعلى هذا الأساس طلب القنصل البريطانى فى قبرص من حكومة بلاده أن تسمح له بأن يبنى سجناً بالقرب من مقر القنصلية فى عام ١٨٤٤ م .

« ونالت الدول العظمى امتيازات تخولها أن يكون لهـا محاكم خاصة ودائرة بريد خاصة وامتيازات أخرى .

« فنشأ عن ذلك مشكلة القضاء والإدارة وتعقدت تعقيداً شديداً[١]

« وبدأ القرن التاسع عشر بإقرار فكرة المساواة بين العثمانيين وغيرهم من الدول ، وانتهى بإقرار الهزيمة »[٢] .

---

(١) انظر زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٣٣ .

(٢) برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، ص ١٨٤ .

« فى القرن التاسع عشر ، أدخلت الدولة العثمانية عدداً من الشرائع والقوانين العلمانية وعممتها فى طول البلاد وعرضها .

وقد جاء هذا التشريع العلمانى الحديث نتيجة لعدد من العوامل ، منها وقع الفكر الغربى على الامبراطورية العثمانية ، والضغط السياسى الذى كانت الدول الغربية تمارسه فى علاقتها مع الأتراك ، والمحاولات المختلفة التى قام بها الأتراك أنفسهم لإصلاح مؤسسات الدولة العثمانية لاسيما التنظيمات »[1] .

تكامل الانهيار من داخل الخلافة العثمانية بالعلمانية :

العلمانية هى الجو الملائم لنمو فكرة القومية فلذا قام اليهود بنغمة مايسمى بالإصلاح الغربى ، ووجهوا الدولة العثمانية إلى العلمنة بقصفها بالفكر الغربى فى حال بعدها عن الفكر الإسلامى ، وبالضغط السياسى من الدول الغربية فى حال ضعفها وبقبول من سموا أنفسهم حزب الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة وهم من المنتمين إلى المحافل الماسونية اليهودية يطلبون صلاحهم من فساد الغرب ودواءهم من دائهم ، يقول الجنرال التركى جواد رفعت آتلخان : « وأصبحت جبال مكدونيا ملجأ للثوار ، دعاة الإصلاح الغربى، بدعوى تنظيم السلطنة وإصلاحها إصلاحاً عصرياً »[2].

وتم لهؤلاء الثوار ما أرادوا ، فأخذت القوانين العلمانية تحل محل الشريعة الإسلامية بلا مواربة عند مستهل القرن التاسع عشر الميلادى ،

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ٣٥ .

(٢) أسرار الماسونية ترجمة نور الدين الواعظ وسليمان القابلى ص ٢٣١ .

فى مستهل هذا القرن « أنشأت الدولة العثمانية جمعية للتجار بموجب قانون كان يعرف باسم براتلى . .

« وقد منح هذا القانون التجار الوطنيين الامتيازات والضمانات ذاتها التى كان يكفلها قانون الامتيازات الأجنبية للتجار الأجانب ، ومن هذه الضمانات بطبيعة الحال ضمان حرية ممارسة هؤلاء الأجانب للربا والاحتكار وغيرهما مما هو مألوف عند غير المسلمين ، وكانوا يبررون هذا القانون الذى منح الوطنيين امتيازات الأجانب بدعوى جعل التجارة الوطنية قادرة على الوقوف فى وجه التجارة الأجنبية التى منحوها امتيازات حاربت التجارة الإسلامية فى عقر دارها حتى ضعفت ثم تخلوا عنها وانحازوا إلى تيار التجارة الأجنبية .

« وفى سنة ١٨٥٠ م صدر قانون التجارة .

« وفى سنة ١٨٦١ م أنشئت محاكم تجارية لتنفيذ أحكام هذا القانون .

« وفى سنة ١٨٤٠ م صدر قانون الجزاء المبنى على قانون الجزاء الإفرنسى . وفى السنة ذاتها أنشئت محكمة خاصة عرفت « بمجلس الأحكام العدلية » مهمتها النظر فى الدعاوى التى تقام ضد كبار الموظفين فى الدولة [1] .

« وفى سنة ١٨٦١ م صدر النظام الأساسى لنظام المتصرفية والمتصرفين فى لبنان ، وهو مما اشتمله البروتوكول الذى رفعه خمسة سفراء إلى الباب العالى ، وهم سفراء بريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا بشأن لبنان

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٣٥ .

بعد الحرب الأهلية فى جبل لبنان سنة ١٨٦٠ م ووافق عليه الباب العالى وبموجبه فصل لبنان عن سوريا ، وأصبح سنجقا مستقلا ذاتيا يحكمه متصرف مسيحى[١] .

« وفى سنة ١٨٦٩ م أصدر قانون التجنس أو الجنسية ، يحـــدد الأحوال والظروف التى يستطيع الفرد بموجبها أن ينال الجنسية التركية أو يفقدها .

« أن قانون التجنس كان تغييراً خطيراً فى نظرة الأتراك إلى فكرة القومية .

« وهذه كلها يسمونها القوانين المدنية .

« وقررت الدولة فى سنة ١٨٦٩ م تدوين أحكام القانون المدنى فى مجلد واحد أطلق عليه اسم « مجلة الأحكام العدلية » ، اتبع فيها أسلوب القوانين العلمانية الحديثة .

« وأخيراً فى سنة ١٨٧٩ م تمت إعادة تنظيم السلك القضائى ، وذلك بإنشاء وزارة للعدل ومحاكم نظامية .

وقد بنى هذا التنظيم الجديد للقضاء على النظام الإفرنسى ، وكان فى الوقت ذاته خطوة هامة نحو وضع الامبراطورية العثمانية على أسس عصرية . . .

« وكذلك شرع الباب العالى فى إعادة تنظيم الوحدات الإدارية فى جميع أنحاء الامبراطورية .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

« يعود الفضل في إعادة تنظيم الولايات العثمانية ، أولا إلى الإصلاحات الناجحة التي قام بها مدحت باشا في ولاية الدانوب عندما كان والياً عليها (١٨٦٥ م — ١٨٦٨ م) . وبموجب هذه الإصلاحات أصبح التقسيم الإداري العثماني يشبه التقسيم الإداري الإفرنسي، وقد اعتبرت إصلاحات مدحت باشا هذه جزءاً من قانون الولاية الذي سن سنة (١٨٦٤م) وعدل سنة (١٨٧١ م)[١] .

« وقد كانت محاولة تنمية الوجدان القومي عند الأتراك تقليداً واتباعاً للحركات القومية في أوربا، وكان إلى حد ما استجابة للظروف والأحوال ذاتها التي كانت سائدة في تركيا[٢] .

وتلك الظروف والأحوال السائدة هي ظروف حلول القوانين العلمانية الأوربية ، وما انتشر بين الناس من عقائد يسمونها « عقائد سياسية أوحت بها الثورة الفرنسية » وورود هـــذه الأفكار الغربية الوثنية وما استحدثوا من أزياء وأساليب في العيش ومن وفد إلى تركيا من الأجانب كما يفيد أحمد أمين في كتابه (تركيا أثناء الحرب العالمية ص٢٦) فيقول : « في سنة ١٨٤٨ م ، فترة الثورات في أوربا وصل إلى تركيا جملة صالحة من الرجال الأفاضل الأقوياء » — ويتابع الدكتور أمين كلامه فيقول : « إنهم جاؤوا لاجئين ورفضت تركيا تسليمهم بالرغم من أن النمسا وروسيا هددتا بالحرب في حالة (عدم) تسليمهم وكثيرون منهم تجنسوا بالجنسية التركية والتحقوا كموظفين في الحكومة التركية »[٣] .

---

(١) زين نور الدين زين « نشوء القومية العربية ص ٣٧ ، وص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، هامش ص ١٨٦ .

(٣) نشوء القومية العربية ص ١٨٦ .

قال زين : « وهكذا ازداد نقاط التماس مع العالم الغربى »[١] حتى قال زين عن مدحت باشا ورشيد باشا : « كانا يطالبان بقبنى النظام الدستورى الغربى فى الحكم ، ذلك النظام الذى يقول مدحت باشا فيه : إنه العامل الأول فى تقدم الشعوب ورقيها .

ويضيف قائلا : ولأن تركيا تعتبر فى مصاف الدول العظمى ، عليها إذا أرادت أن تحتفظ بهذه المكانة وإذا رغبت فى مواكبة سائر الدول على قدم المساواة فى مضمار التقدم العلمى أن تتبع الأنظمة ذاتها التى تتبعها الدول العظيمة » [٢] .

ومدحت باشا قد أصبح صدراً أعظم فى الدولة العثمانية أى رئيس مجلس الوزراء فى مفهوم اليوم ، وهكذا إذا افتتن حكام المسلمين بشيء من مالم يأذن به الله فى دائرة الإسلام الطوعى ومنهجه الشرعى فحكموا به صاروا ممن حكم بغير ما أنزل الله وتجارى بهم هذا الاتجاه حتى يخرجوا من دائرة الحكم بما أنزل الله كليا ، وتسند الأمور إلى غير أهلها وتضيع الأمانة على رغم ندمهم آخر الأمر .

لقد استحوذ اليهود على مدحت باشا عن طريق الماسونية التى ينتمى إليها وهو الصدر الأعظم .

فصار مدحت أبا الدستور المنقذ وزعيم الإصلاح على حد وهم العامة والخاصة من الأتراك وأهل الغرب ، واستحوذت اليهود على تركيا الفتاة الماسونية فتسلمت مقاليد الحكم بعد أن اتحدت معها جمعية الاتحاد والترقى ،

(١) نشوء القومية العربية ، ص ١٨٦ .

(٢) نشوء القومية العربية ، ص١٨٦ .

وكانوا خير أمل لليهود فى تمزيق وحدة المسلمين وتفتيت أوصال خلافتهم، لتزول عن طريقهم إلى فلسطين وتدمير العالم — لاسمح الله — ومن الأدلة على نفوذ اليهود فى حكم الخلفاء العثمانيين ماينقله زين نور الدين زين : عن كتاب : « Hand books » هذا النص : « إن قادة جمعية الاتحاد والترقى وزعماءها كانوا جميعاً وبدون استثناء من البنائين الأحرار (أى الماسونيين) .

« وأن يهود سالونيكا كانوا جزءاً لايتجزأ من جمعية الاتحاد والترقى[1] .

ويقول زين : « والحقيقة هى أننا لانعرف أن أحداً من السلاطين الذين أصدروا « الخط الهمايونى » كان يفكر جدياً فى أن يصبح هو نفسه ذات يوم سلطاناً دستورياً ، أو كان يرضى بأن يرى الدول الغربية تتدخل فى شؤونه الداخلية . فكيف كان للسلطان أن يوافق على وضع قيود تحد من سلطته وهو أمر يتنافى مع مركزه السامى ...[2]

جاء السلطان عبد العزيز وما أعجبه الإصلاح الغربى وحكمه النيابى فخلعه دعاة الإصلاح الغربى ثم قتلوه وعينوا بدلا منه « مراداً » ثم اختل عقل مراد فخلعوه ، ثم عينوا السلطان عبد الحميد ، وقيض الله لعبد الحميد أن يتنبه على الخطر المحدق بالدولة العثمانية والنكسة التى وقعت فيها وهى نكسة إلى الجاهلية ، فأخذ يدعو إلى الوحدة الإسلامية ولمّ شعث الخلافة ، وعطل دستور مدحت باشا وقال إن مدحت باشا : « عميل للانجليز ،

---

(١) انظر : زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية، ص ٨٦ ، ٢٠٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

وكان الإنجليز يعرفون الإصلاحات التى يوصون بها من شأنها أن تغرق الدولة العثمانيةسريعاً تماماً مثل ما أعرف أنا . فهل يا ترى كان مدحت باشا يعرف هذه الحقيقة ؟ » .

وقال : « لابد للتاريخ يوماً أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم ، استطعت أن أعرف من تحقيقاتى أن كلهم تقريباً من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسونى الإنجليزى . .

وقد صرح السلطان عبد الحميد بماسونية مدحت باشا وماسونية أخيه السلطان مراد ، وهذه الأقوال للسلطان عبد الحميد فى مذكراته التى نشرت فى مجلة المجتمع (عدد ٢٧٠ فى ١٠/١٠/١٣٩٥ هـ) .

وكان لليهود أمل فى السلطان عبد الحميد وهو على رأس السلطة أن يعطيهم وطناً قومياً لهم وأن يخدعوه ، فرحل هرتزل إلى الشرق حيث اتصل بالسلطان عبد الحميد ليقدم له عروض اليهود المغرية :

١ — مساعدة السلطان على إنشاء أسطول بحرى .

٢ — معاضدته فى سياسته الأوربية .

٣ — إنشاء جامعة عثمانية فى القدس تغنى عن الذهاب إلى جامعات أوربا، وبذلك لا يتعرض الطلبة إلى تشرب النزعات الجديدة .

٤ — تحسين أوضاع السلطنة العمرانية .

٥ — عقد قرض مالى لتغطية تكاليف المشروعات المقررة .

مقابل منح اليهود حق استيطان فلسطين وإقطاعهم جزءاً من أرضها المهملة .

تمت المقابلة الأولى مع السلطان فى مايو ١٨٩٦ م والثانية فى أغسطس ١٩٠٢ م وفى كليهما أخفق هرتزل فى إقناع السلطان رغم ما اعترف به من رشوة قدمها للوزراء وللحاشية ومن وساطات كثيرة توسل بها[١].

وورد فى يوميات هرتزل ص ٣٥ ، منشورات مركز الأبحاث ، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية وعن صديقه نيولنسكى :

« قال السلطان لى : إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقى فانصحه أن لا يسير أبداً فى هذا الأمر ، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد ..

« وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ...

« ليحتفظ اليهود ببلايينهم ، فإذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل . إنما لن تقسم إلا جثثنا ولن أقبل بتشريحنا لأى غرض كان »[٢].

ثم لما يئس اليهود من السلطان عبد الحميد سعوا فى إسقاطه فأرغموه أولا على إعادة دستور مدحت باشا سنة ١٩٠٨ بثورة الاتحاديين ثم دبروا خلعه سنة ١٩٠٩ م وبلغه قرار الخلع أربعة ومنهم بشكل سافر اليهودى قرة صو والأرمنى آدام ، وأفتاهم بخلعه عالم السوء الباطنى العرق موسى كاظم(٣) وكله بتدبير اليهود « ويعترف الكاتب اليهودى برنارد لويس

---

(١) نقلا عن عبد الله التل من كتابه ، جذور البلاء ص ١٥٠ .

(٢) نقلا عن مقدمة أحمد راتب عرموش لترجمة مأمون سعيد كتاب : حكومة العالم الخفية تأليف شيريب سبيريدوفيتش ص ٣٥ .

(٣) مجلة المجتمع ١٣٩٥/٨/٢٥ هـ عدد ٢٦٥ ص ١٧ .

بهذه الجريمة فى كتابه (نشوء تركيا الحديثة) قائلا : « لقد تعاون الإخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد لأنه كان معارضاً قوياً لليهود ، وذلك لأنه رفض بشدة إعطاء أى شبر من أرض فلسطين لليهود »[١] .

وبعد خلعه أبعدوه إلى سلانيك مقر اليهود ليحبسوه ، ثم أعادوا بدله أخاه مراداً مرة أخرى ، والذى سبق أن خلعوه لاختلال عقله غير أنه فى هذه المرة كان ماسونياً ضعيفاً ليستغله اليهود خليفة للمسلمين ومن آل عثمان نسبا ، وهكذا سيطروا على الخلافة الإسلامية من داخلها « والشجرة تقطع بأحد أغصانها » .

عند هذا الحد وفى هذا الجو عمل اليهود بلا تستر ولا وجل على تحويل ولاء المسلمين فى الدولة العثمانية للإسلام إلى الولاء القومى حتى يجزئوهم تبعاً لجزئيات جنسياتهم المتعددة والتى ماوحدها إلا الإسلام ، فيسهل على اليهود أحتواؤهم شيئاً فشيئاً ، والسيطرة عليهم بالفرقة القومية وظهرت القومية التركية على حقيقتها فى جمعية الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة التى تسلمت حكم المسلمين وهم كما يقول فيهم هنرى مورغنتو سفير أمريكا فى الخلافة : « أنهم لم يكونوا دولة بالمعنى الصحيح ، بل كانوا حزباً غير مسؤول ، أو نوعاً من الجمعيات السرية التى تسلمت الوظائف الحكومية العالية عن طريق الدسائس والترويع والاغتيال »[٢] .

---

(١) أحمد صالح محايرى من بحثه الذى قدمه للمؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، ص ١٤ .

(٢) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ٢٠٦ .

هؤلاء هم الذين ظهرت فيهم القومية التركية على حقيقتها كما يقوله زين : « وأصبحت تعرف بالاتحاد الطورانى وهو حركة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب، التى تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الاتحادية »[١] .

«ويعتقد أن الفكرة مستمدة من كتاب لإفرنسى اسمه (M. Leon Cahun) حيث يرى فيه كاهون أن الطورانيين كانوا فيما مضى من الزمن شعبا ذكيا ممتازا لكنه أخذ بالتقهقر والانحلال عند ماتخلى عن الخصائص التى كان يتميز بها فى صحارى آسيا الوسطى واعتنق الإسلام ديناً وحضارة .

« ويقال إن الدكتور ناظم ، وكان عضواً بارزاً فى جمعية الاتحاد والترقى، واعتنق « الطورانية » مذهباً بعد اطلاعه على هذا الكتاب الذى أعاره إياه القنصل الإفرنسى العام فى سالونيكا »(١) .

« وقد يجد القارىء أفضل عرض للحركة الطورانية فى كتاب : «التركية والنزعة إلى الاتحاد التركى » لمؤلفه تكين ألب ، وهو اسم مستعار يخفى وراءه اسم كاتب يهودى من سالونيكا : ألبرت كوهين[٣] .

« وفى مؤلفات : يوسف بك أقجورا أوغلو ، وضياء كوك ألب وكتاب « قوم جديد » لعبيد الله الأفغانى ، وكتاب « تاريخ المستقبل » للكاتب التركى جلال نورى بك .

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق، ص ٨٧ ، ٢٠٨ .

« هذه المؤلفات نفثت فى نفوس الأتراك روحاً جديدة وعزماً صادقاً لإحياء الروح الوطنية »(١)

ويروى زين عن توينبي وكركود من مؤلفهما : « تركيا » قولهما فى ص ٥٧ :

« إن الدرس الذى تعلمه أعضاء تركيا الفتاة هو أن الرجوع بالشعب التركى إلى مؤسساته الاجتماعية قبل دخوله الإسلام من شأنه أن يعود بهم إلى إحياء الروح الوطنية ، وفى الوقت نفسه يكون أساساً للتقارب والتعاون بين الأتراك وبين الشعوب التركية الأخرى ، خارج الحدود العثمانية .

« يتضح لنا مغزى هذه الدعاية إذا تذكرنا أن ثلثى الشعب الذى يتكلم التركية فى العالم كله لايقطن البلاد التركية ، بل نجده داخل الحدود الروسية ، فكأن القصد من الحركة الطورانية هو أن تكون عاملا فى تقويض الامبراطورية الروسية »(٢) .

ويقول الأمير شكيب أرسلان عن هذه الحركة الطورانية لدى تركيا الفتاة قبل أن تغتصب الحكم وكان أرسلان عضواً فى مجلس الأمة فى الدولة العثمانية مانصه :

« وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية . . . وأشهر دعاتها ضياء كوك ألب ، وأحمد أغانف ويوسف أقشورا اللذان قدما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحي كال ، وحمد الله صبحى رئيس وجاق « ترك يوردى »

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٧ .

ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة وأنهم هم والجنس المغولى واحد فى الأصل ، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ، ولم يقتصروا منها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملى ، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول فى الصين ، وإلى المجر والفنلانديين فى أوربا ، وكل مايقال إنه ينمى إلى أصل طورانى . . « وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية ، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لاغاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا نحن أتراك فكعبتنا طوران ، وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الأناشيد الأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها[١] .

« وهذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى ، اقتداء بالأمم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذى قبل ، وذلك نظير ماحصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الابيض الذى كانوا يعبدونه ، حتى صوروه فى بعض كتبهم الحديثة »(٢) .

---

(١) من حواشى الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامى ، ١/١٥٨ — ١٥٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ١/١٦٤ .

ويروى أبو الحسن على الندوى عن خالدة أديب فى ضياء كوك ألب ، من محاضراتها فى الجامعة الملية بدهلى قولها :

« كان كوك ألب يريد أن ينشىء تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين وبين أسلافهم الطورانيين . .

« كان ضياء يعتقد ويؤمن بأن الإسلام الذى وضعه العرب لا يصلح لشأننا ، ولا بد لنا من إصلاح دينى يوافق طبائعنا إذا لم نرجع إلى عهدنا الجاهلى »(١) .

هذا ما يريده اليهود للمسلمين ، إهمال الجامعة الإسلامية وتقويض خلافتها ، وكذا الاتجاه للقومية الطورانية إلى تقويض الامبراطورية الروسية هو اتجاه يهودى صرف ، يقول عبد الله التل : « كانت نقمة اليهود على روسيا القيصرية عظيمة لأنها كانت فى نظر اليهود الركن المكين للمسيحية ولأن روسيا لم تهضم تغلغل اليهودية فى الكيان الروسى فكانت الثورة البولشفية سنة ١٩١٧ م وكان من ورائها قولا وعملا وتمويلا وتخطيطاً عتاة اليهود من أمثال تروتسكى »(٢) .

وعدد أسماء أخرى من عتاة اليهود .

حقيقة جمعية الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة :

إنهم ليسوا أتراكاً كما يزعمون ولا مخلصين للأتراك كما يدعون فضلا عن أن يكونوا مسلمين أو مخلصين للإسلام وهم يكفرون به ويحاربونه فى

---

(١) أبو الحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٩٩ — ٢٠٠

(٢) عبد الله التل ، جذور البلاء ص ١٩٣ .

بلاده — يروى زين عن ستون وتسون من كتابه :

(Seton-watson, the Rise of Nationality in the Balkans (London, 1971 ,) pp. 135 - 136)

قوله : « إن الحقيقة البارزة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى أنها غير إسلامية . فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركى صاف . فأنور باشا مثلا هو ابن رجل بولندى مرتد . وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة ، وكراسو من اليهود الأسبان القاطنين فى مدينة سالونيكا ، وكان طلعت باشا بلغاريا من أصل غجرى اعتنق الإسلام ديناً ، أما أحمد رضا ، أحد زعمائهم فى تلك الفترة ، فكان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجريا إلى جانب كونه من أتباع مدرسة كونت الفلسفية .

« إن أصحاب العقول المحركة وراء الحركة فقد كانوا يهوداً أو مسلمين من أصل يهودى ، وأما العون المالى فكان يجيئهم عن طريق « الدونمة » ويهود سالونيكا الأثرياء ، كما أنه كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية أو الشبيهة بالدولية — من فينا وبودابست وبرلين وربما من باريس ولندن ،

« كان يهود سالونيكا ، ويعرفون بالدونمة — أى المرتدون — شركاء الثورة التركية الحقيقيين . وهؤلاء هم من العرق اليهودى ولكن معتقدهم قد لايكون يهودياً أصيلا ، والاعتقاد الشائع بين الناس هو أنهم مسلمون بالاسم أما بالفعل فإنهم من اتباع توراة موسى .

وفى تلك الفترة التى نحن بصددها لم يعرف أحد من الناس شيئاً عنهم سوى قلة من العلماء المختصين بدراسة الشرق الأدنى ، ولم يكن أحد من

الناس يجرؤ أن يتنبأ أن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة « بالدونمة » ستلعب دوراً رئيسياً فى ثورة كان لها نتائج خطيرة فى سير التاريخ »(١) .

ويقول الجنرال التركى جواد رفعت آتلخان : « وبدأ قرة صو نشاطه . وأوقع كثيراً من الوطنيين المتحمسين فى شباك الماسونية ، وكان أحد هؤلاء (طلعت باشا) الذى انتخب رئيساً للمشرق الأعظم العثمانى .

« ولفظ طلعت أنفاسه الأخيرة غريباً فى بلاد أجنبية برصاص الماسونية اليهودية »(٢) .

ويقول أيضاً :

« وكان الماسونية واليهود والدونمة يراقبون هـذه التغيرات (بعد الحرب العالمية) عن كثب كى يستغلوها لمآربهم الخاصة ، ويظهروا على مسرح الحوادث بقوة وجلاء ويقودوها لمصالحهم الخاصة فحسب .

والدليل على ذلك أنهم بالرغم من تحدثهم بالمثل العليا وبيان استعدادهم للتضحية من أجلها . إلا أن ادعاءهم لم يتجاوز أفواههم وخير مثال لذلك أن الماسونيين لم يشتركوا مطلقا فى حرب الاستقلال التركى ولم يقدموا أى مساعدة مالية للمناضلين من أجل الاستقلال ، وحتى أنه عند ماطلبت مساعدة مالية عن طريق الجنرال الوحيد الذى كان من طائفة الدونمة تلقينا هذا الجواب المحزن من أصحاب المال (أخوان باجى) : نحن لا نملك المال الذى يمكن إعطاؤه للأتراك . .

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٧ .

(٢) جواد رفعت آتلخان ، أسرار الماسونية ، ترجمة نورالدين الواعظ وزميله ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

« لم تتلق أية مساعدة لأنهم السبب فى اختلال الوطن وتمزيقه ، وهل من ماسونى فى وسعه أن يتحدى الاتحاد الماسونى أو أسياده اليهود ؟ »(١) .

ويقول أيضاً :

« وفى الواقع أن جمعية الاتحاد والترقى التى خلعت السلطان عبد الحميد عن عرشه هى التى أقامت الاستبداد بعد ذلك .

وشهدت البلاد من المآسى مالم تشهده خلال ثلاثة وثلاثين عاماً من حكم السلطان ولفظ مواطنون مخلصون أنفاسهم الأخيرة على أعواد المشانق التى نصبت فى مختلف أنحاء البلاد ، أما المصيبة الحقيقية الكبرى فهى وقوع إدارة الحكم تحت النفوذ الماسونى اليهودى وكأن الأرض قد انشقت مرة واحدة عن مستعمرات يهودية ذات أبنية شاهقة من مناطق حيفا ويافا ورملة وكرمل وهكذا فإن إسرائيل قد أرسيت بأيدينا »(٢) .

انتهى ما أردت نقله من كلام هذا الجنرال التركى الخبير بمايقول أكثر من غيره منا ، وأخيراً أختم عن هذه الجمعية كلامى بما نشره الدكتور زين نور الدين زين فى كتابه نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية ، ناقلا عن كتاب :

(**Hand books** No. 96 C & **d**, pp. 45 - 47)

وهو وصف مجمل للسياسة التى كانت تتبعها « **تركيا الفتاة** » لما استولت على الحكم فيقول :

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

« أولا : وقع خلاف بين أنصار ضياء بك وبين المسلمين حول قضية اللغة .

ويبدو أنهم فكروا فى ترجمة القرآن إلى التركية ، لأنهم كانوا يعلمون أن ترجمة التوراة وطقوس الصلاة إلى اللغة الإنجليزية والألمانية بعد حركة الإصلاح الإنجيلية اصبحت أساساً لنشوء الأدب الإنجليزى القومى والأدب الألمانى القومى .

« ثانياً : أسفرت معارضة علماء الإسلام لترجمة القرآن إلى التركية عن قيام حركة (تزعم أنها) تركية وطنية لمهاجمة الإسلام على أنه نظام دينى ، وهذه الحركة العلمانية التى ظهرت فى تركيا جاءت تقليداً للحركة العلمانية فى أوربا . يدل على ذلك إطلاق الكاتب تكين ألب (اليهودى الذى اسمه الحقيق : ألبرت كوهين) تعبير اكليريكى واكليروس على الكهنة .

لكن الحركة العلمانية كانت تستهدف اصلاحات جذرية كعلمنة التربية والقضاء .

وقد خطت جمعية الاتحاد والترقى خطوات فى هذا الاتجاه .

وإذا كان قد وقع خلاف بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقى فى قضية علمنة الدولة فإنه خلاف حول أفضل السبل التى من شأنها أن توفر العلمنة بأقل ما يكون من المعارضة وبدون أن يشعر الناس أن العلمنة أمر يتعارض مع الإسلام .

« ثالثاً : شرع الوطنيون الأتراك فى إحياء حركة يمكن أن تسمى حركة جاهلية وهى لها مثيلها فى أوربا فيما يسميه الالمان « الألمانية الاصلية

العريقة ، وكما تظهر فى التماثيل الخشبية المعروفة بتماثيل « هند نبورغ » .

فقد أحاط الأتراك الفاتحين الطورانيين الوثنيين أمثال جنكيزخان وهولاكو بهالة من التقديس والعبادة .

وكان على كل عضو من أعضاء الجمعية المعروفة بجمعية « ترك أوقجى » — أى التركى الشجاع وكانت جمعية تعنى بالتربية البدنية وبما على نمط الجمعية السلافونية سوكول — أن يتخذ له اسما طورانيا بصفته عضواً فى هذه النوادى وعوضا عن اسمه الإسلامى (مثلا أوغوز عن محمد) .

كذلك تأسست جمعيات كشفية كان الأولاد فيها يتسمون بأسماء طورانية ، وكان فى هتافهم يستعملون هتافاً طورانياً — ليعش خاقان الأتراك عوضا عن لفظ بادشاه - وكانوا يحملون أعلاما عليها صورة الذئب التركى ، مع العلم بأن صور الخلائق الحية أمر محرم فى نظر المسلم الحقيق .

« ويقال إن أنور باشا هو الذى كان يرعى هذه الجمعيات الكشفية .

وقد وقعت صورة أمر تركى صادر إلى العساكر التركية فى حوزة وزارة الحرب البريطانية وفيه تعليمات للجنود أن يذكروا فى صلواتهم « الذئب الرمادى » ويبدو أن الطورانية فى شكلها المتطرف تركت أثراً فى نفوس الطبقة التركية الراقية .

فقد وجد جيش الملك حسين على جثة أخى القائد التركى فى المدينة منشوراً أصدرته إحدى الجمعيات التركية الطورانية ، وجمعية « ترك أوجاق » أى الموقد التركى جاء فيه : أن هذه البدعة الخيالية المخيفة التى يسمونها « الأمة الإسلامية » التى ظلت إلى أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه عام ، ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص ، هى فى

طريقها الآن إلى التفكك فالزوال ، وليس لنا أن نتخوف منها على أنها تشكل خطراً على خططنا فى تحقيق مبادئنا وأهدافنا . يتضح ذلك اتضاحاً جلياً من مجرى الحوادث بين المسلمين فى الهند »[١] .

أثر اليهود فى رد العرب إلى القومية :

تبينا فيما سبق حقيقة القومية الطورانية ، إذ جاء دور اليهود فيها سافراً . وقد أصاب قلب الخلافة الإسلامية بالتمزيق والإفساد حيث ردوا العنصر الحاكم عن دينه إلى أن أصبح عدواً للإسلام ، وقد دخلوا أيضاً فى أهم عنصر آخر يخشى أن تعود الخلافة إليه كما كانت فى نصابها السليم وهم العرب فردوا أنظارهم إلى القومية كما فعلوا بالأتراك بطرق منها :

١ — إثارة ردود الفعل حين حملوا أداتهم « تركيا الفتاة » على تعمد تتريك العرب وتحديهم حتى فى لغتهم وعاداتهم ومشخصاتهم الذاتية كى تثور بهم العاطفة العمياء إلى الاعتزاز، بقوميتهم كما فعل الأتراك والدعوة إلى العروبة كرد فعل عنيف لسياسة القومية التركية الطورانية المتغطرسة المفتخرة بجنكيزخان وهولاكو ، يقول زين نور الدين زين « وبزوال عبد الحميد كان الأتراك قد وصلوا إلى نهاية المطاف من تاريخهم ، ذلك التاريخ الذى كان يربطهم بآسيا وبالشعوب الإسلامية قرابة ستمائة سنة » .

إلى أن قال :

« وهذا الخلف فى الوعود والتعهدات التى أخذتها تركيا الفتاة على نفسها كان من شأنه أن يؤدى حتما إلى الانشقاق بين العرب والأتراك »[٢] .

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٨٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٨٠ ، ٨١ .

« فلا نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إن السياسة العرقية التي كانت تتبعها تركيا الفتاة هي التي ألهبت شعور القومية في نفوس العرب .

« فعندما اتخذت تركيا الفتاة من الوطنية المتطرفة والتفوق العرقي أساساً لبناء تركيا الجديدة . كانت ردة الفعل عند قادة العرب أنهم راحوا يفكرون بمستقبل أوطانهم بالأسلوب ذاته .

« وقد أسفر الأمر عن تأسيس عدد من الجمعيات العربية والأحزاب السياسية . .

« وكان مؤسسوها من الشبان العرب »(١) .

ولقد سلكت هذه الأداة اليهودية حينما استلمت الحكم في تركيا اغتصابا مسلكا جنونياً إلا أنه يفترق عن الجنون الحقيقي بأنه مفتعل عن قصد واع منهم لما يريدون من ورائه من نبذ الإسلام والفتنة عنه بردود الفعل المتطرفة والتوريطات في الحمية الجاهلية للقومية بدلا من الإسلام ، فلقد بلغ هذا المسلك بهؤلاء الحكام إلى أن صمموا على عسف العرب كي يكونوا أتراكا حتى في لغتهم ولغة عبادتهم ودينهم في بلادهم وبين قومهم ورغم الزمن الطويل على التكلم بها بل الأدهى رغم شرفها بالقرآن الكريم ، وعبادة رب العالمين ولسان خاتم المرسلين ، وكل ذلك لم يشفع عندهم تعصبا لطورانية هولاكو وجنكيزخان ، لا ليس الأمر تعصبا للطورانية في الحقيقة ولكنه عداوة اليهود للذين آمنوا وكيدهم الذي لم يصادف صبراً وتقوى ، كتب السير ادوين بيرز عن جمعية الاتحاد والترقي يقول :

« إنها لا تتسامح بقضية اللغة التي يجب أن تكون التركية ، والتركية فقط .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٠ ، ٩١ .

« ولذا فرض على الناس تعلم التركية ، بحيث أصبحت لغة مقررة فى كل مدرسة . وصدرت الأوامر بتغيير أسماء الشوارع غير التركية ، هذا مع العلم أن أقل من جزء واحد على عشرين من السكان فى معظم المدن التركية يستطيع أن يقرأ التركية » انتهى ما كتبه :

(Pears, sir Edwin, fory Years in Constantinople, P.241) (١)

ويذكر الدكتور شهبندر فى مذكراته المنشورة تحت عنوان الثورة الوطنية (دمشق ١٩٣٣ م ص ٢ - ٣) ماحصل له سنة ١٩١٠ م فيقول : « إن كامل بك الصلح أخبره الخبر التالى :

عندما كنت فى طريق من موناستير إلى دمشق لأتسلم منصبى الجديد فى محكمة النقض والإبرام ، عرجت على الآستانة بطلب من وزير العدل آنذاك ، . نجم الدين منلابك . الذى نبهنى إلى أن لغة المحكمه التى سأتسلم رئاستها يجب أن تكون التركية من الآن وصاعدا ،

وذلك لأنهم كما قال لى : « سيتخلون عن العرب » .

ويتابع الدكتور عبد الرحمن شهبندر كلامه فى مذكراته فيقول : « عندما كنا أعضاء فى جمعية الاتحاد والترقى فى سوريا تبلغنا شفهيا تعليمات من المكتب الرئيسى للجمعية بواسطة الدكتور محرم بك مؤداها أنه ينبغى لنا أن نستعمل اللغة التركية فى مراسلتنا الرسمية مع الجمعية » — وهكذا ، كما يقول الدكتور شهبندر ، كانت هناك محاولة عن عمد

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، من كتابه : نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٩ .

وتصميم لجعل اللغة التركية تحل محل العربية فى البلدان العربية[١] .

حتى فى مكة المكرمة يقول أحمد السباعى فى كتابه « تاريخ مكة » مانصه :

« وتألف فى مكة كما تألف فى سائر بلاد العرب فرع الاتحاد والترقى وأنشئت لتتريك العرب فيها مدارس كانت تدرس العلوم العربية باللغة التركية »[٢] .

فالتهبت مشاعر العرب فى كل مكان وثارت ثائرة القومية فى نفوس بعضهم وراحوا يتزعمون للعرب من غير بصيرة ويفكرون بمستقبل أوطانهم بالأسلوب القومى دون إجماع من العرب عليه ومن هنا دخل اليهود مباشرة فى شؤون العرب واحتضنوا ردة الفعل لديهم وأطغوا حماسهم للعروبة حتى أغرقوهم بالقومية عن طريق جمعياتهم السرية الماسونية فى باريس وتركيا والقاهرة ودمشق ولبنان تلك التى كانت معملا قديماً للقومية لازالت تؤتى ثمارها وتبلور لكل جنس نصيبه .

٢ — والطريق الآخر لليهود فى إذكاء الروح القومية للعروبة وفى العرب هذه المرة وكانت قد نسيت والتحم العرب مع غيرهم على أساس الإسلام حتى صاروا فى واقعهم وحدة تركبت من أجناس متباينة ومن أوطان مختلفة يستخدمون العربية لفهم القرآن والسنة وعقلهما كى يعملوا بما فيهما على بصيرة ، وحينما تستطيع يهود أن تثير فى العرب روح التعصب للعروبة كغاية فسوف تكون الفتنة عن الإسلام أشد لأنها تحمل على تعطيل الوسيلة وإنكار أن الله تعالى جعلها سببا للعقل والفكر

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، من كتابه : نشوء القومية العربية ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) أحمد السباعى ، تاريخ مكة ٢/٢١٨ .

ألا وهى العروبة ، فإذا جعلها العرب غاية وكفاية أدخلوا فيهم من اكتفى بها دون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخرجوا منهم من لم يستكملها وإن كان قد اتصل بالعروة الوثق، وشهد أن لا إله إلا الله التى هى أصل الكتاب والسنة ، ناهيك عن الاختلاف العظيم فيما هو أساس العروبة ؟ فذاك الاختلاف الأول من شأنه أن يفرق المسلمين أيما تفريق، وهذا الاختلاف الثانى من شأنه أن يفرق العرب أنفسهم أيما تفريق أيضاً ، وماذا يريد اليهود أكثر من هـذا ؟ لذا نشطوا فى إذكاء روح القومية فى العرب ليفبذوا إخوانهم فى الإسلام أولا ثم لايتفقوا مع أنفسهم ثانياً : وهذا يؤدى إلى خراب البلاد الإسلامية وانشغال حرسها بأنفسهم وعلى الخصوص بلاد العرب كأرز الإسلام ومحضن للخلافة ، الخلافة التى كانت مرسى للبشرية أن تميد ومناراً لها أن تضطرب ، وسدا منيعاً يحول دون اليهود والفساد الذى يشتهون وبه يعيشون ويسعون : (ويسعون فى الأرض فسادا)(١) .

وفيما يلى وثيقة بلسان أحد المنتمين إلى ماتروجه الماسونية وهو فارس نمر باشا الذى يقول فيما يقول :

« فالعروبة كشعار ، كان فى وسعها أن تثير فى نفوس العرب شعوراً بالقومية . وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون فى الجمعية الثورية السرية أن السبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف فى وجه الأتراك . ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى هى إدخال بعض الوجهاء المسلمين فى المحافل الماسونية فى بيروت .

---

(١) المائدة : ٦٤ .

وكان بعض الأعضاء البارزين فى هـذه الجمعية السرية قد انضم إلى عضوية هذه المحافل الماسونية ، وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية هـذه المحافل الماسونية للانتماء إلى الجمعية السرية .

« كان إلياس حبالين مارونيا ثم انضم إلى محفل ماسونى .

وكان قد قرأ فولتير وأصبح تقدمياً وثورياً فى أفـكاره .

« وكان بعد أن يختصر درس الفرنسية فى صفوفه (فى الكلية السورية الإنجيلية فى بيروت) يعود إلى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة .

وهكذا أصبح طلابه ، وجميعهم نصارى ، من أشد اتباعه إخلاصاً وولاءاً فـكان كل واحد منهم يطمح أن يكون « حباليينيا » يبز أستاذه . وراحو ينشرون أفـكاره بين الطلاب . وكان رجل آخر شديد الحماسة : سليم عمون قد قرأ رواية ديماس الافرنسى الموسومة « بالفرسان الثلاثة » فراح مع اثنين من أصدقائه يؤلف جمعية الفرسان الثلاثة السرية وغايتها تحرير لبنان من الحـكم التركى .

ويعتقد فارس نمر باشا أن الأفـكار الثورية التى كان يأخذ بها عمون وأصحابه عندما كانوا فى الـكلية السورية الانجيلية كانت أفـكاراً فرنسية المصدر ، وقد جاءتهم عن طريق الياس حبالين »[1] .

وكتب فارس نمر فى المقتطف ج ٣٦ مارس ١٩١٠م، ص ٢٥٠ - ٢٧٠ يقول : « على أن كثيرين من أحرار سورية النابغين يعترفون بالفضل

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ١١٥ ، ١١٦ .

فى خدمة الحرية لـ . . . إلياس بك حبالين. كان . . . يدرس شبان سورية اللغة الفرنسوية ولـكنه وقف جهده على إرضاعهم لبان الحرية وإضرام نار البغض بين ضلوعهم للسلطة الاستبدادية سياسية كانت أو طائفية . وشاركه فى هذا الفضل رجال العشيرة الماسونية فى سورية من مسلمين ومسيحيين . فياطالما سهروا الليالى وبذلوا الرخيص والغالى لإعداد أبناء سورية لقبول المبادىء الحرة والنظامات الدستورية »[١] .

ولقد تمخضت هـذه الجمعيات الماسونية اليهودية عن إظهار مناشير ثورية تدعو الناس لقلب نظام الحـكم وتهدف إلى إثارة روح الوطنية فى نفوس العرب بمناشدتهم أن يذكروا « أمجادهم الغابرة » وأن يثوروا على الأتراك فيطردوهم من الأرض العربية ويتحرروا من حكمهم الفاسد .

وكانت هذه المناشير تعلق على الجدران بعد منتصف الليل بالقرب من مقر القنصليات الأجنبية فى بعض المدن السورية ، ولا سيما فى بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا .

وقد اعترف فارس نمر . . أن جمعيتهم السرية كانت مسؤولة عن كتابة عدد من هذه المناشير[٢] .

وقد تقدم قبل قليل قول فارس نمر أنهم يأملون أن يستميلوا المسلمين إلى جمعيتهم السرية هذه بعد أن يكون هؤلاء المستمالون ماسونيين ، قد

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ١٩٧ .

(٢) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ٦٢ .
وقد اعترف أيضاً أن عدداً منها كان بخط يده ، نفس المصدر .

انضموا إلى عضوية المحافل الماسونية أولا ثم تسهل استمالتهم إلى أن ينضموا إلى هذه الجمعية السرية .

وقد جرت المخابرات عن هذه الحركات بين دول طامعة ومن ذلك مخابرات جرت بين قنصل الانكليز فى بيروت وقنصلهم فى حلب وقنصل فرنسا فى بيروت وبين رؤسائهم منها تقرير بعث به ج . ه . إسكين قنصل بريطانيا فى حلب إلى السفير البريطانى فى الأستانه فى ٣١ تموز سنه ١٨٥٨م. يقول إسكين : « . . يظهر أن السكان المسلمين فى شمال سوريا تدغدغ أفئدتهم أحلام جميلة بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، أو بإقامة دولة عربية على رأسها شريف من أشراف مكة »[1] .

ومنها رسالة وكيل القنصل العام الإنكليزى فى بيروت ، جون ديكسون إلى السفير الانكليزى فى الأستانة ج ، ت . غوشن مؤرخة فى ٣ تموز سنه ١٨٨٠ م يقول فيها : إن مناشير ثورية قد ظهرت على جدران بيروت مراراً وهى تناشد الأهلين أن يثوروا على الأتراك ، ولست أشك فى أن هناك جمعية سرية فى سوريا تعمل منذ خمس سنوات وأن لها فروعاً فى بغداد وفى الأستانة . . وقد تكون هذه الجمعية هى التى تصدر هذه المناشير » .

كذلك بعث القنصل الإفرنسى العام فى بيروت سينكفقس برسالة مؤرخة فى ٢ حزيران ١٨٨٠ م إلى فريسينه وزير الخارجية الإفرنسية ذكر فيها شيئاً عن ظهور هذه المناشير فى بيروت ودمشق ، وفى رسائله التالية إلى وزارة الخارجية الإفرنسية أشار إلى المناشير التى

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٩٨ .

اشار إليها البريطانى ديكسون »[1] .

ومن جانب الحكام الطورانيين فإن لهم يدآ مباشرة خفية فى هذه الروح الثورية الماسونية كما قرره ديكسون القنصل البريطانى فى ١٧ كانون الثانى سنة ١٨٨١ م فيقول : « إن الرأى السائد الآن بشأن مصدر هذه المناشير الثورية التى ظهرت أخيراً فى أنحاء عديدة من سوريا هو أنها صادرة عن جمعية المقاصد الخيرية . ومع أن هذه الجمعية تأسست منذ سنة ونصف برعاية مدحت باشا ، وتحت هذا الاسم بالذات ، فإن بعض الناس قد أكد لى أن النقمة على الحكم والمطالبة بإصلاح الحال تعودان إلى حقبة تسبق ظهور المناشير بزمن طويل ويبدو أن بعض هذا المجتمع الناقم انضم إلى جمعية المقاصد الخيرية عند تأسيسها . وتحت هذا الاسم الحسن الوقع فى النفس تستطيع الجمعية أن تقوم خفية بنشاط لبلوغ أهدافها دون أن تخشى اكتشاف حقيقتها .

ومن جهة أخرى فقد أخبرت بأن الجمعية الثورية هى التى تسببت فى تأسيس جمعية المقاصد الخيرية ، وأن مدحت باشا كان سراً أحد أعضائها ، وأنه هو الذى أسسها ورعاها لكى يعزز نشاط الجمعية الثورية ويعضدها . ويقال فضلا عن هذا ، إن مدحت باشا لايزال على اتصال وثيق بالجمعية ، بالرغم من أنه الآن فى أزمير ويقال أيضاً إن له ضلعاً فى توزيع هذه المناشير فى سوريا بواسطة عملائه السريين[2] .

وفى تركيا قامت جمعية الاتحاد والترقى وهى على مبادىء مدحت باشا من تطبيق دستوره وتنفيذ إصلاحاته الغربية كما زعم قامت هذه الجمعية

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٦٥ .

خلال الحرب العالمية الأولى بإهانة هؤلاء العرب المطالبين بالإصلاح كما هو مبدؤهم لتثير سائر العرب ضد العثمانيين وتفسد ذات بينهم وهم فى حالة حرب مع عدو للإسلام دينهم جميعاً بصفة رسمية تحت اسم الخلافة المتبق . . .

ومن هذه الإهانات محاولة تتريكهم وما فعله جمال باشا فى الشام من ظلم وترويع وقتل ونفى بدلا من مصالحتهم وترضيتهم واستمالتهم للجهاد معهم عدوهم المشترك ، فزادت الفتنة ، وتحركت روح الانفصال والنزاع وثار العرب هؤلاء ضد الأتراك بل ضد الدولة العثمانية باسم العرب فحسب[١] وفى الواقع أن الأتراك قد أسيء إليهم من قبل الطورانيين .

٣ — وهنا تأتى خطوة يهود الثالثة عن طريق الحرب والتحريش بين الناس وتوجيه نيران الحرب ضد القيم الصالحة كما يقولون :

« فنحن نثير حملة حقد ضخمة فى الشرق ضد الغرب ، وفى الغرب ضد الشرق . وسوف نحارب الأمم التى تقف على الحياد ، فنجبرها على الانضمام لهذا المعسكر أو ذاك ، ولن ندع أحدا يقف فى وجهنا إذا أراد التخفيف من شدة النزاع[٢] » .

---

(١) انظر زين ، فى المصدر السابق ١١٩ ومابعدها .

وانظر: أحمد السباعى، تاريخ مكة ج ٢١٨/٢ ، ٢١٩ ، وجورج أنطونيوس، يقظة العرب ص ١٩٤ — ٢٠٣ وهامش ص ١٨٤ — ١٨٧ و ص ٢٧٨ ومابعدها .

(٢) من آخر صفحة للغلاف الأخير لكتاب وليام غاى كار أحجار على رقعة الشطرنج .

وانظر : قول اليهودى الدكتور أوسكار ليفى : « نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ، ومحركى الفتن فيه وجلاديه » فى ص ٣ من بروتوكولات حكماء صهيون لمحمد خليفة التونسى بتقدير العقاد .

كيف صارت حروب التحرير القومية لمصلحة اليهود فى الحرب العالمية ؟

مر بنا أن هرتزل أخفق فى إقناع السلطان عبد الحميد بأن يكون حبلا لليهود يصلهم بفلسطين ومر بنا كيف عمل اليهود على إثارة جمعية الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة على الارتداد عن دين الخلافة باعتناق الطورانية والشرائع العلمانية الإلحادية الأوربية وتسور الحكم واغتصابه وخلع السلطان عبد الحميد لأنه يمثل السلطنة العثمانية الإسلامية ولم يبق فيه أمل لليهود يصلهم بفلسطين كسلطان للمسلمين ، ومر بنا عمل الماسون واليهود على إثارة ردود الفعل لدى العرب للقومية الطورانية المغولية بصفة متطرفة ورطتهم بمعالجة الوضع بالأسلوب القومى ذاته دون الإسلامى ، وفى نفس الوقت يتجه اليهود إلى الدول الاستعمارية الكبرى والتى سبق لهم أن أغرقوها بخططهم السرية وديونهم الربوية الاحتكارية فوجدوا فى بريطانيا وهى أعظم القوى الاستعمارية الصليبية بغيتهم ، وألفوها خير حليف لهم ، ارتبطت مصالحها بمصالحهم ، وأعلن زعيمهم وايزمان ذلك الارتباط ، وانضم صراحة إلى معسكرهم ، ويبين هذا تقرير بترمان سنة ١٩٠٧ م المقدم إلى وزارة الخارجية البريطانية والمحال إلى وزارة المستعمرات من عدة دول استعمارية هى مجموعة الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى وهذا التقرير عن أهمية منطقة الشام وفلسطين وتخوف الاستعمار من يقظة شعب هذه المنطقة بالإسلام وهى يقظة تهدد أطماعه وتقضى على إفساده حتى فى دياره وقد جاء فى هذا التقرير ما نصه :

« ماذا سيكون عليه الحال إذا تحررت هذه المنطقة واستغلت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها ، عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتما بالامبراطوريات الاستعمارية وعندها تتبخر أحلام الاستعمار بالخلود فتنقطع أوصاله ثم

يضمحل وينهار كما انهارت امبراطوريات الإغريق والرومان .

« وبناء على ذلك فإن التقرير أوصى بما يلى :

١ — أن تعمل الدول ذات المصالح الاستعمارية المشتركة على استمرار تجزؤ هذه المنطقة . . . وتأخرها ، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل وتأخر وتنافر .

٢ — وبشكل خاص أوصى التقرير « بمحاربة اتحاد هذه الجماهير أو ارتباطها بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحى أو التاريخى وبضرورة اتخاذ الوسائل العملية القوية لفصلها عن بعضها ما أمكن .

٣ — وكوسيلة عاجلة أساسية لدرء الخطر نبه التقرير إلى ضرورة العمل على فصل الجزء الافريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى . وتقترح اللجنة لذلك « إقامة حاجز بشرى قوى وغريب يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا بإفريقية ويربطهما بالبحر المتوسط بحيث تشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة »(١) .

« ولقد انضمت أمريكا إلى هذا الاتجاه بدافع من الصهيونية أيضاً التى لها نفوذ فى البيت الابيض »(٢) .

فجاءت الحرب العالمية عام ١٩١٤ م يوقدها اليهود من الداخل ومن الخارج بين ألمانيا ومعها تركيا ومن انحاز إليهما وبين بريطانيا ومن تحالف

---

(١) دكتور أحمد شلبى ، مقارنة الأديان ، اليهودية ص ٩٩ ومابعدها ، وعلى عبد الله وزملاؤه ، القومية العربية للصف الثالث الثانوى ص ١٥٦ ومابعدها .

(٢) دكتور شلبى ، المصدر السابق ص ١٠١ .

معها من الحلفاء . يقول السلطان عبد الحميد فى مذكراته : « أسقطنى اتحاديوا سلانيك عن العرش ، وتوصلوا إلى اتفاقية مع الإنجليز ، ودخلوا الحرب كحليف مع دولة البحار (ألمانيا) ، وكأن المسألة حلم »(١) .

واستهوت إنجلترا الشريف حسين ونفخت له فى صورة العروبة حتى أصبحت فى عينيه مهوى الفؤاد ووعدته بوصلها وأن تعترف له بزعامة العرب وأن يكون خليفة عربياً على المسلمين وقد كان مختار الإتحاديين لأمارة مكة رغم علمهم بكراهية السلطان عبد الحميد لذلك لأنه تفرس فيه نوايا انفصالية عن السلطنة(٢) وقد كان عمه الحسين بن محمد بن عون كما نقول السباعى المكى مشتركا فى الثورة الاتحادية وأنه كان على رأيهم فى هيمنة الدستور وامتداد نفوذه ويعتنق مبادئهم الدستورية وأنه مختار الاتحاديين لإمارة مكة على أثر انقلابهم على السلطان عبد العزيز عم السلطان عبد الحميد(٣) .

وكانت محادثات بريطانيا المخادعة ترمى إلى فل جمع المسلمين وتخاذلهم عن الجهاد فى سبيل الله كما يشهد : جورج أنطونيوس بذلك فى كتابه : « يقظة العرب » ومن هذه الشهادة قوله بالحرف الواحد : « لعل كتشنر

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ، المجتمع ٢١ من ذى الحجة ١٣٩٥ هـ عدد ٢٧٩ ص ٣٨ .

(٢) انظر : جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ص ١٧٨ .

(٣) أحمد السباعى ، تاريخ مكة ج ١٦٨/٢ ، ١٦٩ .

وانظر مذكرات السلطان عبد الحميد ، مجلة المجتمع، عدد ٢٧٩ ، ٢١٠ من ذى الحجة ١٣٩٥ هـ ص ٣٧ .

كان أكثر ساسة الحلفاء إدراكا للأخطار الناجمة عن الموقف فى البلاد العربية ، وسيبقى له ولرونالد ستورز الفضل فى أنهما أول من فكر فى مواجهة هذه الأخطار بخطتهما الجريئة بعقد حلف مع مكة ...

« وكانت خطوة كتشنر لضمان تأييد الشريف قبل فوات الفرصة ضربة معلم، تدل على الذكاء وبعد النظر (١) .

« فهو (الشريف) حفيد النبى - والقيم على الأماكن المقدسة ...

« ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصم أذنيه عن ندائه وخاصة إذا كان عربياً .

« وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس أن الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة معرضة للخطر . وهكذا فإن مؤازرته فى أمر كالدعوة للجهاد كانت عاملا مهما بل عاملا حاسماً .

« لم يكن ثمة شخص غيره يستطيع أن يجرد الدعوة إلى الجهاد من قوتها الأساسية حينما يمتنع عن تأييدها » (٢) .

« بذلت السلطات البريطانية فى مصر كل ما فى وسعها لتفادى مخاطر الدعوة إلى الجهاد . وكان الرجلان القائمان بالجهود الرئيسية فى بداية الأمر، هما : السكرتير الشرقى فى دار الاعتماد البريطانى مستر رونالد ستورز، ومدير المخابرات العسكرية فى القاهرة المقدم : ج . ف . كلايتون وفى كانون الثانى يناير ١٩١٥ م تسلم سير هنرى مكماهون عمله مندوبا

(١) ص ٢٢٠ .
(٢) ص ٢٢١ .

سامياً فى مصر والسودان . وكان سير ريجنالد ونجت ـ كما مر بنا ـ حاكماً عاماً للسودان ومقر قيادته فى الخرطوم . وحمل هؤلاء الرجال الاربعة العبء الأكبر من هذا العمل الشاق ،(١) فجرت المراسلات والاتصالات والعروض والوعود بين كتشنر وبين الشريف حسين ثم بين الشريف حسين وبين مكماهون ومن أمثلتها : مذكرة الشريف حسين الأولى إلى مكماهون من مكة فى الثانى من رمضان ١٣٣٣ هـ ، ١٤ يوليه ١٩١٥ م يبين فيها بيانه أن العرب بأجمعهم دون استثناء قرروا فى الأعوام الاخيرة أن يعيشوا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم ، وأن مصلحة بريطانيا العظمى أن تعاونهم ، ومن مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى ، وأن الشعب العربى يسأل الحكومة البريطانية أن تصادق على الاقتراحات الأساسية وعددها ومنها :

١ ــ أن تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية ماعدا عدن فتبقى على حالها

٢ ــ أن توافق إنكلترا على إعلان خليفة عربى على المسلمين .

٣ ــ تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية .

٤ ــ تتعاون الحكومتان فى مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين القوة العسكرية براً وبحراً وجواً(٢) .

---

(١) ص ٢٤٥ .

(٢) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٥٤٥ ـ ٥٤ .

ثم ورد الرد وهو مذكرة المندوب مكماهون الأولى من القاهرة فى ١٩ شوال ١٣٣٣ هـ ، ٣٠ من أغسطس ١٩١٥ م مفتتحا بما يلى :

« إلى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الأشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد بن السيد ، والشريف بن الشريف ، السيد الجليل المبجل ، دولتلو الشريف حسين سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركاته الناس أجمعين »[١]

وورد فى هذه المذكرة أن مكماهون يستصوب « الخلافة العربية عند إعلانها » .

« إن جلالة ملك بريطانية العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى عربى صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة »[٢] .

واستمرت المراسلات بين الشريف حسين وبين مكماهون إلى أن تم الاتفاق بين الطرفين على عدم تلبية الشريف دعوة الجهاد من تركيا بل والثورة عليها وخوض الحرب فى سبيل العرب .

وقد أورد جورج أنطونيوس هذه المراسلات فى كتابه : يقظة العرب . وهى الملحق (أ) من ص ٥٤٣ — ٥٧٧ ، معتمداً كتاب « الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ، المجموعة الأولى ١٩١٥م — ١٩٤٦ م) الذى أصدرته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية » ، وقد أيد نسبتها وقابلها

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٤٩ .

بأصلها المترجم : الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس ، أنظر : هامش من ص ٢٥٥ — ٢٥٧ ، وهوامش الملحق (أ) المذكور .

واتصلت بالشريف حسين أيضاً الجمعيات السرية فى الشام تؤيده قائداً للثورة العربية ضد العثمانيين ، واليهود من وراء بريطانيا تدفعها للحرب وتمولها ومن وراء جمعيات العرب والترك القومية بماسونيتها توجهها وتسيرها بفكرها الشيطانى حتى ثوروا الشريف باسم العرب على مسمى الخلافة فشطروا معنوية الجامعة الإسلامية ومرقوا ولاء المسلمين للخلافة الواحدة وأبطلوا مفعول الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله بإغواء هؤلاء القادة ، فالأتراك ينضمون إلى ألمانيا يقاتلون فى صفها وتحت رايتها وهى راية قومية عمية جاهلية ، والشريف ومن معه من العرب ينضمون إلى انجلترا يحاربون فى صفها وتحت رايتها فى سبيل القومية العربية واليهود من وراء راية بريطانيا ومن وراء راية ألمانيا وفى داخل القومية العربية والشيطان قد استحوذ على اليهود فصاروا يحركون هذه الكتل البشرية المستجيبة لهم كلاعب الشطرنج ، وحار المسلمون بين هذه الفتن التى كقطع الليل المظلم ، يقول ليمان ساندرز فى كتابه « خمس سنوات فى تركيا » .

« إن الجهاد الذى أعلنته تركيا كان أمراً بعيداً عن الواقع ، ذلك لأن الأتراك كانوا حلفاء دول مسيحية ، وكان ضباط ألمانيون ونمساويون يعملون فى الجيش التركى »[١] .

وكذلك تقول خالدة أديب ولها محاضرات فى الجامعة الملية[٢] وعلى

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ١٢٢ .

(٢) أبو الحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين هامش ص ٢٠٠ .

مايظهر من قولها الآتى أنها تركية وهذا نص قولها :

« من مهازل القدر أنه كان فى الجيش الفرنسى جنود مسلمون يحاربوننا وكذلك كان فى الجيش الروسى ، فى حين أن رعايا تركيا المسلمين ، خصوصاً العرب ، كانوا مرتبطين بالمعسكر المعادى لنا »[١] .

وكانت النهاية أن « اقتحم الجنرال اللنبى مدينة القدس من باب الخليل وقال عبارته المشهورة الآن انتهت الحروب الصليبية »[٢]

والتقى الجنرال اللنبى بلورانس العرب الذى يسير على خطى هرتزل فى سوريا وأيده على إجراءته بجيش فيصل العربى الفاتح لدمشق . يقول لورانس :

بصفتى مندوباً لفيصل فاجأت الحاضرين بإعلان عزل حكومة دمشق المحلية التى شكلها الجزائريان بالأمس وبتعيين شكرى باشا الأيوبى حاكما عسكرياً ونورى السعيد قائداً عاماً للقوات المسلحة ، وعزمى باشا نائباً له وجميل مديراً للأمن العام »[٣] .

« ولما عدت إلى الفندق وجدته محاطاً بجماهير غفيرة وأمامه سيارة (رولز) طحينية اللون سرعان ماتعرفت بأنها سيارة الجنرال اللنبى . فأسرعت إلى الداخل لأجده فى انتظارى مع كلايتون ، وكورنواليس وغيرهم . وبكلمات قليلة أعلن اللنبى موافقته على ما اتخذته من إجراءات فى درعا ، ودمشق ، وأقرنى على تعيين شكرى باشا الأيوبى حاكما عسكرياً

---

(١) نقلا عن زين ، المصدر المذكور ، ص ١٢٢ .

(٢) عبد الله التل ، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، ص ٢٣١ .

(٣) ت . ا . لورنس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص ٢٩٦ .

لدمشق تحت إمرة فيصل القائد العام للقوات العربية . ثم حدد الدائرة العربية ، ودائرة نفوذ (شوفيل) كما وافق على أن يأخذ على عاتقه مهمة تسيير سكة الحديد وإدارة المستشفى وفى لحظات معدودات ذللت كل العقبات التى كانت تقلقنى فقرت عينى أخيراً بالنجاح الذى أحرزته رغم كل الصعوبات »[١] .

ورفع الجنرال اللنبي إلى وزارة الحربية البريطانية شهادة عن أعمال الجيش العربي بتاريخ ١٩١٨/٧/٢٨ م جاء فيها قوله : « أشكر لجلالة الحسين بن على ملك الحجاز إخلاصه العظيم لقضية الحلفاء . ولا أملك نفسى من توجيه عاطر الثناء إلى سمو الأمير فيصل لما أظهره من براعة فى القيادة ولإخلاصه القلبي ولما أبداه من بسالة ومهارة فى الأعمال الحربية التى قام بها الجيش العربى .

وقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة فى الحصول على نتائج فاصلة فى الحرب » (٢) .

حقيقة الثورة العربية :

يكشف لورانس حقيقة الثورة العربية وهو الموجه لسيرها من جدة حتى دمشق ويحدد علاقته فيقول : « لقد طلب منى أن أعيش مع هؤلاء العرب كرجل غريب ، لا يقدر أن يجاريهم فى معتقداتهم وتفكيرهم ، وكنت مضطراً لتدريبهم وتوجيههم فى الاتجاه الذى ينسجم وسياسة بريطانيا المحاربة[٣] .

---

(١) ت . ا . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص ٢٩٩ ومابعدها

(٢) عبد الله التل ، خطر اليهودية ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٣) ت . ا . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص ٩ .

« لم أجد لدى العرب سوى أثر ضعيف للتعصب الدينى . فقد رفض الشريف مرات عديدة أن يصبغ ثورته بالطابع الدينى لحقيقة ثورته كانت قومية .

« والعشائر كانت تدرك أن الأتراك من المسلمين وأن الانكليز مسيحيون ، ولكن بالرغم من ذلك فقد ثاروا على الأتراك وارتضوا صداقة المسيحيين ومحالفتهم . فالعرب يريدون حكومة مستقلة تدافع عنهم وعن حقوقهم وقوميتهم وتفسح لهم مجال العيش بسلام »(١) .

وهذا ما كان يؤمن به لورانس وبريطانيا من قبل بعد أن اكتشفوه عن طريق تجسساتهم ولولاه ماهموا بفتنة العرب يقول لورانس :

« لقد كنت مؤمناً بالحركة العربية إيماناً عميقاً ، وكنت متأكداً قبل أن آتى إلى الحجاز أن هذه الفكرة ستمزق تركيا وتقضى على امبراطوريتها »(٢) .

ولورانس هذا هو الذى قال فيه وايزمان فى مذكراته ص ٤٥ — ٤٦ مانصه :

« ويقضى على الواجب وأنا أبحث تاريخ العلاقات بين العرب واليهود ، أن أثنى هنا الثناء العظيم على الخدمات التى قدمها « لورانس » للقضية اليهودية ، لقد عرفت لورانس وقابلته مرات عديدة فى مصر . وقد كان يتردد بعد ذلك على منزلى فى لندن من غير رسميات ولا كلفة .

« وكان موقف لورانس من الصهيونية موقفاً إيجابياً ، لاشك فيه .

(١ ، ٢) المصدر السابق ص ٤٨ ، ٤٩

وكان من الخطأ البالغ أن الكثيرين كانوا يتصورون أن لورانس عدو للصهيونية بحكم أنه كان صديقاً للعرب »(١) .

وتلك الصداقة التى يذكرها وايزمان للعرب من لورانس يحددها لورانس بنفسه بقوله السابق ذكره هنا : « لقد طلب منى أن أعيش مع هؤلاء العرب . . . » الخ إلى قوله : « لقد نجحت على الأقل فى إخفاء شخصيتى عنهم »(٢) .

أما وايزمان فيذكر الدكتور أحمد شلبي أنه يشرح فى مذكراته نقطة خطيرة هى اجتماعه بالأمير فيصل بن الملك حسين سنه ١٩١٨ م وتأثيره فيه .

ويردف شلبي بقوله :

« وفى ٣ يناير سنة ١٩١٩ م حصل وايزمان على اتفاق مع فيصل يعترف فيه بوعد بلفور ، ويعد بأحسن العلاقات بين الدول العربية التى ستنشأ فى الشرق وبين فلسطين ، وبعد شهرين عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى وأرسله إلى القاضى الصهيونى « فيلكس فرانكفورتر » عضو الوفد الصهيونى إلى مؤتمر فرساى بفرنسا »(٣) .

وقد نشر نص « اتفاقية فيصل - وايزمن » جورج انطونيوس ، فى كتابه : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد ، الدكتور إحسان عباس ، وهى الملحق (و) ،

---

(١) نقلا عن الدكتور أحمد شلبي . من كتابه : اليهودية ، ص ١٠٦ .

(٢) ت . ا . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص ٩ .

(٣) الدكتور أحمد شلبي) اليهودية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م ص ١٠٥ ، ١٠٦

ص ٥٩٢ — ٥٩٥ ، ويقول المترجمان ، فى الهامش : « اعتمدنا الترجمة الواردة فى كتاب « الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين » (المجموعة الأولى ١٩١٥ م — ١٩٤٦م) ص ٢٧٦ .

وفيها التزلم المملكة العربية الحجازية بتمثيل فيصل بن حسين والقائم بالعمل نيابة عنها للمنظمة الصهيونية بتمثيل حاييم وايزمن والقائم بالعمل نيابة عنها باتخاذ جميع الإجراءات التى من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ م . واتخاذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع وبأقصى مايمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة

وإحالة كل نزاع قد يثار بين الفريقين إلى الحكومة البريطانية للتحكيم . ووقع فى لندن ، انجلترا .

وفاء الحلفاء :

بعد أن انتصرت انجلترا وحليفاتها وحصلت على مساعدة الجيش العربى العظيمة بإبطال الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله أو عدم الاستجابة لها أولا وبقطع مواصلات العثمانيين قبل القتال ومعاونتها فى أثناء الزحف على دمشق ، والمرابطة على الطريق الذى تقهقر منه الجيش العثمانى شمال درعا نخال دون فرار جانب منه وإنزال الخسائر الفادحة بالدولة العثمانية ، كما هو تقرير الجنرال اللنبى الأخير النهائى الذى رفعه إلى وزارة الحربية البريطانيه فى أكتوبر ١٩١٨ م(١) بعد أن حصل الحلفاء على هذا أسفرت

---

(١) انظر : عبد الله التل ، خطر اليهودية ، ص ٢٣٨ .

الحقيقة عن عداوتهم التى ألبسوها ثياب الصداقة وأردية الوفاء ، وإذا حقيقتهم أعداء يمكرون ومستعمرون طامعون ، فقد نبذت بريطانيا العظمى الشريف حسين بعد أن استوفت فائدته واستغلت مكانته ومقامه فى هدم الخلافة وتخذيل المسلمين عن الجهاد رغم ما كانت تضفيه عليه من ألقاب الفخار وصفات المجد ، ورغم ظهورها له بمظهر المشفق الناصح المخلص ، كما تدل عليه مراسلات مكماهون له ، وهذه افتتاحية الرسالة الثانية من مكماهون إليه فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ هـ

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى فرع الدولة المحمدية وسلالة النسل النبوى الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع الأمير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العلياء جعله الله حرزاً منيعاً للإسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن على أعلى الله مقامه » . . . الخ [1] .

وهذا الأسلوب المضحك يذكرنا بما يهجه الماسونيون فى حالة اصطيادهم وحالة تمام الاصطياد ، وقد رسمه حكماء صهيون السفهاء فى بروتوكولاتهم فى البروتوكول الخامس عشر ما نصه :

« والأمميون يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان ونحن نوزعها جزافا بلا تحفظ . . . لكى نوجه لخدمة مصالحنا من تتملكهم مشاعر الغرور ، ومن يتشربون أفكارنا عن غفلة واثقين بصدق عصمتهم الشخصية ، وأنهم وحدهم أصحاب الآراء وأنهم غير خاضعين

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية ، الملحق (أ) ص ٥٥٥ .

فيما يرون لتأثير الآخرين . وأنتم لاتتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه ، وكيف يسهل — من ناحية أخرى — أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له . . »(١)

لقد لقي حسين من بريطانيا العظمى تهليلات النجاح واستقلال بلاد العرب تحت خلافته على المسلمين فلما أنجزت به مرادها أصدرت وعد بلفور بمنح اليهود فلسطين سنة (١٩١٧ م) بل حققته بالقوة ، ووقعت قبل ذلك بعد وعدها لحسين اتفاقية سايكس — بيكو بينها وبين فرنسا لاقتسام بلاد العرب .

وكانت بريطانيا العظمى أقدر الدول الاستعمارية على تنفيذ تقرير بترمان رئيس وزرائها (١٩٠٧ م) ، وظهرت بريطانيا العظمى أقوى سند للصهيونية حتى أن الصهيونية وسيلة الوصول إلى رئاسة وزرائها، يقول وليام غاى كار :

« بعد عام ١٩٥٤ م . . . أعلن رئيس الوزراء تشرشل (خلال اجتماعه ببرنارد باروخ) وصرح قائلا : « أنا صهيوني وقد عملت من أجل تقدم الصهيونية »(٢) .

وبذلت بريطانيا ومثيلاتها من دول استعمارية كثيراً في بث أفكار الفرقة والتناحر بين العرب وبين أنفسهم وقد كانوا بالأمس حلفاء فإذا هم دعاة إلى الوثنية الجاهلية باسم الاهتمام بالآثار وتعظيمها وبعث التراث .

---

(١) محمد خليفة التونسي ، الخطر اليهودي ، الطبعة الخامسة ، ص ١٥٣ .
(٢) وليام غاى كار ، أحجار على رقعة الشطرنج ، هامش ص ٢٢٣ .

وعن طريق المستشرقين وعلماء الآثار والمبشرين وغيرهم تحشد الجهود لبعث الدوارس الجاهلية ونبش القبور وحفر المدافن تنقيبا عن الفوارق فى العادات واللغات والأوطان والأجناس بغية تعميق الإحساس وتضخيمه بالفوارق الشخصية حتى يطغى هذا الإحساس إلى حد التفريق بين المتماثلات والتسوية بين المختلفات من غير اعتدال فى كتاب : التبشير والاستعمار للدكتورين : مصطفى خالدى وعمر فروخ وفى آخر الفصل السابع منه قالا :

« عمدوا فى كل بلد إلى أقلية غير مسلمة فى الأكثر وحاولوا أن يضموا إليها أحياناً نفراً بارزاً من المسلمين . . . ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية جديدة .

لقد أرادوا أن يبعثوا « الفرعونية » من خلال حجارة الأهرام فى مصر ، و « الفينيقية » من خرائب الساحل الممتد من يافا إلى اللاذقية على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . . . »(١)

ويقول الدكتور محمد محمد حسين بعد أن ذكر اهتمام الأمريكيين ببحث الآثار الجاهلية وإنشاء المتاحف الوطنية :

« هذا الاهتمام الشديد بالآثار يذكرنا بالنشاط المفاجىء لبعوث الآثار الأجنبية عقب الحرب العالمية الأولى ، وما صاحب هذا النشاط من عرض روكفلر المغرى المريب ، فقد أعلن هذا الثرى الأمريكى وقتذاك تبرعه بعشرة ملايين دولار لإنشاء متحف للآثار الفرعونية يلحق

---

(١) ص ١٧٤ .

به معهد لتخريج المتخصصين فى هذا الفن ، ويذكرنا هذا الاهتمام الأمريكى الجديد أيضاً بالمادة (٢١) من صك انتداب بريطانيا على فلسطين عقب الحرب العالمية الأولى ، وهو الصك الذى أصدرته العصابة التى كانت تسمى وقتذاك بعصبة الأمم .

« تنص المادة الحادية والعشرون منه على « أن تضع الدولة المنتدبة وتنفذ فى السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصا بالآثار والعاديات »(١) .

هكذا تعمل الصهيونية بعد استفادتها من الدعوة إلى القومية العربية وانتهاء الغرض منها تركلها بكل قواها وتبذل كل جهدها لمنع الاتحاد ولو على أساسها رغم علمها بماهيتها . حتى إذا عاد العرب إلى ذكر الإسلام سرعان ما ينفخ الصهاينة فى العروبة ويذكوا روح القومية العربية يقول مؤلفا التبشير والاستعمار :

« لقد أريد من العروبة أن تكون رابطة قومية مناقضة للإسلام ، سياسة العروبة لاصلة لها بالإسلام ، والمسلمون من غير العرب لاصلة لهم بالعروبة »(٢) .

ولا يزال الصهاينة يوقدون حرب الإسلام بالعرب ونسبهم القومى

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها ، (فى أوكار الهدامين) ، ص ٣٣ ، ٣٤ وما قبلها

(٢) ص ١٧٥ ، وتتمة قولهما : « ومما يؤسف له أن نفراً من الشبان العرب قد اعتنقوا فكرة العروبة المجردة من الإسلام ، ثم أخذوا وهم يدعون للعروبة يقاومون الحركات الإسلامية » .

يقول الأستاذ ماجد كيلانى فى كتابه : « الخطر اليهودى على العالم الإسلامى » .

« فى الشهر الأخير لعام ١٩٦٧ م عند ما كان أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل يحضر جلسات الأمم المتحدة التى تناقش العدوان الصهيونى ، ألقى هذا الصهيونى الأفاك محاضرة فى جامعة برنستون الأمريكية ومما قاله فيها : « يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرف على نسبه الإسلامى بعد الهزيمة . وفى ذلك الخطر الحقيقى على إسرائيل ، ولذا كان من أول واجباتنا أن نبقى العرب على يقين راسخ بنسبهم القومى لاالإسلامى »(١).

ويتابع الأستاذ كيلانى بيانه عن خوف الصهيونية الحق من الإسلام فيقول :

« وقد كتبت جريدة الديلى تلغراف الصادرة فى ١٩٦٧/١١/١٤ م . « أن الأمر الذى يخشاه مؤيدوا الحكومة المصرية والثوريون المتطرفون على السواء هو محاولة إحياء جماعة الإخوان المسلمين المتعصبة نظراً لأنها ستخلق رداً عاطفياً إسلامياً ضد الصهيونية »(٢) .

لاشك أن اليهود حاربوا الإسلام فكرياً بالقومية . . . فى الشعوب الإسلامية ، لتتفرق ، فتكون شيعا يذيق بعضها بأس بعض ، وفى العرب خاصة ليحاربوا عزهم ومبرر نصرهم .

وكما فعل اليهود فعل النصارى فقد تضافرت جهود الغرب الصليبية مع سائر الصليبيين على ذلك خدمة للصهيونية التى اشتبكت بمصالحهم الاستعمارية

---

(١) ص ٣٢٨

(٢) نفس الصفحة .

واستحوذت على وجودهم الصليبى ؛ وللمبشرين جهود عاونت الاستعمار الغربى أيما عون فى بعث القومية العربية ، وفى الفصل التالى وهو دور النصارى بيان عن جهود الأرساليات التبشيرية المتواصلة ومعاهدها وكلياتها وما بذلت من أموال وتضحيات ،وما اعتمدت عليه من المغالطات والتغريرات لترويج فكرة القومية العربية وتخريج أفواج القوميين العرب، وإنشاء الجمعيات السرية والعلنية والتوسل بالماسونية لتنفيذ الفكرة القومية العربية فى الحياة بعد إخراجها عن الإسلام الطوعى ، لتحل القومية فى الحياة بدلا من الإسلام .

الفصل الثالث

دور النصارى فى نشوء الفكرة القومية العربية وأهدافهم

فى مطلع هذا الفصل أثبت وثيقة لتمهد له بما نعرفه منها وهو مدى ماوصلت إليه مشاعر الأمم النصرانية منذ القدم نحو العثمانيين فى حالة عزهم بالإسلام، وأنهم يسمونهم بالأتراك نفورا من صبغة الإسلام، ولما يحصل من إيحاء ظهر أثره فى نفوس معتنق القومية حين تاهوا بها وأوهموا أنها سر شجاعتهم وسيادتهم، ومن هذه الوثيقة نقبين سر هوى النصارى فى بث فكرة الانفصال عن العثمانيين بالولاء القومى لا الإسلامى، وخاصة فى العرب.

يقول زين نور الدين زين :

« كان لاحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م، وما تلاه من توسع فى الفتوحات العثمانية المذهلة فى أوربا . وفى منطقة الشرق الأدنى، فى أثناء النصف الثانى من القرن الخامس عشر والربع الأول من القرن السادس عشر وقع عميق فى كل العالم المسيحى . . . البابا ومجمع الكرادلة، والأمراء المسيحيين، إذ ظهر هول الخطر الذى كان يتهددهم . ولذا تتالى عقد المؤتمرات فى روما لبحث الخطر . . . ولاقتراح « القيام بعمل ما » .

« فى ١٦ نيسان ١٥٢٣ م بعث شارل الخامس إلى سفيره فى انكلترا برسالة يقول فيها : « نبعث إليك بكتاب اعتماد خاص مرسل إلى هنرى

وولن ترفعه إليهما أولا . . . وعليك أن توضح للملك وللكاردينال مبلغ الخطر الذى يتعرض له العالم المسيحى والذى نشأ عن سقوط جزيرة رودس بيد الأتراك . ونكاد نعتقد أن الأتراك سينوون مهاجمة العالم المسيحى هذه السنة وستكون أرض المعركة إما فى إيطاليا أو فى هنغاريا أو فى البلدين معا وفى الوقت ذاته . ومن الراجح لدينا أن ضربتهم ستكون موجهة ضد إيطاليا ، وسينقضون علينا وعلى مملكتنا من ناحية نابولى وصقلية ، وبالتالى سيهاجمون ممتلكات الكنيسة وأمارات الحكام المسيحيين ولكن أنى هاجم الأتراك فى العالم المسيحى فإن ذلك من شأنه أن يعرض كرامتنا بصفتنا إمبراطوراً وحامياً للكنيسة ، إلى الامتهان كما أنه يعرض كرامة أخينا حامى الأيمان إذا نحن تغاضينا عن مثل هذا التعدى فى حياتنا وإذا سمحنا للعدو بأن يقوم بمثل هذا العمل العدائى فإنه سيكون بمثابة وصمة عار تلحق بنا إلى الأبد ، هذا فضلا عما سنتعرض إليه من بؤس وشقاء

أما من جهتنا فإننا نتردد كثيراً فى أمر إيقاف الحرب التى أعددنا لها ضد فرنسا ، ولكن الآن ، وبالنظر إلى الضرورة القصوى للوقوف فى وجه الأتراك . ذلك الخطر الذى نشعر بأن مسؤوليته تقع على عاتقنا ، فإننا سنسأل الفرنسيين إذا كانوا يرون رأينا فى أن الحكمة تقضى الآن بعقد هدنة لمدة سنوات عديدة .

أما فيما يتعلق بعقد هذه الهدنة فيجب إعداد معاهدة . إذا كان الأمر ميسوراً ، للدفاع عن القسطنطينية ضد هجمات الأتراك[1]

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ١٤ .

البداية :

تبدأ فكرة القومية العربية ببداية فترة المدارس التبشيرية والجمعيات الأدبية والعلمية النصرانية سنة (١٨٣٤ م) إلى سنة (١٨٦٨ م) على أيدى النصارى ، ونصارى العرب هم أول من حمل فكرة القومية العربية ونشرها لمصلحتهم ، ولغبن المسلمين ومضرتهم . وينصف من استشهد على القوم بشاهد منهم ، وهذا جورج أنطونيوس ، ولد فى لبنان (١٨٩٢م) وتخرج من جامعة كمبردج بانجلترة وعمل فى بلدية الاسكندرية وانتقل إلى فلسطين والتحق بدائرة المعارف ، وتوصل إلى منصب مساعد مديرها العام ، أسهم بعد تركه العمل الحكومى فى خدمة القضايا العربية وفى الدفاع عن القضية الفلسطينية كتابة وتأليفا واشتراكا فى المؤتمرات والمباحثات التى كانت تعقد آنذاك — هذا على حد التعريف به المرسوم على صفحة ٧ من مؤلفه الذى نعتمد شهادته منه وهو كتاب : « يقظة العرب . تاريخ حركة العرب القومية » قدم له الدكتور : نبيه أمين فارس وترجمه الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس ، وطبع بدار العلم للملايين الطبعة الثانية ، ونشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت — نيويورك ١٩٦٦ م ، وفيه أن جورج أنطونيوس توفى فى القدس سنة ١٩٤٢ م

ومما يذكر أنطونيوس فى مقدمته : أنه فحص مصادر موضوعه جميعها سنوات عدة قضاها فى البحث فى المكتبات الأوروبية والأمريكية ، وبذل جهداً كبيراً فى الرحلة والتقصى الشخصى فى البلاد العربية . وعنى عناية خاصة بالحصول على معلومات من الأشخاص الذين كانوا ذوى دور عملى فى توجيه الحركة أو بعض حوادثها البارزة(١) .

---

(١) ص ٦٨

يقول جورج أنطونيوس عن بداية حركة القومية العربية مانصه :

« بدأت قصة الحركة القومية للعرب فى بلاد الشام سنة ١٨٤٧ م بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء فى بيروت ، فى ظل رعاية أمريكية »[١] .

وهذه الحركة القومية هى نتيجة من نتائج البعثات التبشيرية الغربية ، التى يرجع وجودها فى بلاد الشام إلى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى[٢] والتى فتح لها الباب تسوية إبراهيم باشا ١٨٣٣ م بين النصارى والمسلمين وإلغائه جميع ما كان يسرى على النصارى وحدهم ولكنه بعمله هذا نفر المسلمين عنه وأتاح لهم عوامل جديدة للثورة عليه[٣] .

ويقول جورج مانصه : « كان من نتائج التسامح الذى تميز به حكم إبراهيم نتيجة لم تخطر على البال من قبل : فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية ، وبذلك أتاح العمل لقوتين : أحدهما فرنسية والأخرى أمريكية ، قدر لهما أن تحضنا البعث العربى وترعياه »[٤] .

« وقد بلغت العوائق التى اعترضت طريق البعثات التبشيرية الأجنبية قبل الفتح المصرى ، (بقيادة إبراهيم) لبلاد الشام مبلغا — إن لم يعطل جهودها تعطيلا كاملا — فقد حصرها فى أضيق نطاق » .

« فلما جاء إبراهيم ، أحدثت سياسته فى الحكم كثيراً من التغييرات فتح المجال بذلك أمام البعثات التبشيرية الأجنبية . فتقاطر المبشرون على

---

(١) ص ٧١ .
(٢) ص ٩٧ .
(٣) ص ٨٨ ، ٩٥ .
(٤) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٩٧ .

بيروت ومنها انطلقوا إلى جميع أنحاء الشام وكانت سنة ١٨٣٤ م سنة تحول، ففيها عاد اليسوعيون، ووصل وافدون جدد من الأمريكان لينضموا إلى الفئة القليلة التى سبقتهم، وبدأ التنافس على النفوذ والغلبة . . . »[١].

التعليم التبشيرى :

يقول جورج عن المبشرين الأمريكان : « وكان لجهودهم أينع الثمرات . . .

« وأدركوا ما كانت تحتاج إليه البلاد، قبل كل شىء هو نظام تعليمى يلائم تراثها . . .

« وكان أولى الأمور بالتقديم تأليف كتب العربيه وكتب مدرسية مختصرة، فعزم إيلى سميث وزملاؤه على أن يتولوا ذلك، وانكبوا على تعلم اللغة العربية خلال الزمن الذى استغرقه نقل مطبعتهم من مالطة إلى بيروت . ولم يدم سوى سنوات قليلة حتى استطاعوا أن يسدوا بما طبعوا من كتب حاجة المدارس التى أنشأوها ؛ بل لقد زودوا المدارس الأخرى بهذه الكتب .

« أصبحت المطبعة الأمريكية . . . تستطيع أن تقوم بأعباء مشروعات واسعة فى الطباعة العربية وخاصة إخراج الترجمة الجديدة للتوراة » .

« واستثمر المبشرون الأمريكان جهود اثنين من العلماء هما : ناصيف اليازجى وبطرس البستانى فعهدوا إليهما بتأليف كتب مدرسية مختصرة فى

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩

شتى الموضوعات ، وما كاد يتم تأليف هذه الكتب وإقرارها حتى طبعوها في مؤسستهم ووزعوها على جميع أنحاء البلاد[١] .

« وفى الوقت نفسه كان المبشرون جادين فى افتتاح المدارس فى أنحاء متعددة من بلاد الشام وكانت أولى منشآتهم فى بيروت والقدس وجبل لبنان . . .

« وبعد أن حلوا مشكلة الكتب المدرسية ، اعترضتهم مشكلة أخرى هى تخريج المعلمين المؤهلين فوجدوا لها حلا فى تحويل المدرسة العالية التى أسسوها فى بلدة عبية بجبل لبنان إلى كلية لاعداد المعلمين وتدريبهم . وما أن وافت سنة ١٨٦٠ م حتى كانوا قد أسسوا ثلاثا وثلاثين مدرسة تضم نحو ألف تلميذ ، خمسهم تقريباً من البنات . وتوجوا أعمالهم فى ميدان التربية والتعليم بإنشاء الكلية البروتستانتية السورية فى بيروت سنة ١٨٦٦ م[٢] .

« وما أن حملوا عبء التدريس بها حتى أخذوا على عاتقهم واجب إصدار الكتب الملائمة . وكانوا فى هذه الرواد الأوائل .

وبذلك كان لجهودهم أكبر الفضل فيما تميزت به الحركات الأولى النهضة العربية من جيشان فكرى .

« ولم تكن البعثات التبشيرية الكاثوليكية أقل نشاطا من منافستها البعثات المشيخية »[٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

« وكان اليسوعيون أكثر هذه البعثات التبشيرية الكاثوليكية الأجنبية الأخرى . ففضلا عن اللعازريين الذين أعادوا افتتاح كليتهم فى عين طوره وأنشأوا مدرسة فى دمشق أسست راهبات المحبة ، والمنظمات الدينية الأخرى مدارس للبنات وصغار البنين فى بيروت وبعلبك ودمشق وفى مناطق متعددة من جبل لبنان[١] » .

وأنقل عن الدكتور زين نور الدين زين وهو أستاذ مَرْضِيّ لتاريخ الشرق الأدنى الحديث . فى الجامعة الأمريكية ببيروت من كتابه : نشوء القومية العربية ، نبذة صغيرة عن المناهج التى كانت تتبعها الإرساليات التبشيرية فيها وفى مدارسها وقد أثبت ذلك كما يقول من برنامج الكلية السورية الانجيلية فى مكتب التسجيل فى الجامعة الأمريكية يقول :

« فالتركيز الأول فى المناهج كان على اللغة والأدب والرياضيات . . .

« وطبيعى أيضاً أن يكون هناك تعليم دينى (نصرانى) إلى جانب هذه المواضيع . ومثال على ذلك منهاج الكلية السورية الإنجيلية فى سنتها الأولى ١٨٦٦ م — ١٨٦٧ م ، فهو يشمل تدريس اللغات ، ومنها العربية والإنكليزية . . . وتاريخ العرب القديم ، وتاريخ الديانات والتوراة[٢] .

ويقول زين : « وكانت أسئلة التاريخ فى الامتحان للسنة الرابعة على هذا النمط :

من هم الهكسوس ؟ (دولة الرعاة) ومتى احتلوا مصر ؟ (يعنى الفراعنة) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٨

(٢) زين . . ، القومية العربية ، ص ٥٣ .

« ماهى الأدلة على أن بلاد بابل كانت أقدم بلد عمره الإنسان ؟ كيف نشأت دولة آشور ؟ وكم من الزمن دام حكمها ؟»[١] .

ولقد آتى هذا التعليم التبشيرى ثمرته فى تخريج القوميين العرب ، جاء فى جريدة الديار ، ١٠ تموز ١٩٤٩ م السنة الثامنة ، العدد ١٩١١ . مقال افتتاحى عنوانه « فضل الجامعة الأمريكية علينا » ، « . . . أن طلبة الجامعة ليفتخرون بمعهد أيقظ فيهم روح العزة العربية وجميع أبناء البلاد العربية فى حظيرة هذه القومية .

« إن مليون حجة تبنى على قومية محلية لاتقنع سورياً أوعراقياً بفساد نظرية القومية السورية ، بل الإقناع يأتى من التطلع إلى قومية واسعة ناسخة . هى القومية العربية . أن هذه المهمة يتبرع بها طلاب الجامعة الأمريكية ، وهم رسل القومية العربية فى أنحاء الشرق العربى ، وحملة أعلام التحرر والاستقلال »[٢] .

ويقول الدكتور على جريشة : « يشير معرب كتاب لعبة الأمم إلى أن تسعين بالمائة من قادة حركة القومية العربية الأقحاح هم من خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت .

« ويشير نفس المؤلف (مايلز كوبلاند) إلى أسماء زعماء القومية وكلهم

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٢) نقلا عن : الدكتورين مصطفى خالدى وعمر فروخ من مؤلفهما : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، عرض لجهود المبشرين التى ترمى إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربى ، ص ٩٢ .

من المسيحيين »(١) .

مبتدعا الدعوة إلى فكرة القومية فى العرب :

يحدثنا جورج أنطونيوس عن العربيين النصرانيين اللذين استثمر جهودهما المبشرون الأمريكان وآزروهما حتى أمسكا بأيديهما زمام الحياة الفكرية فى ذلك العصر فى لبنان فيقول :

« كان ناصيف اليازجى أسن الرجلين ولد سنة (١٨٠٠ م) فى قرية صغيرة بجبل لبنان من أسرة لبنانية . .

« وقد شحذت عزيمته الدروس التى تلقاها عن كاهن القرية . .

« وقد مكنه ارتياده المكتبات من الوصول إلى أعماق الأدب العربى القديم . . .

« وقد أيقظ جمال هذا الأدب الدفين الوجدان العربى فى نفسه ، فهام به وكأنه مسحور ، وأصبح الرسول الداعى إلى بعثه وإحيائه .

« وكان من الطبيعى أن يتجه إليه الأمريكان يطلبون منه العون على إصدار كتب فى علوم اللغة العربية التى يعرفها ...

« ولم يكل قط عن إحياء دعوته إلى إحياء الأدب القديم . حتى نجح فى إقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيدة للنجاة .

---

(١) الدكتور على جريشة ، « الأساليب التبشيرية فى العصر الحديث » ، من بحوث المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوه وإعداد الدعاة المنعقد فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ٢٤ — ٢٩ / ٢ / ١٣٩٧ هـ ، المجلد الخامس ص ١١ ، ١٧ الهامش .

وكانت طرافة دعوته وجدتها تثير ان انتباه الناس لأنه كان يتجه بها إلى العرب على اختلاف عقيدتهم : النصارى والمسلمين جميعاً ، وكان يهيب بهم . . . أن يتذكروا تراثهم المشترك وأن يشيدوا على أسسه مستقبلا يجمعهم إخواناً متآلفين . ونشأ أطفاله الاثنى عشر بنين وبنات ، على هذه الآراء ، وأعداهم بحماسته ، حتى بلغ من تأثر أحد أبنائه بتعاليم أبيه . . أن أصبح فيما بعد أول من نادى بالتحرر القومى للعرب »(١) .

« وكان الرجل العظيم الثانى بطرس البستانى . ولد سنة (١٨١٩ م) وكان أيضاً عربياً نصرانياً من جبل لبنان . .

« وتعلم لغات أخرى غير العربية ، التحق وهو ابن عشر سنوات بكلية الدير فى قرية عين ورقة . . . وتفوق . . . فاختاره الرهبان ليوفدوه إلى الكلية المارونية فى روما على نفقتهم (لكن لم يذهب من أجل أمه) وشرع فى احتراف التدريس . . . وحين ذهب إلى بيروت سنة ١٨٤٠ م تعرف بإيلى سميث وبأمريكى آخر جاء إلى بلاد الشام مبشراً وطبيباً ، وهو الدكتور نيلوس فان دايك . . .

« وقد نمت هذه المعرفة بينهم ولم تقتصر على الصداقة وحدها بل تعدتها إلى الامتزاج الروحى فاعتنق البستانى المذهب المشيخى . . . ومنذ ذلك الحين ارتبطت جهوده بجهود البعثة التبشيرية ارتباطاً وثيقاً وفتح أمامه مجال عمل واسع للعمل . وقبل منصب مدرس اللغة العربية فى دار المعلمين بقرية عبية ، وألف كتبا لتستعمل فى المدارس . وحين طلب إليه أن يساعد إيلى سميث فى ترجمة التوراة ، تعلم العبرية والآرامية واليونانية

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ١٠٩ حتى ١١٢ .

القديمة . . . وفى السنوات الأولى من تعاونه مع الأمريكان كان يعلم فى كلياتهم . . . ويؤلف كتبا مختصرة لتستعمل فى المدارس وكان يلقى المحاضرات والمواعظ فى الجمعية الأدبية التى حث الأمريكان على إنشائها كما كان يكتب لهذه الجمعية النشرات . ثم بدأ تعاونه مع إيلى سميث على ترجمة التوراة . . . وكان شغله الشاغل مدى عشر سنوات تقريباً وما كاد يتمها حتى بدأ يعمل فى الأثر الأول من أثريه . . . وهو تأليف معجم للغة العربية صدر فى سنة ١٨٧٠ م . . واختصره بعنوان :

« قطر المحيط . .

« وكان أثره العظيم الثانى دائرة معارف عربية . . . وظهر منها حتى وفاته سنة ١٨٨٣ م ستة أجزاء . . .

« كان يصرف فيض نشاطه فى أعمال أخرى يدفعه إليها حبه لبلاده . فقد كان من آثار فتنة سنة ١٨٦٠ م وما صاحبها من مذابح وحشية قتل فيها النصارى فى دمشق وجبل لبنان . فسعى البستانى إلى تخفيف حدتها بإصدار صحيفة أسبوعية صغيرة فى بيروت فى تلك السنة ، بعنوان « نفير سورية » .

وقد وقفت معظم جهدها على الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة وإلى الاتحاد والتعاون فى طلب المعرفة، لأن المعرفة تؤدى إلى الاستنارة العقلية ، والاستنارة العقلية تؤدى إلى القضاء على التعصب وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينين ، وربما بدا لنا هذا الكلام الآن تافها لا جد فيه . ولكن بلاد الشام لم تكن سمعت به من قبل وكان يشتمل فى طياته على نواة الفكرة القومية .

« وسار خطوات أخرى فى هذا السبيل لتحقيق فكرته فأنشأ بعد ثلاث سنوات مدرسة سماها « المدرسة الوطنية » وأسعفه الحظ بتعيين ناصيف اليازجى مدرساً أول للغة العربية فيها وذاعت شهرة المدرسة بسرعة ، وجذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام ، كان من بينهم من قدم بعد ذلك أعمالا جليلة لبلاده

« وفى سنة ١٨٧٠ م — بعد صدور معجمه الكبير — أنشأ « الجنان » وهى صحيفة سياسية أدبية تصدر كل أسبوعين وكانت الغاية منها كذلك محاربة التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن . وكان شعار الصحيفة « حب الوطن من الإيمان » وهو شعور لم يكن يعرفه العالم العربى حتى ذلك الزمن . وكان يحرص على أن يبرز هـــذا الشعار على الصفحة الأولى مع العنوان فى كل عدد . واستمرت . . خلال المدة التى بقيت من عمره . وكان يشارك فى الكتابة فيها عدد من الكتاب من البلاد العربية المجاورة ومن بلاد الشام نفسها . وكانت قيمتها الحقيقية فى أنها كانت تعنى عناية خاصة بعرض الآراء التى كان يدعو إليها مؤسسها وأنها كانت حافزاً قوياً وجه الأفكار إلى التسامح الدينى والنظرة الواسعة إلى الأمور »(١) .

ويوافق جورج أنطونيوس فى حديثه هذا عن البستانى وجهوده ومن معه لبعث القومية العربية والدعوة إلى محبة الوطن من دون الله ألبرت حورانى فى كتابه الفكر العربى فى عصر النهضة ، فانظر الصفحات ١٢٧ — ١٣٠ ، ٣٢٧ ، وكذلك برنارد لويس فى كتابه : الغرب والشرق الأوسط ، تعريب الدكتور نبيل صبحى يؤيدهما فانظر صفحة ١٢١ .

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ١١٢ حتى ص ١١٥ .

الجمعيات العلمية النصرانية :

يقول جورج أنطونيوس : « اتفق اليازجى والبستانى — خلال السنوات الأولى من ارتباطهما مع البعثة التبشيرية الأمريكية فى العمل — على أن يقترحا إنشاء جمعية علمية ...

« قدما اقتراحهما إلى أصدقائهما الجدد فى شىء من الإلحاح ، وأقنعاهم سنة ١٨٤٢ م ، بتعيين لجنة لتنفيذ الاقتراح .

ولقد حقق المشروع غايته فى كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٤٧ م فأنشئت الجمعية العلمية فى بيروت باسم « جمعية الآداب والعلوم »

وكان من أعضائها اليازجى والبستانى ، وكذلك إيلى سميث وكورنيلوس فان دايك ، وعدة أعضاء آخرين من الأمريكان ، وانتسب إليها رجل إنجليزى كان يقيم فى بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل المشهور ولم يمض عامان على تأسيسها حتى بلغ أعضاؤها خمسين عضواً أكثرهم من النصارى السوريين المقيمين فى بيروت . ولم يكن فيها عضو مسلم أو درزى وكانت لها مكتبة صغيرة ولكنها كبيرة النفع ، وكان اليازجى هو القيم عليها وكان البستانى سكرتير الجمعية :

وكانت الاجتماعات تعقد مرة كل أسبوعين . ثم أصبحت الاجتماعات تقل مع الزمن ، وكان يلقى أحد الأعضاء بحثاً فى كل اجتماع واستمرت الجمعية مدة خمس سنوات ، وأصدرت فى عامها الأخير كتاباً من أعمالها حرره البستانى . . وكان الكتاب يتضمن عرضاً شاملا لما قامت به من أعمالها ، وتلخيصاً موجزاً لكل بحث ألقى فى اجتماعاتها كانت هذه الجمعية الأولى من نوعها فى بلاد الشام . فى أية بقعة أخرى من العالم العربى » .

« هذه الجمعية الجديدة كانت بدعة . فتألفت على غرارها جمعيات اخرى كان لها دور مهم فى نمو الحركة العربية القومية . والحقيقة أن أول صوت لهذه الحركة الوليد تصدر من إحدى الجمعيات الأولى التى انبثقت عن الجمعية التى دعا إلى تأسيسها اليازجي والبستانى .

« كان اليسوعيون أول من احتذى المثال الذى وضعه الأمريكان . فأسسوا فى سنة ١٨٥٠ م « الجمعية الشرقية » على الأسس نفسها ، وكان الروح المحرك لها هو الأب النشيط « دوبرونيير » — يسوعى فرنسى ، ولد سنة ١٨٢١ م . وصل بيروت سنة ١٨٤٩ م وبدأ فور وصوله بتعلم اللغة العربية . وقد أكسبه اطلاعه الواسع ونشاطه المتوثب نفوذاً كبيراً فى الشام وتبوأ منزلة رفيعة — .

« وآخر الجمعيات التى سنتحدث عنها فى هذا الفصل جمعية أنشئت سنة ١٨٥٧ م بعد أن حلت الجمعيتان السابقتان . وهى أكبر من سابقتيها وتختلف عنهما فى أمرين :

أن جميع أعضائها كانوا من العرب، وأن المسلمين والدروز اشتركوا فيها مع النصارى .

وهذان الأمران يدلان على تغير أكبر فى حقيقته مما يبدو لأول وهلة . فحيما تألفت الجمعيتان كانت العداوات الدينية هى السائدة . ولذلك وقف المسلمون والدروز بمعزل عنهما . وكانت رعاية المبشرين لهاتين الجمعيتين منذ إنشائهما من العوامل التى زادت فى نفور العناصر غير المسيحية .

ولكن أخذت الآراء تتغير مع مرور الزمن، وأخذ ضباب العداوة المؤذى ينقشع تدريجياً . . ولم تضع سدى حماسة اليازجى فى مناشدته العرب على اختلاف عقيدتهم أن يتحدوا لخدمة لغتهم كما لم يضع سدى إخلاص البستانى فى دعوته إلى تحطيم السدود والفوارق . فتقدم المسلمون ، باقتراح يتضمن موافقتهم على الاشتراك فى تأليف جمعية جديدة تتحد فيها جهود أهل العقائد الدينية جميعها

وهكذا أنشئت « الجمعية العلمية السورية » فى سنة ١٨٥٧م ، وبلغ عدد أعضائها (١٥٠) عضواً ، واشترك فيها زعماء العرب من مختلف العقائد . وكان من أعضاء إدارتها : العالم الدرزى الأمير محمد أرسلان الذى بقى عدة سنوات رئيساً لها وحسين بيهم — وهو عميد أسرة مسلمة ذات نفوذ . ونصارى من جميع الطوائف من بينهم أحد أبناء البستانى ، وكانت غايتها ووسائلها وقانونها وأنظمتها كلها على غرار الجمعية التى أنشئت سنة ١٨٤٧ م . .

« ونالت اعتراف الحكومة بها سنة ١٨٦٨ م ، وفسحت المجال للاشتراك فيها حتى ضمت أعضاء كثيرين بارزين من الذين كانوا يقطنون خارج البلاد ، وخاصة فى القسطنطينية والقاهرة .

وهكذا استطاعت المثل . . المشتركة أن تجمع بين العقائد المتناحرة وتوحدها فى رابطة إيجابية فعالة . تعمل لتحقيق أهداف مشتركة . .

« ومنذ ذلك الحين أصبح الحافز لهم إلى العمل هو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية ، كما أصبح الرابط الذى يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربى .

« إن إنشاء هذه الجمعية هو أول مظهر للوعى الوطنى الجماعى ، وترجع قيمتها الحقيقية فى التاريخ إلى أنها كانت مهد حركة سياسية جديدة .

« يحق لنا أن نقول إن أول صوت ظهر لحركة العرب القومية كان فى اجتماع سرى عقده بعض أعضاء « الجمعية العلمية السورية » .

« وكان أحد الأعضاء ، وهو إبراهيم اليازجى، ابن ناصيف اليازجى... وممن قدر لهم أن ينالوا شهرة أدبية كبيرة — كان قد نظم قصيدة اتخذت صورة النشيد الوطنى .

والقصيدة فى جوهرها ، تحريض للعرب على الثورة : تغنت بأمجاد العرب ، وبمفاخر أدبهم ، وبالمستقبل الذى يستطيعون أن يصنعوه لأنفسهم باستلهام ماضيهم . وأزرت بشرور التفرقة الطائفية ونددت بفساد الحكم الذى وقعت البلاد فريسة له ، مفعمة بالألفاظ التى تلهب الحماسة .

« وكان لها الأثر البالغ فى نفوس الطلاب ، فطبعت عقولهم ، وهم فى سن يسهل فيها التأثر بطابع العزة القومية .

« وهكذا أصبح لها نصيب وافر فى تغذية الحركة القومية وهى فى مبدئها .

« فكانت هذه القصيدة أول نشيد لحركة التحرر السياسى .

لقد كانت الثمرة المباشرة لأول تكتل اتحدت فيه جميع العقائد لإحياء ثقافتهم القديمة .

لقد تحمل ناصيف اليازجى عبء الدعوة إلى ذلك من قبل ، ثم نجح البستانى من بعده فى أن يرى ثمرة الجهود التى بذلها .. طوال حياته »(١)

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ١١٧ حتى ١٢١ .

ويؤيد هذا التاريخ الدكتور نبيه فارس وهو نصرانى أيضاً وأستاذ فى الجامعة الأمريكية فى بيروت فيقول فى مقدمته لكتاب جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، هذا الذى نستشهد منه ما نصه :

« وفى الفصل الثالث يتناول المؤلف (يعنى جورج أنطونيوس) بداية اليقظة العربية الصحيحة التى جاءت إلى حد بعيد نتيجة للحركة الفكرية التى عقبت أعمال الإرساليات التبشيرية فى التربية والتعليم ولاسيما الإرساليات الإنجيلية الأمريكية فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر . ويؤكد المؤلف على نقطة طالما يغفل عنها الكتاب وهى أن أسس اليقظة العربية أدبية وثقافية وهى مرتبطة بهذه الأسس ارتباطاً وثيقاً يعزز وحدة العرب الروحية ويقيها من التفتت والانهيار . فلم يكن من قبيل المصادفة أن يعمل رائدا النهضة العربية الفكرية ناصيف اليازجى وبطرس البستانى مع زملائهما الأمريكيين سنة ١٨٤٧ م على تأسيس أول جمعية فى العالم العربى الحديث هى جمعية الآداب والعلوم ، وأن يعاودا الكرة فى سنة ١٨٥٧ م بعد أن توقفت هذه الجمعية عن العمل على تأسيس جمعية ثانية أكبر عدداً وأوسع نشاطاً هى الجمعية العلمية السورية .

وقد وقف اليازجى الكبير حياته على إحياء العربية والتنقيب عن كنوزها الأدبية الدفينة الفنية . وعمل جاهداً وبنجاح على تنقية اللغة مما قد شابها من عجمة وركاكة ، فأقام بذلك الأساس لمن تبعه من العلماء وأعانهم على الأخذ بأداة الفكر هذه وجعلها لغة طيعة لاستيعاب الآراء الحديثة والتعبير عنها بدقة وجمال . وانصرف البستانى إلى التأليف فوهب اليقظة العربية دون مساعدة تقريباً أول معجم حديث ، وأول موسوعة عربية حديثة ، وأول مجلة حديثة هى مجلة الجنان ، نصف الشهرية ، وجعل شعارها

« حب الوطن من الإيمان » . وقد عمل هذان الرائدان وتلامذتهما فى الجمعية السورية العلمية وخارجها على لأم الجراح التى حلت بالبلاد بسبب من وجود حوادث الستين .

« ودعا البستانى فى جريدته « نفير سورية » التى أسسها بعد تلك الحوادث المؤلمة إلى الألفة بين السكان على اختلاف مذاهبهم . وفى الجمعية السورية نفسها أنشد الشيخ إبراهيم اليازجى قصيدته الميمية المشهورة ومطلعها :

سلام أيها العرب الكرام ... وجاد ربوع قطركم الغمام

ومنها :

وما العرب الكرام سوى نصال ... لهـا فى أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم ... وإن جحدت مآثرنا اللئام

وفى اجتماع سرى لنفر من أعضاء الجمعية نفسها أنشد قصيدته البائية التى سبق ذكرها (فى ص ١١) وذكر مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب)

قال نبيه أمين فارس : « وحث فيها العرب على النهوض وهاجم الأتراك (ومنها) :

الله أكبر ما هذا المنام فقد ... شكاكم المهد واشتاقتكم الترب

فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا
من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

ومنها :

أقداركم فى عيـــون الترك نازلة
وحقكم بين أيدى الترك مغتصب
فيالقومى وما قومى سوى عرب
ولن يضيَّع فيهم ذلك النسب

إلى أن يقول :

سنطلبن بحد السيف مأربنا … فلن يخيب لنا فى جنبه الأرب
ونتركن علوج الترك تندب ما … قد قدمته أياديها وتنتحب
ومن يعش ير والأيام مقبلة … يلوح للمرء فى أحداثها العجب

« وللشيخ إبراهيم اليازجى أيضاً سينية حمل بها على الأتراك ورجال الدين ، سبب التعصب والتنافر بين أبناء البلد الواحد ، فيقول :

دع مجلس الغيد الأوانس … وهوى لواحظها النواعس
وأســل الكؤوس يديرها … رشأ كغصن البان مائس
ودع التنعم بالمطـــاعم … والمشارب والملابس
أين النعـــيم لمن يبيـــت … على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائســـا … أبدا لذيل الترك بائس

ومنها :

ماهم رجـــال الله فيـــكم … بل هم القوم الأبالس

يمشــون بين ظهــوركم تحت الطيالس والأطالس
فى كل يوم بينــكم يلتى التعصب حرب داحس
يلقون بينــكم التبـــا غض والعداوة والوساوس

قال فارس :

« وكان لانتشارهذه القصيدة رنة فى البلاد وتلتها قصائد أخرى تدعو علانية إلى الإصلاح أو الثورة ، منها قصيدة مطلعها :

يا دولة الترك أتركى عنك العناد وباشرى الإصلاحا
أولا فدونك ثورة تفنى الجسوم وتخطف الأرواحا

قال فارس :

« هذا القليل يزكى موقف المؤلف (يعنى جورج أنطونيوس) أن فى استطاعة المؤرخ أن يحدد بداية اليقظة العربية الحديثة فى هذه الفترة — فترة الجمعيات الأدبية والعلمية من سنة ١٨٤٧ م إلى سنة ١٨٦٨ م ويضعف موقف الكتاب الذين انتقدوه زاعمين أنه بالغ فى خطورة هذه الفترة وفى أثرها فى تطور الفكرة القومية العربية .

« ويقول هؤلاء إن العرب لم ينسوا يوماً أنهم عرب ولم « يناموا » البتة حتى يستيقظوا فيقال اليقظة العربية . ويضيف هؤلاء إلى هذا قولهم إن هذه الجمعيات الأدبية والعلمية اقتصرت فى الغالب على النصارى من العرب وأن هذه القصائد الثورية جرت من أقلام غير إسلامية ، ولذلك كان أثرها ضعيفاً ولم تمثل يوماً سواد الشعب ، وأن سواد الشعب هذا لم يفرق يوماً بين العروبة والإسلام وأن القومية العربية برزت إلى حيز الوجود عند ظهور الإسلام بل هى الإسلام نفسه

وأخيراً يحددون بدء الحركة القومية العربية الحديثة فى الفترة التى تلت خلع عبد الحميد الثانى إلى بدء الحرب العالمية الأولى (١٩٠٩ م - ١٩١٤م)، عندما حاول الاتحاديون تتريك الدولة العثمانية وصهر جميع شعوبها فى البوتقة الطورانية .

ثم قال الدكتور نبيه أمين فارس :

« وإذ نقر أن العرب لم ينسوا يوماً أنهم عرب وحافظوا دوما على لغتهم على الرغم مما أصابها من لكنة ورطانة وما لحق تراثها الأدبى حتى كاد أن يدفن فى غياهب النسيان ، ونقر أيضاً أن الداعين إلى البعث العربى فى فكرة الجمعيات الأدبية والعلمية (١٨٤٧م - ١٨٦٨م) كانوا فى الغالب من النصارى وأنهم لم يمثلوا سواد الشعب ، غير أننا مقتنعون بأنه لولا هذه الجمعيات الأدبية ولولا هذه القصائد الثورية لبقيت الفكرة القومية بعيدة عن العرب إلى حد كبير .

« لقد غرس هؤلاء بذرة القومية والوطنية وبعثوا حركة مستوحاة من تاريخ العرب ومآثرهم تستهدف مثلا قومية بدلا من المثل الدينية والطائفية » .

هكذا ابتدأت الحركة القومية العربية الحديثة ، ومن الخطأ أن ننكر الفكرة لأن سواد الشعب لم يعتنقها يوم نادى بها رواد القومية العربية . وسرعان ما حمل لواءها عرب مسلمون سنين قبل ظهور الاتحاديين الاتراك .

« ومن الأدلة على أن القصائد الثورية والخطب الوطنية أذكت الروح القومية وأدت إلى تكتلات منظمة تعبر عن أحلام العرب وخوالجهم القومية تلك الجمعيات التى قامت فى السر والعلانية ، تطالب

بحقوق العرب والحض على النهضة ، ومن أشهرها « جمعية حفظ حقوق الملة العربية » التى تأسست سنة (١٨٨١ م) ونشرت نداء إلى العرب من مسلمين ومسيحيين تدعوهم إلى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية .

ثم ينقل الدكتور نبيه فارس تأثر الكواكبى بدعوة النصارى هذه كمثال فيقول :

« هكذا كان عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٢ - ١٩٠٢ م) . . يخاطب العرب غير المسلمين فيقول : ياقوم وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين . أدعوكم إلى تناسى الإساءات والأحقاد ، وما جناه الآباء والأجداد . فقد كفى مافعل ذلك على أيدى المثيرين وأجلكم من أن لاتهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون . فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطنى دون الدينى ، والوفاق الجنسى دون المذهبى ، والارتباط السياسى دون الإدارى . فما بالنا نحن لانفتكر فى أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها ، فيقول عقلاؤنا لمثيرى الشحناء من الأعاجم : دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفحصاء (هكذا ولعلها الفصحاء) ونتراحم بالإخاء ونتواسى فى الضراء ونتساوى فى السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ، ألا وهى : فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء أعزاء »[١] .

وبما تقدم يتبين لنا أن بداية إيقاظ الفتنة بفكرة القومية العربية

---

(١) الدكتور نبيه أمين فارس ، مقدمة لكتاب : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، تأليف جورج أنطونيوس ، من ص ١١ حتى ١٧ .

عن الإسلام هى كما يقرره جورج أنطونيوس والدكتور نبيه فارس من سنة ١٨٤٧ م إلى سنة ١٨٦٨ م فترة جهاد اليازجى والبستانى مع زملائهم مبشرى الأمريكان وغيرهم، حين أسسوا أول جمعية فى العالم العربى الحديث على أساس المبدأ القومى وهى جمعية الآداب والعلوم التى جمعت بين العرب رغم مايقتضيه الدين من مجانبة الكفر ومفارقة أهله ، ثم تلتها الجمعيات الأخرى التى نسجت على منوالها إلى آخر القصة كما تقدم ، وحينما يشير الدكتور نبيه فارس إلى موقف الكتاب المعارضين يرجع إلى ماقاله زين نور الدين زين فى كتابه نشوء القومية العربية وزين من القائلين بهذه المعارضة ومن الناقدين لتحديد جورج أنطونيوس المتقدم ذكره ، وممن يقول بأنه لافرق بين العروبة والإسلام، « وأن القومية العربية فى طورها التكوينى والتاريخى وفى أطوار نموها ، لايمكن أن تنفصل عن الإسلام » كما فى ص ٩ ، ١٠ ، ٢٢٦ من كتابه المذكور طبعة بيروت ١٨٦٨ م وكما يذكر فارس فى ص ١١٧ عن زين فى كتابه طبعة بيروت ١٩٥٨ م ، أيضاً وضعف حجة منتقدى أنطونيوس على تحديده ظاهر ، فكون العرب لم ينسوا يوماً أنهم عرب لايعنى أنهم لم ينسوا الولاء القومى بالولاء الإسلامى بل إنهم حطموه فى وقعة بدر وأحد والأحزاب ، وحنين وغيرها . حتى مات فلما قامت جمعية اليازجى والبستانى والأمريكان وغيرهم ممن ليسوا من المسلمين أيقظوا روح القومية وبدأوا الفتنة بها عن الإسلام ، وعندما يقول النصارى عن الولاء للقومية بدلا من الولاء الإسلامى أنه يقظة فإنه تعبيرهم عن رغبتهم ووجهة نظرهم ، وجرت العادة بمدح المرغوب ، ولامنازعة للنصارى فى أنهم رواد بعث الولاء للقومية العربية من دون الإسلام والمسلمين ، وفى الواقع أنهم أئمة فى ذلك وقادة ، ولاداعى لغبطتهم والغيرة منهم على ذلك السبق كما يلوح من كتابات قومى العرب من المسلمين،

لأنه لاغبطة فيما عدا الإسلام وإذا قالوا : العزة العربية لنا . نقول : الله مولانا ولا مولى لكم .

وأما ادعاء الدكتور نبيه فارس وسائر النصارى بأن لهم « فضل على اللغة العربية بتنقيتها مما لحقها من لكنة ورطانة ، وما لحق تراثها الأدبي حتى كاد أن يدفن فى غياهب النسيان » فكيف يسلم له بحضور القرآن الكريم المحفوظ بلسان عربي مبين؟ وبجانب السنة المطهرة ، المخدومة بأهل السنة والجماعة إلى قيام الساعة ، وبجانب التراث العربي فى اللغة والأدب والتاريخ المحمول إلينا عبر الأجيال الإسلامية ، وبحملها من جيل إلى جيل عدوهم ، وما نعرف أن النصارى انفردوا بروايته أو كادوا فى أى طبقة من الطبقات ، ولو كان كذلك ، لصح أن يقال : قد اتصل سنده إلينا بالنصارى بعد أن انقطع تسلسله إلينا بالمسلمين ، ويحق أن نقول إن النصارى تفضلوا به علينا بعد أن نسيناه إلى حد دفنه فى غياهب النسيان .

الأفكار الأوربية

اللادينية :

هى مايسمى بالعلمانية ، وهى التربة التى تنمو فيها الفكرة القومية المعاصرة ، ويظهر أنه قد حال دون تغلغل هذه الفكرة فى نفوس العرب من المسلمين وضوح الفكرة الإسلامية لديهم إلى حد عوق مسيرة الفكرة القومية بهم عن دينهم كما يبغى النصارى ، فتطوع أبناء جلدتهم من عرب النصارى عن طريق كتابهم وأموالهم ومغرياتهم ينشئون نشرات وصحفا ومجلات وكتباً باللغة العربية تنقل الأفكار الأوربية الإلحادية ومفاهيمهم الضالة ، وهى مايسمى بالعلمانية ، وينشرونها فى

العرب بشتى وسائل النشر لكى يضللوا العرب فيسهل علوق الفكرة القومية فى قلوبهم وقبولهم لها كما كان فى أوربا ، وفيما يلى أعرض مما كتبه ألبرت حورانى فى كتابه « الفكر العربى فى عصر النهضة » شهادة منه على طائفته النصارى بما عملوا فى هذا الصدد ، يقول ألبرت حورانى :

« وقد نادى بفكرة « مجتمع قومى علمانى » . . . فريق من الكتاب المسيحيين السوريين . . .

« كان الشدياق والبستانى رائدى مدرسة من الكتاب الذين فتح نمو الصحافة الدورية العربية مجالا جديداً لمواهبهم ، ففى السبعينات من القرن التاسع عشر أخذ يظهر بالعربية نوعان جديدان من الصحف : الصحف السياسية المستقلة التى تنشر أخبار السياسات العالمية وتعبر عن الآراء السياسية ، والمجلات التى كانت تتوخى غرضا مزدوجا : هو اطلاع الفكر العربى على أفكار أوربا وأمريكا واختراعاتها ، وعلى كيفية التعبير عنها باللغة العربية ، وكان العدد الأكبر من هذه المجلات الصادرة فى القاهرة أو بيروت يحررها مسيحيون لبنانيون تثقفوا فى المدارس الفرنسية أو الأميركية ، فزودوا القراء طيلة جيل بكامله بمادة للمطالعة الشعبية تكاد تكون الوحيدة فى اللغة العربية آنذاك جاعلين للبنانيين تأثيراً كبيراً .

« كانت المجلة الأولى المهمة من هذا النوع مجلة « الجنان » التى أصدرها بطرس البستانى ، وكتب معظم مقالاتها ابنه سليم .

وقد عاشت مدة ستة عشرة سنة ، من ١٨٧٠ م إلى ١٨٨٦ م حين توقفت عن الصدور لسبب تزايد الصعوبات فى وجه الكتابة الحرة فى عهد السلطان عبد الحميد ، مما حمل عدداً من تلاميذ البستانى على الانتقال من بيروت إلى القاهرة ، يجذبهم إليها أيضاً عدد القراء ، وحرية التعبير

النسبية والرعاية التى شملهم بها أمثال رياض باشا من الحكام والمسئولين ».

وكان أشهر هذه المجلات اللبنانية المصرية « المقتطف » التى أنشئت فى ١٨٧٦ م ، و « الهلال » التى ظهرت لأول مرة فى ١٨٩٢ م .

وكان قد أنشأ الأولى فى بيروت معلمان شابان من أساتذة الكلية البروتستانتية السورية ، هما يعقوب صروف وفارس نمر ، اللذان انتقلا فى ١٨٨٥ م إلى القاهرة ، حيث بقيت المقتطف تصدر طيلة نصف قرن على قاعدة قلما طرأ عليها تغيير جوهرى ، فإذا أخذنا العدد الصادر فى كانون الثانى على سبيل المثال ، لوجدنا أنه يشتمل على مقالات فى الأمراض السارية ، والمكروبات فى الهواء ، والفروق بين الرجال والنساء ، وتحليل فلسفى لمركز الإنسان بين الحيوانات ، ومقال عن الإدارة فى جبل لبنان فى عهد رستم باشا(١) . وملخص لتقرير لجنة أميركية عن أسس التربية ، ومجموعة أقوال فى اليمامة مستقاة من الأدب العربى ، وأخبار صغيرة عن الأساليب الصناعية والزراعية والاكتشافات العلمية .

أما مؤسس الهلال ، فكان جرجى زيدان (١٨٦١ م - ١٩١٤ م) الذى تلقى علومه لفترة فى الكلية البروتستانتية السورية أيضاً ، لكنه لم يتأثر بها إلى الحد الذى تأثر به زملاؤه ، فقد كان ذا تركيب ذهنى مختلف

---

(١) ذكر ألبرت حورانى أن « رستم باشا : أحد الحكام المعينين وفقاً لنظام ١٨٦١ م » للبنان وهو نظام المتصرفية والمتصرفين الذى أصدره الباب العالى بناء على ضغط الدول النصرانية بريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا . وبموجبه فصل لبنان وأصبح يحكمه متصرف مسيحى ، انظر زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٣٦ .

فأعار العلوم الطبيعية فى مجلته اهتماماً أقل ، موجهاً جل عنايته إلى علم الاجتماع وأدب النفس ، والسياسات العالمية والجغرافيا والتاريخ واللغة والأدب وآثار العرب .

وعلى سبيل المثال أيضاً نأخذ العدد الصادر فى شباط ١٩١٣ م فتراه يشتمل على مقالات فى تاريخ لبنان والنظام الاجتماعى ، وفى العمر والشيخوخة ، وفى كيفية معالجة السمنة ، كما تشتمل على وصف زيارة قام بها رئيس التحرير إلى فرنسا وانكلترا وسويسرا ، وعلى فصل من قصته التاريخية عن صلاح الدين والحشاشين .

« قد تبدو المواضيع التى كانت تعالجها هاتان المجلتان عديمة المغزى ، خصوصاً وأنهما كانتا تتحاشيان كل مايتعلق مباشرة بالسياسات المحلية أو بالدين أو بما شأنه أن يثير ضدهما العداء . غيرأن وراء هذه المواضيع ووراء غيرها من هذا النوع كانت تكمن بعض الأفكار المعينة الدائرة حول ماهى الحقيقة وكيفية البحث عنها ، وماعلى جمهور قراء العربية أن يعرفوه وهو أن المدنية خير بحد ذاتها ، وأن ابتكارها وصيانتها إنما هما محك العمل وقاعدة الخلقية ، وأن العلم إنما هو أساس المدنية ، وأن للعلوم الأوربية قيمة عالمية ، وأن بإمكان العقل العربى ومن واجبه تحصيلها بواسطة اللغة العربية ، وأنه بالإمكان أن نستخرج من الاكتشافات العلمية نظاماً للخلقية الاجتماعية التى هى سر القوة الاجتماعية ، وأن أساس هذا النظام الخلقى إنما هو التحسس بالمصلحة العامة ، أى الوطنية التى هى حب الوطن والمواطنين الذى يجب أن يعلو على جميع الروابط الاجتماعية الأخرى حتى الدينية منها . وقد أصبحت مثل هذه الأفكار مألوفة فيما بعد بفضل هاتين المجلتين على الأخص .

« لقد توقف المقتطف آخر الأمر عن الصدور ، لأنه قد أدى مهمته ، بينما استمر الهلال لأنه كان موجها لجمهور مختلف من القراء .

« كانت تلقى هذه الآراء لدى نشرها للمرة الأولى بنبرة رسولية ولم تكن مقبولة فى كل مكان .

« وقد انقضى بعض الوقت قبل أن أخذت عقائدها فى الانتشار .

« كان هناك بعض الكتاب اللبنانيين والسوريين الذين حاولوا صياغة نظرتهم إلى المجتمع بطريقة منظمة . « ولعل أولهم كان فرنسيس مراس (١٨٣٦ م - ١٨٧٣ م) وهو من عائلة حلبية درس الطب فى باريس ....

« كانت أفكار هذا الكاتب هى الأفكار الأوربية المنتشرة فى ذلك الوقت : فوائد السلم ، وأهمية الحرية والمساواة (وفيه استنكار للرق قد يكون انعكاساً لموضوع الحرب الأهلية الأميركية) ، وحاجة العرب قبل كل شىء إلى أمرين : مدارس حديثة وحب للوطن طليق من الاعتبارات الدينية ،

« وتنظيف المدن وإتقان بنائها »[١] .

« ولعل جرجى زيدان كان أكثر الذين عملوا على إحياء وعى العرب لماضيهم ، سواء بتواريخه أو بسلسلة رواياته التاريخية التى نهج فيها نهج الكاتب الانكليزى وولتر سكوت ورسم على غراره لوحة رومنطيقية عن الماضى[٢] .

---

(١) ألبرت حورانى ، الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ — ١٩٣٩ م ، ترجمه إلى العربية كريم عز قول ، ص ٢٩٣ — ٢٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

تطورية داروين :

يقول ألبرت حوراني : « كان من نصيب كاتب من الجيل اللاحق ، مسيحي سوري وطبيب أيضاً أن يكون أول من أدخل تلك النظريات إلى العالم العربي نعني به شبلي الشميل (١٨٥٠ م - ١٩١٧ م) . الذي كان بين المتخرجين الأول من العهد الطبي التابع للكلية البروتستانية السورية . ثم تابع دراسة الطب في باريس قبل أن يستقر في مصر ، حيث مارس مهنته وكتب مراراً وتكراراً في المقتطف ومجلات أخرى من هذا النوع.

« كان العلم يعني عند الشميل النظام الميتافيزيقي الذي بناه هكسلي وسبنسر في انكلترا وهيجل وبوخنر في ألمانيا على فرضيات داروين الحذرة وكان مؤلفه الرئيسي ترجمة « شرح بوخنر» لأفكار داروين مع ملاحظات وإضافات من عنده .

وكان أساس ذلك النظام فكرة وحدة الكائنات لجميع الأشياء تتكون من المادة بحركة عفوية وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد . والأشكال المتكونة ، أي المعادن والنبات والحيوان والإنسان تكون في كل مرحلة أكثر تميزاً بعضها عن بعض وأكثر تعقداً منها في المرحلة التي سبقتها بدون انفصال ، وذلك بفضل قوى ملازمة أصلا للمادة نفسها، تتخذ أشكالا مختلفة باختلاف المستويات بحيث أن مايبدأ نوراً يصبح حركة ثم جاذبية ثم رغبة ثم حباً . والإنسان هو قمة هذا التطور ،والكائن الأول القادر على السيطرة عليه والمساهمة فيه عن وعي ، وذلك بتغيير ظروفه الخارجية وبالاستعاضة عن الصراع من أجل البقاء بالتعاون وتوزيع العمل . وهذا الإنسان لايزال ساعياً لبلوغ كماله الذاتي ، وتنمية قواه العقلية ، والاستعاضة عن النزاع بالتعاون ، والإكراه بالتنظيم

الإدارى ، والرغبة الأنانية فى سعادته الخاصة بالسعى وراء سعادة الجميع. أن هذه الرؤيا لتسلسل الكائنات ولأساس كل الأشياء ومصدرها ، وللانسان كغايتها الأخيرة ، قد هزت فى الشميل حس الجمال والجلال ، كما هزت حس أبناء جيله فى أوربا وأميركا . فهو يتساءل قائلا : هل هناك ماهو أبهج وأنفع من معركة تحول المادة وقواها ، والعلم بأن جميع الأشياء بالحقيقة واحد؟ ولم يكن من قبيل الصدفة أنه أطلق على وحدة الطبيعة التعبير المستعمل فى علم الكلام الإسلامى للدلالة على وحدة الله : التوحيد . .

« يعلن الشميل عقيدته بحرارة إيمان المهتدى والثائر معاً . ولا عجب فقد كان لا يزال لتلك النظرية يوم ترجم بوخنر فى العقد الثامن وقع الصاعقة »(١) .

محاربة الدين والسلطان :

ويذكر ألبرت حورانى أن الشميل يقول : « إن دين العلم هو إعلان حرب الديانات القديمة ومانشأت المسيحية إلا عن الأنانية وعن حب السيطرة من قبل رؤساء الدين ، وعن رغبة الإنسان العادى فى البقاء الفردى ، وليس مايحرر الإنسان من نير الأنانية سوى إدراك فكرة وحدة المادة والإقرار بها . لكن للدين الجديد مستلزمات اجتماعية وسياسية واسعة أيضاً .

فالعلوم الطبيعية هى أساس العلوم الإنسانية ، ولا تستمد الشرائع السليمة إلا من العلوم الإنسانية الصحيحة . أما العلوم الزائفة ، فهى

(١) المصدر السابق ص ٢٩٨ ، وما قبلها .

تؤدى إلى شرائع وأنظمة حكم زائفة . وليس الحكم الدينى والحكم الاستبدادى فاسدين فحسب » بل هما غير طبيعيين وغير صحيحين ، فالحكم الدينى يرفع بعض الناس فوق سواهم ، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشرى نمواً صحيحاً . أما الحكم الاستبدادى فينكر حقوق الأفراد . ومامصدر الاثنين إلا المبدأ الخاطىء القائم على تفضيل المنفعة الشخصية على المنفعة العامة . وهما يشجعان العقل على البقاء فى حالة الجمود ، وبذلك يعرقلان التقدم التدريجى الذى هو ناموس الكون . لكن بالإمكان تصور نظام للشرائع وللحكم يقوم على نواميس الكون ، ويسمح بالتالى لتطور النمو الكونى أن يستمر وللإنسان أن يعيش وفقاً لطبيعته . ومثل هذا النظام ينبثق عن المبادىء ذاتها التى تنبثق عنها نواميس الطبيعة ، وهى أن الأشياء كلها سائرة إلى التباين والتغير ، وأن التطور يتحقق بالصراع من أجل البقاء ، وأن البقاء للأصلح .

« والامم تقوى بمقدارمايضعف الدين فهذه أوربا فهى لم تصبح قوية ومتمدنة فعلا إلاعند ماحطم الإصلاح (إصلاح لوثر) والثورة الفرنسية سلطة الاكليروس على المجتمع . وهــــذا يصح أيضاً على المجتمعات الإسلامية . . .

إلى أن قال ألبرت « ليس من الصعب العثور على أفكار الشميل فى مؤلفات سبنسر و بوخنر لكنها كانت ترمى هنا إلى هدف معين فى مجتمع كان لايزال قائما على فكره الجامعة الدينية ، وكان الكثيرون من الكتاب العرب المسيحيين من معاصرى شميل يبشرون بتلك الأفكار ويستنتجون منها وجوب وجود وحدة قومية تتعدى الفروق الدينية »(١) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ - ٣٠٢ .

الاشـــتراكية :

ويقول ألبرت عن الشميل هذا : « فهو أول من نشر بالعربية فكرة الاشتراكية ، وإن لم يكن أول من سماها بهذا الاسم . ..

« وقد ذهب أبعد من ذلك فى المنهاج الذى وضعه فى ١٩٠٨ م للحزب الاشتراكى فى مصر فقال إن للحزب سياستين : سلبية وإيجابية ، الأولى هى السعى إلى إزالة جميع الكتب غير النافعة ، ومدرسة الحقوق ، والجامعة الجديدة التى كانت فى مرحلة التأسيس ، والمحاكم المختلطة ، لابل جميع المحاكم الموجودة ، والشركات المحتكرة لتوزيع المياه والصحف التى تبذر الشقاق بالتحدث عن القبطى والمسلم والدخيل (وفى هذا إشارة إلى التهجمات المصرية على الجالية اللبنانية فى مصر) .

« والثانية هى أن يقيم ، بعد تهديم جميع هذه المؤسسات ، جامعة حقيقية تدرس فيها العلوم ومدرسة تقنية بدلا من مدرسة الحقوق ، ومحاكم محلية بسيطة جداً ، ومؤسسات عامة لتوزيع المياه ، ومدارس ابتدائية فى كل قرية وحى ، وصحف لائقة لتنوير الرأى العام .

« قد يكون من المستحيل تطبيق مثل هذه الأفكار . لكن نشرها بحد ذاته قد ساعد على تخمير الأفكار والأفعال التى أطلقت الحركة الدستورية فى مصر وفى الامبراطورية العثمانية كان شميل على العموم من أنصار ، تركيا الفتاة « فى معارضتها لاستبداد عبد الحميد »[1] أيهام فصل العلم الصحيح عن الدين الحق .

يذكر ألبرت حورانى أن رائد هذه الدعوة فى العرب هو الصحفى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٩ — ٣٠٢ .

اللبنانى فرح أنطون (١٨٧٤ م - ١٩٢٢ م) نزح من طرابلس إلى القاهرة فى ١٨٩٧ م وصرف بقية حياته بين مصر ونيويورك رئيساً لتحرير عدة مجلات عربية وبنوع خاص مجلة « الجامعة » الشهيرة فى زمانها .

وقد عبر فى هذه المجلات وفى قصصه عن الفكر الأوربى « المتقدم » فى عصره ، نشردراسة طويلة عن حياة ابن رشد وفلسفته فى مجلته الجامعة، ويدل اختيار هذا الموضوع على تأثير رينان عليه . فهو الذى ترجم « حياة يسوع » لرينان وهاهو الآن ينهج فى كتابته عن ابن رشد النهج الذى رسمه معلمه . فالآراء العامة التى أدلى بها كانت آراء رينان نفسها تقريباً .

« من ذلك قوله إن بالإمكان حل النزاع بين العلم والدين ، وذلك بتحديد الحقل الخاص بكل منهما . فهناك قوتان إنسانيتان مستقلتان : العقل والقلب ، ولكل منهما قواعد عمله ونطاق نشاطه وطرق إثبات حقائقه . فالعقل يستند إلى الملاحظة والاختبار. وحقله هو العالم المخلوق، أما القلب ، فيسلك طريق القبول بما تحويه الكتب المنزلة بدون أن يتفحص أساساتها ومواضيعه الخاصة إنما هى الفضائل والرذائل والحياة الأخرى . ومايتوصل إليه الواحد منهما لا يمكن للآخر دحضه ، لذلك يجب أن يحترم الواحد الآخر، وأن لايتجاوزالواحد حدود الآخر»[1] .

فصل الدنيا عن الدين :

كذلك يرى فرح أنطون كما يذكر عنه ألبرت حورانى أنه أهدى كتابه إلى النبت الجديد فى الشرق ، أى أولئك العقلاء فى كل ملة وكل دين فى الشرق ، الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين فى عصر كهذا العصر ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانباً فى مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً ومجاراة تيار التمدن الأوربى الجديد لمزاحمة أهله ، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم »(١) .

الاعتياض بالفلسفة :

ويقول ألبرت عن فرح أنطون : « ثم يشرح السبب الذى من أجله يكتب عن ابن رشد ، فيقول :

« إن غرضه إنما هو تقريب الأبعاد بين عناصر الشرق وغسل القلوب وجمع الكلمة . . لا بأن يبرهن الفريق الواحد للفريق الثانى أن دينه أفضل من دينه ، فهذا أمر قد مضى زمانه .

« إن ماجذب فرح أنطون إلى ابن رشد هو بالضبط ما كان قد جذب رينان إلى هذا الفيلسوف المسلم ، أى تأكيده على أن النبوة نوع من الإدراك ، وأن الأنبياء فلاسفة ، وأن الحقيقة واحدة يسربلها الأنبياء بالرموز الدينية من أجل العامة ، بينما تفقهها النخبة مباشرة(٢) ،

فصل الدولة عن الدين :

يقول ألبرت حورانى عن فرح أنطون : « كان هدفه السياسى شبيها بهدف الشميل وسواه من كتاب عصره اللبنانيين . ذلك أنه توخى وضع أسس دولة علمانية يشترك فيها المسلمون والمسيحيون على قدم المساواة التامة . .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

« فالطبيعة البشرية واحدة أساسياً فى نظر جميع الأديان ، والحقوق والواجبات البشرية واحدة ايضاً . حتى إن الذين لادين لهم لايختلفون عن غيرهم فى الطبيعة والحقوق » .

« ويذكر ألبرت قول فرح أنطون : « بأن العالم قد تغير فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين ، بل على أمرين : الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث .

« أما فى العصر الحديث ، فالوحدة تتم بخلق الولاء القومى والفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية » .

ثم يقول ألبرت حورانى : « إننا نسمع ، من وقت إلى وقت من خلال صفحات فرح أنطون ، نغمة هى أكثر من مجرد صدى لمعلميه الأوربيين . أنها التعبير عن وعى سياسى إيجابى عند المسيحيين العرب . لقد بقوا مدة طويلة مكتفين بأن لايتدخل أحد فى شؤونهم ، مكرسين مواهبهم السياسية لمعالجة شؤون بطريركياتهم المعقدة ، لكن فرح أنطون الآن بمطالبته بدولة علمانية ، لم يطالب بعدم اضطهاد المسيحيين ومنحهم حقوقاً متساوية فحسب ، بل طالب بمجتمع يتسنى لهم فيه القيام بدور إيجابى ، لابل بمجتمع يتمكنون فيه من ممارسة شطر من المسؤولية السياسية .

« ومع ذلك فقد تردد معظم الكتاب المسيحيين فى دفع هذا التفكير إلى نتائجه السياسية وفى التحدث عن أمة عربية إذ أنهم تخوفوا من أن تكشف القومية العربية عن شكل جديد من أشكال القساط الإسلامى . ولم يكن بإمكانهم إزالة هذا التخوف إلا بإحدى طريقتين : الأولى أن يجاروا الأكثرية شأن الأقليات أحياناً ، ولو أثار بعض الالتباس .

والثانية أن يصبوا فى قالب مفهومهم للعروبة محتوى مفهومهم للبنان أو لسوريا فيحلموا بأمة عربية تكون منفصلة عن أساسها الدينى ، وتضم بدون أى وجه من وجوه التفريق ، المسلمين والمسيحيين جميعاً وتتمتع بحماية رؤوفة من قبل أوربا الليبرالية .

« ولهذا حدثت حركة تؤيد الطريقة الثانية ، التى اختارها نجيب العازورى ، الكاثوليكى السورى ، والمربى تربية فرنسية كمعظم رفاقه . كان لفترة من الزمن موظفاً عثمانياً فى القدس ثم تخلى عن منصبه هذا لأسباب غامضة ، وذهب إلى باريس ، ثم إلى القاهرة ، حيث أقام حتى وفاته فى ١٩١٦ م ، وقد أسس فى ١٩٠٤ م « عصبة الوطن العربى » التى يذكر اسمها بوضوح باسم « عصبة الوطن الفرنسى » المعادية لدريفوس ، فاقتصر نشاطها ، هذا إذا كانت قد وجدت بالفعل. على إصدار المنشرات . ثم أصدر ، فى ١٩٠٧ م فى باريس مجلة لم تعمر إلا قليلا باسم « الاستقلال العربى »

« نجد فى كتاب العازورى المنشور باللغة الفرنسية فى ١٩٠٥م بعنوان « يقظة الأمة العربية » تعبيراً كاملا عن آرائه ، فهو يقول : بأن هناك أمة عربية واحدة تضم مسيحيين ومسلمين على السواء .

« وبأن المسيحيين لايقلون عروبة عن المسلمين .

« على أن العازورى فى وقت لاحق ألمح إلى أن إنشاء المستعمرات والمصارف اليهودية يؤدى إلى تقوية القومية العربية بفضل مصالح أقطاب المال فى العالم »(١) .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٥ — ٣٣٣ .

هذه النقول انتخبتها لبيان دور النصارى فى نشر الأفكار الأوربية فى العرب للتمهيد بها للقوميه من كتاب ألفه البرت حورانى وسماه « الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ م - ١٩٣٩ م ويعرفه مترجمه إلى العربية : كريم عزقول ، بأنه موضوع أصلا فى اللغة الانكليزية بقلم عالم واسع الاطلاع ، دقيق الملاحظة ، محكم التفكير .

« وهو بحث علمى تحليلى مفصل وموضوعى(١) .

« أما بشأن هذه الترجمة فقد توخيت الدقة فى أداء أفكار المؤلف والمحافظة على طريقة تفكيره وتعبيره .

« وقد سهل مهمتى هذه الأستاذ الدكتور ماجد فخرى ، رئيس قسم الفلسفة فى جامعة بيروت الأميركية ، الذى تفضل مشكوراً ، بمراجعة النص العربى(٢) .

ويقول المؤلف حورانى عن كتابه هذا فى مقدمته :

« هو دراسة لذلك التيار من الفكر السياسى والاجتماعى الذى أخذ يظهر عندما تنبه المثقفون فى البلاد الناطقة بالضاد ، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى أفكار أوربا الحديثة ومؤسساتها ، وبدأوا فى النصف الثانى منه يشعرون بقوتها .

« على أنى لم أحاول الإتيان على كل شىء بل انتقيت ما بدا لى ملائما لإيضاح موضوعى(٣) .

---

(١) المصدر السابق ، مقدمة المترجم، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، مقدمة المترجم، ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ، مقدمة المؤلف، ص ٩ ،

« ولابد هنا من أن أعرب عن عميق امتنانى للمؤسسات والأشخاص الذين ساعدونى . أخص بالذكر منهم رئيس كليه مريم المجدلية وطلابها فى أكسفورد ، الذين اختارونى لمنحة دراسية أتاحت لى الوقت الكافى لوضع هذا الكتاب ، الذى كان جزءاً من موضوع لمحاضرات ألقيتها فى جامعة بيروت الأميركية (١٩٥٦ م - ١٩٥٧ م) وفى معهد الآدب والعلوم فى بغداد (١٩٥٧ م) ، وفى جامعة أكسفورد (١٩٥٨ - ١٩٥٩ م) ، وفى معهد الدراسات العليا فى تونس (١٩٥٩ م) . فأشكر الذين سهلوا لى إلقاء هذه المحاضرات ، كما أشكر الطلاب الذين ، بأسئلتهم أو بصمتهم ، ساعدونى على اكتشاف ما كان فيها واضحاً أو مالم يكن »(١) .

والمؤلف نصرانى من الشام وبكتابه هذا فهو أوثق من يستشهد به على النصارى من أنفسهم .

أهداف النصارى من نشرهم فكرة القومية فى العرب

أولا : تقوية النصارى وتمكينهم من السيطرة على المسلمين ، وتمكين النصرانية من الظهور . أنهم إذا قطعوا العرب عن صلة الأخوة الإسلامية ، وروجوا لهم فكرة القومية العربية ، فإن النصارى من العرب والمسلمين من العرب يتساوون فى العروبة ، وإذا اتفقوا على القومية على أساسها فإنه لا يبقى فارق بينهم فى الحقوق والامتيازات بل إن النصارى يمتازون بقوة دولهم المنتصرة الأوربية على دولة الخلافه الإسلاميه العثمانيه ، وهذا هو الذى استقر فى نفوسهم كامناً وقصدوا إليه .

---

(١) المصدر السابق ص ٩ ، ١٠ .

يقول فارس نمر باشا ، أبرز مؤسسى جمعية بيروت السرية ، وهو نصرانى عربى ما نصه :

« كان فى لبنان جماعة صغيرة من الشبان الذين ينتمون إلى هذه النخبة المفكرة وجلهم من النصارى الذين درسوا فى الكلية السورية الإنجيلية . تطالب بتحرير لبنان أولا من الحكم التركى وأنشأوا لهم حوالى ١٨٧٦ م « جمعية ثورية سرية » وراحوا يجتمعون مساء عند الشاطىء الصخرى فى مكان اسمه الروشة فى رأس بيروت للتداول والتشاور فى أنجع الوسائل لتحقيق أهدافهم . وكان أخطر ما أقلق نفوس أولئك الشبان هو احتقار الأتراك لهم ، واعتبارهم أدنى شأناً منهم مما جعلهم يشعرون بالإهانة .

« غير أن العربى المسلم عندما يتكلم عن الامبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول إنها امبراطوريته ، لأنها كانت امبراطورية إسلامية . والواقع أن المسلم لم يكن يشعر بأنه غريب فى غريب عنه ، بل كان الأمر على نقيض ذلك . وأما المسيحى فكان يشعر دوما بأنه واحد من رعايا السلطان وأن الحكومة لا يمكن أن تكون حكومته .

« لكن لم ينقض زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصارى لأنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم ، ينبغى لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكى يكونوا لهم سنداً وعوناً ، فقد كان من المحتم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك كجبهة واحدة متراصة .

« ولم يكن قاسم مشترك بين المسلمين والمسيحيين العرب سوى « العروبة » فالعروبة كشعار كان فى وسعها أن تثير فى نفوس العرب شعوراً بالقومية ، وأن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك .

« وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون فى الجمعية السرية الثورية أن السبيل الوحيد للتحرر من الحكم التركى والسبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وبستطيع أن تقف فى وجه الأتراك »[1] .

ويقول برنارد لويس وهو أستاذ ورئيس قسم التاريخ فى جامعة لندن البريطانية :

« كان هناك المثقفون العرب المسيحيون فى بيروت وجبل لبنان حيث لاقت الفكرة الوطنية صدى وردة فعل . وكانوا كمسيحيين أكثر انفتاحاً للأفكار الأوربية .

« كل ذلك دفعهم لتحبيذ قيام دولة على أساس وطنى لا على أساس دينى ، فإذا كانت اللغة والحضارة والأرض متطلبات الهوية للمواطن فللمسيحيين العرب وهم يملكون المتطلبات اللازمه حق فى أن يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى ، وهذا مالم يكن لهم فى الامبراطورية الإسلامية »[2] .

هذا من جانب العرب النصارى ، وأما من جانب المبشرين ودولهم الاستعمارية الصليبية فيدل عليه رسالة عثر عليها الدكتور زين نور الدين زين فى دائرة السجلات العامة فى لندن وأنقل من ترجمته العربية شواهد مانحن بصدده من تلك الرسالة :

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٦٠ ومابعدها .

(٢) برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، ترجمة الدكتور نبيل صبحى ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

« تسلمت رسالتكم رقم ٣٦ والمؤرخة فى العاشر من الشهر المنصرم مع جميع الوثائق الأخرى المضمنة بالإشارة إلى إحدى الوثائق المضمنة أعنى الرسالة المرقمة ٣٧ ، والمرسلة إلى السير ستراتفورد كاننغ حول موضوع حماية الروم الأرثوذكس فى حاصبيا وجوارها الذين يعتنقون المذهب الإنجيلى ، يسرنى أن أعلمكم أن حكومة جلالتها توافق تمام الموافقة على منحكم الحماية الكاملة لجميع المسيحيين فى تركيا الذين يطلبون إليكم حمايتهم من ظلم الموظفين المسلمين التابعين للباب العالى .

لكن مع تسليمنا بأن هذا التدبير هو مبدئياً تدبير حسن ، يحسن بي ... نظركم إلى أنه ينبغى لممثلى حكومة جلالة الملكة أن يحرصوا الحرص ... على أن يتجنبوا التدخل فى شؤون المسلمين الدينية بشكل سافر يتجاوز كل حد ، بحيث يظهر وكأن ممثلى حكومة جلالتها يعضدون النشاط التبشيرى الذى تقوم به الإرساليات الأميركية وغيرها من الإرساليات الأجنبية فى الامبراطور... العثمانية ، لاجتذاب الأفراد المسيحيين من مختلف المذاهب وضمهم إ... المذهب الإنجيلى .

« إن حكومة جلالتها وعن غير قصد وتصميم ، تؤثر بطبيعة الحال ، أن ترى الناس من جميع الأديان والمذاهب يعتنقون المذهب الانكليكانى سواء كانوا من المسلمين أم من الروم الأرثوذكس أم من غيرهم من الطوائف ولكن .

« ولذا يتوجب عليكم أن تمتنعوا كلياً عن القيام بأى عمل من شأنه ان يفسر أنه تعضيد من قبلنا أو تشجيع لحركة انضمام الارثوذكس إلى المذهب الإنجيلى ، وهى الحركة التى تقوم بها الإرساليات فى تركيا بكل حزم ونشاط ، ولكن فى الوقت ذاته آمل أن تثابروا بكل ما أوتيتم

من قوة على حماية المسيحيين من مظالم المسلمين »[١]

وقد مر بنا أن خمسة سفراء لخمس دول نصرانية حملتهم الحمية للصليب فرفعوا بروتوكولا إلى الباب العالى بشأن لبنان بعد الحرب الأهلية فيه سنة ١٨٦ م ، وبناء عليه فصل لبنان عن حكم المسلمين وأصبح سنجقا مستقلا استقلالا ذاتياً يحكمه متصرف مسيحى وعلى كره من الباب العالى بطبيعة الحال ، ولكن بضغط من بريطانيا وروسيا وفرنساوالنمساوبروسيا مجتمعة[٢] ، وصار لبنان بجامعته الأميركية بؤرة القومية العربية .

ويكاد يكون كتاب التبشير والاستعمار للدكتورين مصطفى الخالدى وعمر فروخ ، وكتاب الغارة على العالم الإسلامى لمؤلفه أ . ل . شاتليه ، تلخيص وتعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافى من أفضل الثبوت لجهود المبشرين التى ترمى إلى إخضاع الشرق العربى للاستعمار الغربى ، وهذا الإخضاع هو هدف الإرساليات التبشيرية بلا شك ومن ورائها دولها ، يبدأون بالتبشير ثم بالتنصير ثم بتكثير سواد النصرانية وحمايتهم وتقوية مكانتهم بين العرب ثم تسليطهم على المسلمين وإن كانوا من العرب لأنهم مسلمين ومحل طمع أعدائهم .

ولقد استشعروا أن العروبة كشعار أولى فى وسعها أن تصد العرب عن الإسلام ، فإذا أبعدوا عنه سهل نفوذهم فى بلاد المسلمين وحكمهم والقضاء على دولتهم وخلافتهم ، وهذا من أعظم مقاصد الصليبيين وهذا النفوذ هو الهدف الثانى :

---

(١) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٢) المصدر السابق، ص ٣٨ ، وتقدم ذكره .

ثانياً : نفوذ دول الصليب الاستعمارية فى البلاد العربية :

« يذكر شارمتان ماقاله له غمبتا : « أن الكردينال لافيجرى والمرسلين التابعين له (فى سوريا) قد أدوا خدمات لايستطيع جيش كبير أن يؤديه أو أسطول إلى فرنسا .

« وقد كتب القاصد الرسولى نفسه قائلا : « نحن نريد سوريا كلها من غزة إلى أدنه ومن لبنان إلى الموصل .

« وفى الرابع عشر من شهر تشرين الأول سنة ١٨٨٧ م بعث وزير خارجية فرنسا برسالة إلى بتيتفيل القنصل الفرنسى العام فى بيروت ، وذلك بمناسبة ٨٢ منحة دراسية قدمتها فرنسا إلى تلاميذ سوريين ليدرسوا فى المعاهد اليسوعية هناك ، يقول فيها : « الآن وقد تقرر منح هذه المنح الدراسية لسوريا فإننا نقترح أن يكون هدفنا مزدوجا . أولا أن يكون لنا أصدقاء وعملاء فى العائلات التى فاز أبناؤها بهذه المنح . وهدفنا الثانى فى تشويق ، رؤساء المعاهد والطلاب للإقبال على تعلم اللغة الفرنسية .

وقد تحقق بعض هذين الهدفين « ونحن نبغى أن نقيم علاقات طيبة مع العائلات ذات النفوذ ، العائلات التى يتعلم أبناؤها فى مدارسنا ، فإن لم ينشأوا على حب فرنسا فعلى الأقل يكونون من الذين لهم معرفة بلغتها وتاريخها » .

« يعتقد القناصل البريطانيون فى سوريا أن مصالح الامبراطورية البريطانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصالح جمعيات الكتاب المقدس العديدة التى لها عملاء مقيمون فى سوريا »[١]

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ١٩١ .

ويقول باكر فى المؤتمر الاستعمارى : « إن الحكومة لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين فى المدارس العلمانية .

« والمبشرون هم الذين اختصوا وحدهم بالاهتمام فى أمر الإسلام والبحث فى شؤونه فى كل مستعمراتنا الألمانية إلى هذه الأيام الأخيرة ..

« على إدارة المستعمرات أن تستعين بالإسلام على تربية الوطنيين كما تفعل فرنسا وانكلترا وهولندا »(١) .

أما ماذا تريد بريطانيا من الثورة العربية والنفخ فى صورة القومية العربية والأدوار التى قام بها كل من لورنس وستوزر وفيصل بن الشريف حسين فى تنفيذ مخطط « ثورة فى الصحراء » وإعلانها وعد وزير خارجيتها بلفور » بتأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين ، والضرب على وتر القومية العربية ، من كل من اليهود وبريطانيا وغيرها من دول الصليب فلا تسمع إلا نغمة العرب والقضية العربية أما الإسلام فلا يطاق حتى ذكر اسمه ، فماذا يراد من ذلك ؟

يقول زين نور الدين زين :

« وإذا أردنا أن نفهم العوامل التى كان لها أثر حاسم فى تقرير مصير الشرق الأدنى » . ننظر فى محتوى وثيقتين خطيرتين يعود تاريخها إلى سنة ١٩١٧ م الأولى . . . موسومة :

« بيان حول السياسة الخارجية مرفوع إلى المجلس الحربى الملكى »

---

(١) نقلا عن أ . ل . شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامى ، تلخيص وتعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافى ، الدار السعودية للنشر ، ص ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩

« وقد قدم . . « بلفور » رئيس البعثة البريطانية الخاصة الذى كان يزور الولايات المتحدة نسخة عن هــذا البيان إلى . . . لنسنغ وزيراً لدولة الأمريكانى وهذا نص الفقرة الخاصة بمستقبل تركيا (الإسلامية) .

« ولا شك أن القضاء على الامبراطورية العثمانية قضاء تاماً هو من أهدافنا التى نريد تحقيقها فإذا نجحنا فلا شك أن تركيا ستفقد كل الأجزاء التى نطلق عليها عادة اسم البلاد العربية » .

أما الوثيقة الثانية فهى مخابرة من موظف بريطانى فى العراق إلى موظف بالمخابرات الحربية البريطانية فى مصر ومما جاء فيها :

« فإن عبئاً ثقيلا من اللوم على كاهل الدول الأوربية التى كانت منذ زمن بعيد تعتبر تركيا حجراً من حجارة الشطرنج تنقلها كيفما شاءت أطماعها وبطريقة مخجلة زرية .

« إنه من المسلم به أن الولايات العربية لا يمكن إبقاؤها تحت السيطرة العثمانية . .

وهكذا نعود فنوحد مرة أخرى بين الشرق والغرب بواسطة مصالح مشتركة بينهما »(١) وتقدم أن نقلنا عن الدكتورين مصطفى خالدى وعمر فروخ قولهما من الكتاب الذى ألفاه وتقدم ذكره قبل قليل وهو :

« لقد أريد من العروبة أن تكون رابطة قومية مناقضة للإسلام .

« ومما يؤسف له أن نفرا من الشبان العرب قد اعتنقوا فكرة العروبة

---

(١) زين نور الدين زمن ، نشوء القومية العربية، ص ١٢٥ — ١٢٧ ، ٢٢٥ .

المجردة من الإسلام ، ثم أخذوا وهم يدعون للعروبة يقاومون الحركات الإسلامية »[١] .

وهذا هو أعظم أهداف النصارى وهو الهدف الثالث :

ثالثاً : مناقضة الإسلام نفسه بفكرة العروبة حتى يفتر العرب بعبادة قوميتهم عن عبادة الله بالإسلام له وحده ، فإذا فعلوا ذلك ينعدم الفرق بين عبادة مخلوق ومخلوق بل الأقوى أحق .

ولقد صرح رئيس جمعيات التبشير القس زويمر بهدف هؤلاء المبشرين ودولهم من جهودهم فى بلاد العرب هذه فى مؤتمرهم بالقدس (١٩٣٥ م) بقوله :

« لقد أديتم الرسالة . . وإن كان يخيل إلى أنه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية . .

« مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لاصلة له بالله ، وبالتالى لاصلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها ، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية . .

« لقد قبضنا . . فى هذه الحقبة . . من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع البرامج التعليمية فى الممالك الإسلامية المستقلة التى تخضع للنفوذ المسيحى . .

« ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير المسيحى والكنائس والجمعيات

---

(١) د / مصطفى الخالدى ، د / عمر فروخ ، التبشير والاستعمار، ص ١٧٥ .

وفى المدارس الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية وفى مراكز كثيرة ولدى شخصيات لاتجوز الإشارة إليها .

« إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول فى الممالك الإسلامية إلى قبول السير فى الطريق الذى مهدتم له كل التمهيد .

« إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقاً لما أراده له الاستعمار لايهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء »[1] .

هذه غاية النصارى يعلنونها بعد أن بلغوها واثقين من وجودها فى بلاد المسلمين وعدم انفكاكهم منها وعدم الخطر من أحباطها ، وفيما يلى نستعرض تاريخهم الحركى بشىء من التفصيل فى بيان توسلهم بالقومية العربية لبلوغ هذه الأهداف التى بلغوها وتعدوها إلى ماهو أعظم منها فى إضلال العرب وتسخيرهم كيفما تعلقت أطماعهم ودارت .

الحركة النصرانية المنظمة للقومية العربية

بعد التحدث عن إثارتهم إحساس العرب بآدابهم إلى المغالات وعن جهدهم فى نشر الأفكار الأوربية فى العرب وعن بيان أهدافهم وتحديدها يأتى الحديث عن حركتهم المنظمة القومية مناسباً .

---

(١) نقلا عن عبد الله التل ، جذور البلاء ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

يقول جورج أنطونيوس : « يرجع أول جهد منظم فى حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥ م - أى قبل ارتقاء عبد الحميد العرش بسنتين - حين ألف خمسة شبان من الذين درسوا فى الكلية البروتستنتية السورية ببيروت جمعية سرية . وكانوا جميعاً نصارى ، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم ، فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة فى البلاد .

« وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التى عرفتها أوربة فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية ، عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسونى ، الذى كان قد أنشىء منذ عهد قريب ، ويشركوه فى أعمالهم . وكان مركز منظمتهم فى بيروت وأنشأوا لها فروعاً فى دمشق وطرابلس وصيدا .

ولما كانت أهدافهم ثورية صريحة فإنهم لم يستطيعوا الاستفادة من وسائل النشر والإعلان ، وكان كل عملهم فى البداية مقصوراً على الاجتماعات السرية التى كانوا يتبادلون فيها الآراء ويبحثون الخطط ، وعلى نشر أفكارهم السياسية بوسائلهم واتصالاتهم الشخصية .

ثم أنهم بدأوا « بلصق المنشورات فى الشوارع من غير أن يكون عليها مايدل على مصدرها .

« وكانت هذه المنشورات تتضمن تنديداً عنيفاً بمساوىء الحكم التركى ، وتهيب بالسكان العرب أن يثوروا عليه ويطيحوا به .

« إن الفضل الأكبر فى هذا الحديث عنها إنما يعود إلى أحد مؤسسيها

الأوائل ، وهو الدكتور فارس نمر باشا ، « هاجر إلى مصر سنة ١٨٨٣م »

« وهناك عضو آخر من أعضاء الجمعية . . . وقد أمدنى هذا العضو بحقائق كثيرة تؤيد ماسبق

« لقد قضيت ، خلال الرحلات التى قمت بها لجمع مادة هذا الكتاب أكثر من عام وأنا أتتبع الآثار . . لجمعية سنة ١٨٧٥ م السرية وسألت أناساً كثيرين فى جميع أنحاء بلاد الشام وفى القاهرة وبغداد وكان كثير منهم يتذكر ظهور تلك المنشورات ، واستطاع بعضهم عن معرفة شخصية أن يؤكد مدى الأثر العميق الذى خلفته فى نفوس الشباب الناشىء بما تضمنته من نداءات حماسية .

« وبعد عام من ذلك عثرت . . فى مكتب السجلات العامة فى لندن ، على برقية أرسلها القنصل البريطانى العام ببيروت فى ٢٨ حزيران يونيه سنة ١٨٨٠ م ، ونصها كما يلى :

« ظهرت فى بيروت منشورات تحض على الثورة . يشك فى أن مدحت هو منشئها ومع ذلك فالهدوء يسود البلاد . التفصيلات بالبريد القادم .

« وتلت هذه البرقية عدة رسائل رسمية ، بعضها من بيروت وبعضها من دمشق ، وقد تضمنت الرسائل حوادث القصة كما وصلت إلى مسامع القناصل البريطانيين فى ذلك الحين ، مع ملاحظاتهم وإشاراتهم إلى مصدر المنشورات . ولكن أهم من ذلك أن القنصل العام ببيروت رأى من الجدير أن يبعث مع رسائله نصوص ثلاثة منشورات مختلفة ، باللغة العربية الأصلية التى كتبت بها . وكان أحدها هو المنشور الأصلى نفسه انتزع قبل وصول الشرطة ، وكان الآخران نسخة عن الأصل .

« كان أولها قد أرسل مع رسالة مؤرخة فى ٣ تموز (يوليه) ١٨٨٠م وهو أقصرها وأقلها قيمة ومع أنه أول منشور وصل إلى القنصلية البريطانية غير أنه لاريب لم يكن أول منشور أصدرته الجمعية ، لأنه يشير إلى نداء قبله ويحاول أن يؤكد إخلاص كاتبيه ووطنيتهم فى المنشورات السابقة وقد اشتمل على لوم أهل الشام لاستكانتهم واستسلامهم لطغيان الأتراك ولما تأصل فيهم من خلافات جعلتهم نهباً لمطامع الدول الأوربية . ويمضى (السياق) هذا المنشور يؤكد قيمة الوحدة وضرورتها ويهيب بالناس أن يدفنوا خلافاتهم وأن يتحدوا فى وجه الطغاة مستلهمين أمجادهم العربية .

« وفى أعلى المنشور شعار يمثل سيفا مسلولا كتب تحته البيت التالى من الشعر :

لنطلبن بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا فى جنبه أرب

« أما المنشور الثانى ، وقد أرفق أيضاً بالرسالة نفسها ، فهو أكثر صراحة وعنفاً فى تنديده بالأتراك . فقد اتهمهم بالإخفاق فى تطبيق الإصلاحات التى ظلوا يعدون بها عشرين عاماً أى منذ سنة ١٨٦٠ م وهى السنة التى قامت فيها المذابح ببلاد الشام ، ويصمهم بأنهم لا أمل فى صلاحهم ولا خير يرجى من ورائهم والشىء الجديد الذى لم يتضمنه المنشور السابق أن هذا المنشور الثانى يطالب مطالبة صريحة بأن تتمتع بلاد الشام بنظام حكم ذاتى ، بل ربما بالاستقلال كذلك ، ويختم المنشور بعبارة أدبية بليغة تؤكد عزم كاتبية على العمل فى سبيل وطنهم مهما يكلفهم ذلك .

« أما المنشور الثالث فقد أرفق برسالة جاء فيها أنه ألصق على الجدران فى ليلة ٣١ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٨٠ م وهو أهم المنشورات

الثلاثة ، لأنه يتضمن أول بيان ، مدون عن برنامج العرب السياسى .

وقد بدأ أيضاً بالتنديد بالحكام الأتراك ، وأضاف إلى شرورهم السابقة شراً جديداً هو محاولتهم القضاء على اللغة العربية .

وقد ضرب على الوتر الدينى حين وصف انتحال السلطان للخلافة بأنه اغتصاب لحق العرب ، وحين اتهم الأتراك بأنهم كثيراً ما خالفوا شريعة الإسلام .

« إن هذه المنشورات الثلاثة ، إذا مانظرنا إليها نظرة شاملة ، لواضحة فى تطورها من التعميم إلى التخصيص ، ومن التنديد الخطابى البلاغى بفساد الحكم التركى إلى صياغة برنامج محدد ذى أهداف وطنية تظهر فيه ظهوراً واضحاً ثمار الجهود التى بذلها اليازجى لرفع شأن اللغة العربية ، والتى بذلها البستانى فى محاربة الجهل . وكان إبراهيم اليازجى ابن ناصيف عضواً فى هذه الجمعية ، ومما يزيد فى قيمة هذه المنشورات الثلاثة أن كل واحد منها ينتهى ببيت من أبيات القصيدة التى أنشدها قبل اثنى عشر عاماً .

« ومهما يكن من أمر ، فإن نداءات تلك الجمعية كانت أول صرخة استنفار أطلقتها الحركة العربية الوليدة .

« وقد حققت هذه الاستثارة غرضها ، فصاغت الشعور العنصرى فى صورة عقيدة سياسية ، وبذلك لم تقتصر الحركة على مجرد رفع الراية ، إنما فعلت ما كان الناس أشد احتياجاً إليه وهو إقامة السهم الذى يشير إلى اتجاه الطريق ويدل عليها[١] .

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية ، من ص ١٤٩ حتى ١٦٠ . وقد نشر زين نور الدين زين فى ملاحق كتابه نشوء القومية العربية ، ز ، ط ، ى ، صور المنشورات .

ثم يستدل جورج أنطونيوس على ما أحدثته الحركة هذه بما سجله أحد الكتاب الفرنسيين وقد زار الشام كما يقول سنة ١٨٨٢ م من كتاب جبرائيل شارم ، رحلة إلى بلاد الشام .

فقال هذا الكاتب الفرنسى :

« . . انتشرت روح الاستقلال انتشاراً واسعاً . وكان الشبان من المسلمين خلال إقامتى فى بيروت ، منهمكين فى تنظيم الجمعيات لإنشاء كثير من المدارس والمستشفيات وللعمل على النهوض بالبلاد . ومن أهم صفات هذا النشاط أنه برىء من وصمة التعصب الطائفى .

« فقد عمدت تلك الجمعيات إلى قبول النصارى وأشراكهم فى العمل القومى . أما الأتراك فقد نحوا عن هذا الميدان » .

ويستدل أنطونيوس بفرنسى آخر رحل رحلات واسعة فى البلاد العربية فى سنة ١٨٨٢ م وينقل استدلاله عن كتاب : دينيس دى ريفوار ، العرب الأصليون وبلادهم ، فيقول :

« . . لقد وجدت فى كل مكان شعوراً ثابتاً هو بغض الأتراك . . . وبدأت تتبلور بالتدريج فكرة القيام بعمل جماعى مدبر للتخلص من نيرهم الكريه . وتلوح عن بعد مظاهر حركة عربية حديثة النشأة ، ويوشك هذا الشعب الذى كان حتى الآن مهيض الجناح أن يطالب عن قريب بمكانته اللائقة فى مستقبل الإسلام » .

ويذكر أنطونيوس اهتمام الممثلين السياسيين للدول الاستعمارية بهذه الحركات بل فى متابعة مدها حتى فى شبه الجزيرة العربية من داخلها مثل ما كتبه الممثل السياسى ، البريطانى بجدة فى ١٠ إيار مايو سنة ١٨٨٢ ومن قوله :

« لقد علمت أن فكرة الحرية أصبحت الآن تحرك عقول بعض الناس ، حتى فى مكة . وتسربت إلى بعض الأنباء عن وجود خطة معينة لتوحيد نجد ، وعرب الجزيرة بزعامة منصور باشا ، وعسير واليمن بزعامة على بن عابد . وسأعرف عما قليل هل هذه الأنباء صحيحة أو أنها مجرد أحلام وبناء قصور فى الهواء ؟ »[١]

جمود حركة النصارى القومية زمن عبد الحميد فى سلطانه :

« وانحلت جمعية بيروت السرية فى هذه الأثناء خوفاً من تعقب السلطان عبد الحميد فى زمن يقع بين ١٨٨٢ م - ١٨٨٣ م ، وهاجر منهم من قد هاجر إلى خارج البلاد ، لاسيما باريس ولندن وجنيف والقاهرة ، وذلك بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ م[٢] .

« ولم يحدث فى زمن عبد الحميد غير حركة سياسية أخرى هى الحملة التى قام بها نجيب عازورى ، وهو عربى نصرانى ، ظهر نشاطه فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الحميد .

« بدأت الحملة فى باريس سنة ١٩٠٤ م حين أسس جمعية عرفت باسم « جامعة الوطن العربى » . وما أن مضت سنتان بعد ذلك حتى كان قد استطاع أن يستميل بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين ويكسب تعاونهم معه، فبدأ يصدر بالفرنسية مجلة شهرية عنوانها : « الاستقلال العربى » . . ظهر العدد الأول منها فى نيسان (أبريل) سنة ١٩٠٧ م . وكان هدف المجلة

---

(١) المصدر السابق ومن ص ١٦١ حتى ١٦٢ .
(٢) انظر زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية، ص ٦١ .

أن تنشر المعرفة عن البلاد العربية وأن تثير الاهتمام بقضية تحريرها (أى تستثير فرنسا وتستعديها)[١]

مؤازرة النصارى الحركة الثورية على السلطان عبد الحميد :

« ولما كانت مصر بعيدة عن متناول يد السلطان عبدالحميد فقد أصبحت القاهرة أحد مراكز التآمر . .

« وكانت باريس مركزاً آخر من هذه المراكز . فتجمع فى هاتين العاصمتين جماعات من اللاجئين السياسيين . .

« وشرعوا يتآمرون ويتصلون بالموالين لهم فى سالونيك ليقضوا على استبداد (عبدالحميد) السلطان ، وآتت هذه المؤامرة ثمارها فى الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) سنة ١٩٠٨م[٢] .

ومر بنا ذكر شيوع أن والى الشام مدحت باشا صاحب دستور ١٨٧٦ م ، وأبو الاصلاح الغربى إن لم يكن مؤسس جمعية بيروت السرية الثورية ضد الخلافة والخليفة فهو مطلع على سرها ، ومسبغ عليها حمايته وتوجيهه، وكانت من أسباب استدعاء السلطان له ، ولذا انحلت هذه الجمعية وتفرق أعضاؤها ومن على شاكلتهم من النصارى وغيرهم وهاجروا إلى خارج البلاد ، إلى مثل باريس ولندن وجنيف والقاهرة بعد احتلال الانجليز لها سنة ١٨٨٢ م خوفاً من السلطان .

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ . وانظر البرت حورانى ، الفكر العربى ، ص ٣٢٨ ومابعدها ، وزين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٦٠ ومابعدها .

اتفاق قوميي العرب مع الثوار الأعاجم بخلاف المسلمين :

ليس غريباً أن يلقى أصحاب هذه الحركة ومن النصارى على الخصوص العون الكبير والجو الملائم لتزايد حركتهم ضد الخلافة الإسلامية باسم القومية من تركيا الفتاة الطورانية فهى قومية ، وثمرة من ثمرات دعاة الإصلاح الغربى كمدحت باشا وغيره .

ولقد اتفق الجميع من القوميين من عرب وعجم على السير فى تيار تركيا الفتاة حتى تمكنوا من خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ م بل على سلطان المسلمين بعد أن أرغموه ثورياً بإعادة دستور مدحت باشا سنة ١٩٠٨ م ، والذى كان قد وضعه مدحت سنة ١٨٧٦ م . بوحى من الغرب الصليبى ، ولذا لم يهتم بالمسلمين بل كان مدحت معروفا بميله للغرب النصرانى فساوى بين النصارى والمسلمين فى سلطانهم بل رفع النصارى عليهم فولى ولاة منهم على بلدان إسلامية ، وجر القوانين ، والشرائع الأوربية النصرانية الوثنية إلى بلاده حتى أحلها هو ومن تبعه من دعاة الإصلاح الغربى محل شرائع الإسلام فى مواطن الأمن والإسلام .

بعث السفير البريطانى السير .ج . لوذر إلى إدوارد غراى فى ١٧ شباط ١٩٠٩ م رسالة منها :

« أما بين العرب (المسلمين) فإن فكرة الدستور لم تترك فى نفوسهم انطباعاً عميقاً ، إذ أنهم كانوا يشككون فى أمر إجراء الإصلاح ، وإذا كانوا قد ارتضوا الحكم التركى فلأنه كان حكما إسلامياً ولأنه كان للسلطان عندهم بقية احترام على أنه الرئيس الدينى الأعلى فى الامبراطورية العثمانية . . .

« وكان العرب (المسلمون) يتساءلون إذا كانت أحكام الدستور تتفق مع مبادىء الشريعة ، وقد شكا أعضاء الرابطة من اللامبالاة التى أبداها السوريون إزاء الدستور(١) .

ولكن عرب النصارى فرحوا بالثورة وعودة الدستور ، وهذا أحدهم أنيس الخورى يصور فرحهم فيقول : « نشوة حبور لم يعهد لها مثيل،فعقدوا الحفلات الباهرة فى الوطن وفى المهاجر ، وفى سوريا ولبنان وفى العراق أيضاً .

وينقل وصف الزهاوى لهذا الفرح :

وقفت والعين تبكى من مسرتها
أمام شعب من الأفراح عجاج
أمام بحـــر من الأفكار مضطرب
أمام جيش من الأصوات رجراج
إن الشعوب إذا هاجت عواطفها
كالبحر يضرب أمواجاً بأمواج(٢)

وهل يفرح بمثل هذه العجة والاضطراب والرجرجة والهياج والموجان إلا من يقوم ويعمل فى مثل هذه الفتن المظلمة ؟

و بعد هذه الفرحة بهذه الصورة التى رسمها الزهاوى تجتمع جمعيات

---

(١) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) أنيس الخورى ، الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث، ص٣٤ — ٣٧ نقلا عن زين ، المرجع السابق ص ٢٠٤ .

النصارى وغيرهم ممن تعاونوا على الثورة وتنصب كلها فى جمعية الإخاء العثمانى ، وتأخذ الناس حمى التآخى بين ترك وعرب ومسلمين ومسيحيين وفى ذلك يقول جورج أنطونيوس :

« وفى هذه الأثناء أنشئت جمعية الإخاء العربى العثمانى .

« افتتحت رسمياً فى القسطنطينية فى اجتماع للجالية العربية وبحضور أعضاء من جمعية الاتحاد والترقى ...

« وكانت أهدافهم الرئيسية المحافظة على الدستور وتوحيد جميع الولاء ، للسلطان وتحسين أوضاع المقاطعات العربية على أساس [illegible] راة الحقيقية مع الأجناس الأخرى فى الدولة ، ونشر التعليم باللغة العر[illegible] ، وتنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية واتباعها ، وكانت عضويتها مباحة للعرب على اختلاف أديانهم ، وتقرر إنشاء فروع لها فى جميع المقاطعات العربية ، وأصدرت فعلا صحيفة للدعوة إلى نشر مبـــادئها التى كانت تقوم كما رأينا على أفكار مضطربة مشوشة »(١) .

الخلاف :

كتب أحد الأوربيين أوريل هيد يقول : « إن ثورة ١٩٠٨ م التى قامت بها جمعية تركيا الفتاة كانت تقول بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين بدون تمييز لا فى الدين ولا فى العرق ، غير أن الوعود الجميلة لم تحقق إطلاقا »(٢) .

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٧٧ .

(٢) نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٨١ .

لاغرابة فى وقوع الخلاف بين الثوار على السلطان الإسلامى لأن الاختلاف هو مقتضى ذات بينهم كما قال الله تعالى عن أمثالهم : (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى)[١] .

وهذا ماحصل فقام الحكام الأتراك بحل جمعية الإخاء العثمانى ، ورفعوا راية القومية الطورانية فوق راية القومية العربية، ونادوا بتفوق العنصر التركى وصمموا على تتريك الأجناس الأخرى ، حتى العرب . واستفحل الخلاف بعد أن كانوا على اتفاق ، كانوا على اتفاق فى محاربة الإسلام والثورة على سلطانه ، فلما ظفروا اختلفوا على اقتسام ماظفروا به من الدنيا ، وما كانت تركيا الفتاة لتنفرط بالحكم وهى القريبة منه وكانت تسعى لاغتصابه من المسلمين ، وما كان يهون على النصارى استئثار الأتراك بذلك وهم المتوسلون بالقومية من الداخل ، وبأوربا من الخارج للوصول إلى الحكم فى بلاد المسلمين ، ومن هنا وقع الخلاف بين الثوار .

قيام جمعيات أخرى لدى المغلوبين

لقد أسفر أمر الخلاف عن قيام جمعيات وأحزاب لدى القوميين وغيرهم من العرب ، لم يعلم الأتراك بوجود بعضها ولا بمقاصد بعضها الآخر يقول جورج أنطونيوس :

« وأصبح منذئذ نشر أفكار العرب القومية يتم فى ميدانين : ميدان علنى مجاله النوادى والجمعيات المعترف بها رسمياً ، وميدان سرى تعمل فيه

---

(١) الحشر : ١٤ .

المنظمات السرية المتآمرة فى الخفاء ، وقد أنشىء عدد من هذه الجمعيات ومارست أعمالها بين سنتى ١٩٠٩ م و ١٩١٤ م .

وذكر أنطونيوس أربعا منها : اثنتين علنيتين ، واثنتين سريتين تتكامل أعمالها ، وأولى العلنيتين جمعية المنتدى الأدبى فى صيف ١٩٠٩ م فى القسطنطينية لتكون مقراً يلتقى فيه العرب الوافدون والمقيمون ، وزودوا النادى بمكتبة وخصص قسم منه للنوم والضيافة وكان دائب النشاط وعمله الأساسى توضيح الأفكار والآراء وتفسيرها على أساس الحركة العربية ، وتقوية دعوتها وتوسيع مداها ، وكان أعضاؤها كثيرين يلفون ألوفا أكثرهم من الطلاب ، وأنشؤا فروعاً له فى بلدان كثيرة فى الشام والعراق .

والثانية أنشئت فى القاهرة سنة ١٩١٢ م باسم « حزب اللامركزية » وكان مؤسسوها نصارى خلص ومسلمين مدهنين ، أو مستائين من تسلط تركيا الفتاة بغير الحق ، فحملهم ذلك على هذا المسلك وكان هدفها انفصالياً ، وليس إسلامياً خالصاً من النصارى وغير المسلمين . ومن نظامها الأساسى قيام جهاز حزبى محكم وقد وكل أمر الإشراف إليها إلى لجنة قوية يقيم أعضاؤها فى مصر ، وأنشئت فروع لها فى كل مدينة بالشام ، ووكالات صغيرة فى عدد من الأماكن الأخرى وكان ثمة اتصال وثيق بين فروعها والجمعيات السياسية العربية الأخرى فى الشام والعراق ، و « المنتدى العربى » فى القسطنطينية .

أما الجمعيتان السريتان ، فالأولى القحطانية أنشئت فى أواخر سنة ١٩٠٩ م بعد إنشاء المنتدى الأدبى العربى ، وهدفها مشابهة الدولة النمساوية المجرية فى اتحاد النمسا مع المجر ، كمملكتين لكل مملكة حكومتها وبرلمانها

المحلي ، واتحدتا فيما عدا ذلك ، وتريد القحطانية أن يكون اتحاد العرب مع الأتراك كذلك ، فيضع السلطان العثماني على رأسه تاج المملكة العربية بالإضافة إلى تاجه التركي كما كان امبراطور آل هابسبورغ في فينا يضع على رأسه تاج المجر بالإضافة إلى تاجه النمسوى .

« وأعضاء الجمعية القحطانية يختارون بعناية ودقة ، فلم يسمح لأحد بالانتماء إليها إلا إذا كان وطنياً ووطنيته فوق مستوى الشبهات وكان ممن يوثق بكتمانه السر ، وللجمعية كلمة سر ، وإشارة لإثبات شخصية العضو ، كالجمعيات الماسونية ، وأسست لها خمسة فروع في خمسة مراكز بالإضافة إلى القسطنطينية ، وتستمد قوتها من شخصية بعض أعضائها ، وتتمثل قيمتها في تاريخ الحركة القومية في أنها حاولت ضم ضباط العرب في الجيش التركي، وتم لها أن انتمى معظمهم إليها وازدادت بهم الحركة قوة إلى الثورة .

« ولقد انبثق منها في بداية سنة ١٩١٤ م أن أنشئت جمعية العهد في القسطنطينية وأهدافها أهداف الجمعية القحطانية لكنها مفرغة بأسلوب عسكري وهي للضباط مثل « جمعية العربية الفتاة » للمدنيين وهي الجمعية السرية الثانية الآتي ذكرها .

والثانية « جمعية العربية الفتاة » سمية للتركية الفتاة ، وأسست في باريس سنة ١٩١١ م ، أيضا كما أسست التركية الفتاة في باريس سنة ١٩٠٢ م وهي السنة التي عقدت الفتاة التركية وأعني الجمعية مؤتمرها الأول فيها في باريس(١) ، تماماً كما عقدت العربية الفتاة مؤتمرها الأول في

---

(١) أنظر : زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ص ٧٥ ، ٢٠٢ .

باريس سنة ١٩١٣ م إلا أن التركية الفتاة أكبر منها فى السن ، ولم يكن لأية جمعية أخرى ما كان لجمعية العربية الفتاة من أثر فعال فى تاريخ الحركة القومية فى العرب ، كما كان أثر أختها التركية الفتاة فى الترك ،وكان مؤسسوها سبعة من الشبان العرب ، كما كان مؤسسو التركية ، خمسة أو ثلاثة من الشبان الأتراك على مايذكر السلطان عبد الحميد فى مذكراته المنشورة فى مجلة المجتمع عدد (٢٧٤) ، ٨ ذى القعدة ١٣٩٥ هـ ، وكان مؤسسو العربية الفتاة يدرسون دراستهم العالية فى العاصمة الفرنسية ، وجميعهم ينتسبون إلى المسلمين .

ويقول جورج : « إن إنشاء هذه الجمعية يذكرنا بجمعية بيروت السرية التى أنشئت سنة ١٨٧٥ م ، غير أن الفرق بينهما أن زمام المبادرة قد أصبح الآن بيد المسلمين » ولامنازع من القوميين العرب فإنهم يعترفون للنصارى بالإمامة كما يقول على ناصر الدين فى كتابه « قضية العرب » وعلى ناصر الدين هذا قومى عربى كما يقول عن نفسه[(١)] وشاهدنا هنا من قوله مانصه : « وقد تزعم هذه الحركة وقادها بعض الفضلاء المسيحيين ، الذين لم تكن تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين المتينة ، ورابطة الإخاء الإسلامى ، وكانوا مثقفين الثقافة الغربية التى تقوم على تمجيد القومية ، وكان من زعمائها الأولين الدكتور فارس نمر ، والشيخ إبراهيم اليازجى ، والأستاذ نجيب عازورى اللبنانى »[(٢)] .

---

(١) انظر : قوله : « العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب . . . » الذى تقدم معزوا إلى مصدره فى صفحات سابقة من هذا البحث .

(٢) على ناصر الدين ، « قضية العرب » ص ٧٣ ، ط ٣ ، بيروت ١٩٦٣ م نقلا عن أبى الحسن الندوى ، العرب والإسلام ص ، ر ، ح . وانظر: ص ٢٨ من هذا البحث ، وص ٣٣ كذلك .

ونعود لمتابعة مايقصه جورج عن هذه الجمعيات العربية الجديدة ، يقول عن العربية الفتاة :

« وكانت أهدافها السعى لاستقلال البلاد العربية وتحريرها من السيطرة التركية . وكانت تنمو بحذر وبسرعة، حتى أصبحت أكثر الجمعيات العربية فى ذلك الحين أثراً . تتميز بالتنظيم الرائع لأعضائها . فقد كان لا بد أن يمر العضو فى فترة طويلة من الاختبار قبل قبوله .

وكان كل مرشح يقدمه عضو قديم ممن حلف اليمين يظل لا يعرف أشخاص الأعضاء الآخرين إلى أن تنتهى فترة اختباره ويتم قبوله ، حينئذ يدعى ليقسم أن يسعى لتحقيق أهداف الجمعية ولو أدى ذلك إلى التضحية بحياته إذا اقتضى الأمر » .

« وكان مركز الجمعية خلال السنتين الأوليين فى باريس ، وبقى أعضاؤها قليلين وبعد أن أنهى مؤسسوها دراستهم وتخرجوا عادوا إلى بلادهم ، فنقلت الجمعية إلى بيروت سنة ١٩١٣ م ، ثم نقلت فى السنة التالية إلى دمشق . وزاد أعضاؤها على المائتين ، وكانوا من المسلمين والمسيحيين .

ثم تبلورت فكرتهم فى قيام موجة من الحركة العربية القومية ، ولما وافت سنة ١٩١٥ م اتصلت جمعية العهد العسكرية بجمعية الفتاة المدنية فى مدينة دمشق ووحدتا وسائلهما معا لإيقاد الثورة العربية . انتهى ما أردت إيراده من معلومات مختصرة عن هذه الجمعيات القومية العربية بعد خلاف الثوار فيما بينهم بعد نجاح ثورتهم القومية على خلافة المسلمين(١) .

---

(١) اقتبست هذه المعلومات بنصوصها وبتصرف بسيط للترتيب والاختصار من دون إخلال بالمعنى، من كتاب يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية لجورج أنطونيوس من ص ١٨٤ حتى ١٩٧ .

الثورة العربية

مرة أخرى يأتي ذكر الثورة العربية بعد أن ذكرناها فى دور اليهود ، ونذكرها هنا فى دور النصارى ، لأنها وليدة امتزاج جهود اليهود بجهود النصارى لصد العرب المسلمين بها عن الجهاد فى سبيل الله الموحد مع سائر المسلمين ، وكم نرى نقاط التقاء جهود كل من اليهود والنصارى فى الدورين ؟ وكيف لاتلتحم وهى كلها موجهة ضد الإسلام ؟ وبعضهم أولياء بعض ؟ .

مر بنا أن القوميين من عرب وعجم اتحدوا مع أعداء السلطان عبد الحميد لأنه عطل الدستور الذى وضعه مدحت باشا بوحى من الدول الغربية بدعوى الإصلاح ، ولأن السلطان نادى بوحدة المسلمين وبعضهم تحت سلطة انجلترا كما فى الهند ، فراح السلطان يعزز الخلافة الإسلامية الجامعة وأبعد دعاة الإصلاح الغربى من كل جنس عن أمور المسلمين ، فثار عليه هؤلاء ممثلين بجمعية الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة وفيها عرب ، وظهرت ثورتهم وفرح بها دعاة الإصلاح الغربى من العرب خاصة النصارى لأنهم يحلمون بمساواتهم أو تفضيلهم وتحكيمهم فى المسلمين ، فهم فى دعوى الصلاح الغربى سواء أو لا أقل من إطلاق يد نصارى العرب فى العرب ، كما انطلقت يد قومي الترك فى الترك ، غير أن قومي الترك مدوا يدهم على العرب واستأثروا بالسلطان على زملائهم فى الثورة ونادوا بتفوق الجنس الطورانى والقومية التركية على العرب والقومية العربية ، فقام هؤلاء العرب يؤسسون من جديد جمعيات ثورية ، وفى هذه المرة تضطرم روح الثورة ضد العنصر التركى علاوة على مضادتها للإسلام كما

سبق من تشربها مبادىء أوربا وأفكارها ومعاداتها للدين بالكلية .

وقد آتت هذه الجمعيات ثمارها لتوقد نار الثورة العربية بالقومية وكان يمكن لهذه الثورة العربية أن تكون ضد أثرة الأتراك وعنصريتهم وتنكرهم للغة العربية حتى فى شعائر الإسلام فحسب ، لولا أن اليهود والنصارى نفثوا لها فى عقدة القومية العربية ، فانسحرت بها واندفعت برايتها متحولة ضد الوحدة الإسلامية على الجهاد فى سبيل الله كما تقدم بيانه فى دور اليهود فى هذه الثورة ، أما كيفية باقى دور النصارى فى هذه الثورة فكما يلى :

يذكر جورج أنطونيوس : أن عبد الله الابن الثانى للشريف حسين ، قد وجد فيه دعاة الحركة القومية آنذاك فى سنة ١٩١٤ م أنه شاب بارز فى دوائر الأتراك السياسية ، ويمتاز منذ صباه عن ذوى قرباه بروحه المستقلة واعتزازه بنسبه وتحمسه لإظهار فضل بنى قومه ، وقد أتاح له مقامه الطويل فى القسطنطينية أن يجيد اللغة التركية .. وأن يتحلى بالكثير من طبائع علية الأتراك ، فخفف ذلك من حدته العربية .

واتصل باللورد كتشنر المعتمد البريطانى ، وحضر اجتماعهما رونالد ستورز ، وفهم منه المعتمد البريطانى إمكان استغلال أسرته فيما يهمه كثيراً من سياسته فى الرابطة الإسلامية ، التى تولدت أهميتها فى نفسه من اتصاله المباشر بقوى المسلمين النضالية ، وقلقه بمقر الخلافة — القسطنطينية — أثناء وجوده بالقاهرة .

وكان عبد الله ينتمى إلى إحدى الجمعيات السرية فى الشام[1]

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ٢٠٤ حتى ٢١٤ .

وحصلت اتصالات هذه الجمعية السرية النصرانية بالشريف حسين وأولاده ، يقول أنطونيوس :

« بينما كان الشريف يتلمس الظروف والاحتمالات من حوله - للثورة - وصله رسول من جمعية « العربية الفتاة » التي أصبح مقرها الآن دمشق ، وكان هذا الرسول هو فوزي البكري .

« وما كاد يتلقى الأمر بالتوجه إلى مكة حتى أطلعته الجمعية على سرها ، وأصبح عضواً فيها بعد أن حلف اليمين ، وحملته الجمعية رسالة لينقلها إلى الشريف .

وكانت الرسالة شفهية فحواها : أن الزعماء الوطنيين في الشام والعراق ، ومن بينهم ضباط كبار من العرب في الجيش التركي ، يميلون إلى الثورة للحصول على استقلال العرب ، فهل يوافق الشريف على قيادة الثورة ؟ وإذا وافق على ذلك فهل يستقبل وفداً من الجمعية في مكة ، أو يرسل إلى دمشق مندوبين يثق فيهم للاتفاق على مراحل التنفيذ » .

« وصل فيصل دمشق في طريقه إلى الآستانة مندوباً لوالده من أجل تطمين الحكومة على أن نوايا والده تجاههم حسنة ، وفي دمشق نزل على آل البكري ، واطلع على أسرار الحركة العربية القومية في جمعية العربية الفتاة ، وكشف فيصل بعض الشيء عن دخيلة نفسه ، دل على أن وحدة المشاعر بين فيصل ومحدثيه وحدة لاريب فيها ، أصبح فيصل أقرب إلى نفوس أعضاء جمعية العربية الفتاة ، وكشفت الجمعية أسرارها لفيصل فأصبح عضواً فيها بعد أن حلف اليمين ثم اجتمع ببعض أعضاء جمعية « العهد » وهي المنظمة السرية العسكرية ، ثم أصبح عضواً فيها أيضاً ، وقد أعجب فيصل إعجاباً شديداً بتنظيم جمعية العهد ، إذ كان زعماؤها قادرين

على أن يوقدوا نار الثورة فى صفوف الجيش حينما يشاؤون ، وقد انضم فيصل إلى هاتين الجمعيتين بحماسة المؤمن المخلص ، وقد أخبر الزعماء بعرض كتشنر . . .

ولما عاد فيصل من الآستانة إلى دمشق مرة أخرى فى طريقه إلى مكة وجد زملاءه فى جمعيتى الفتاة والعهد ، قد اتفقوا على خطة العمل أثناء غيابه . ووضعوا ميثاق الثورة يتضمن الشروط التى يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكى يؤازروا بريطانية العظمى على تركية ، واتفقوا على أن يحمل فيصل هذا الميثاق إلى مكة ، وأورد جورج نص الميثاق ص ٢٤٣ ، من كتابه : يقظة العرب . وهذه المعلومات يقول أنطونيوس فى هامش ص ٢٣٧ من كتابه : يقظة العرب المذكور أنه يرويها عن فيصل بن الشريف حسين نفسه مباشرة ، وكذلك عن أحمد قدرى العضو النشيط فى جمعية العربية الفتاة .

« وفى تلك الأثناء بذلت السلطات البريطانية فى مصر كل مافى وسعها لتفادى مخاطر الدعوة إلى الجهاد وكان الرجلان القائمان فى مصر بالجهود الرئيسية فى بداية الأمر هما : السكرتير الشرقى فى دار الاعتماد البريطانى مستر رونالد ستورز ، ومدير المخابرات العسكرية فى القاهرة المقدم ج . ف . كلايتون . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩١٥ م تسلم سير هنرى مكماهون عمله مندوباً سامياً فى مصر والسودان ، وكان سير ريجنالد ونجت حاكماً عاماً للسودان ومقر قيادته الخرطوم . وحمل هؤلاء الأربعة العبء الأكبر من هذا العمل الشاق .

وحصلت المراسلات بين الشريف حسين وبين مكماهون بعد كتشنر بين عامى ١٩١٥ م - ١٩١٦ م ويقول أنطونيوس إن فكرة القيام بالبحث

لتجميع نصوص هذه المراسلات اقترحها عليه الشريف حسين نفسه سنة ١٩٣١ م قبل وفاته بأشهر قليلة[١].

« ثار الشريف حسين فى يوم الاثنين الخامس من حزيران يونيه سنة ١٩١٦ م ، وأرسلت بريطانيا الصليبية العدد والذخائر والمال للثوار ووصلت جدة ومعها ستورز ولورانس يخططان ويوجهان الثورة ويشرفان على التنفيذ فى ضرب وحدة جهاد المسلمين ولتكون الثورة قومية بحتة حتى تتحول ضد الخلافة وضد وحدة المسلمين ، وضموا تحت لوائها النصرانى من العرب والعربى من المسلمين جنباً إلى جنب يحاربون من أجل انتزاع السلطة ووضعها بيد القوميين النصارى وغيرهم تحت توجيه بريطانيا ورضى فرنسا وقادها لورنس حتى انتصر ودخل دمشق على رأس جيش عربى ، وتمكن من أن يشكل حكومة عربية بنفسه وينصب على رأسها فيصل بن الشريف ، ويلاقيه الجنرال اللنبى فاتحاً مدينة القدس يقول : « الآن انتهت الحروب الصليبية ياصلاح الدين » .

تواثب النصارى على حكم الشام بالقومية العربية

ثم تتدخل فرنسا حمية للموالين لها من نصارى لبنان وسوريا وتسقط حكومة فيصل رغم عروبته ووطنيته فتقوم الأحزاب النصرانية القومية تتواثب على كرسى الحكم على المسلمين كالحزب القومى السورى الذى أسسه أنطون سعادة فى ١٩٣٢ م . يقول البرت حورانى :

« كان أنطون سعادة مسيحياً لبنانياً ، نشأ فى البرازيل ، وربما تشرب

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ٢٣٢ حتى ٢٤٥ .

هناك ذلك النوع من الوطنية السورية الذى كان شائعاً بين الطبقة اللبنانية المثقفة فى أواخر القرن التاسع عشر والذى حافظت عليه الجاليات اللبنانية المتحجرة فى المهجر ، بينما كان آخذا فى الزوال فى الوطن الأم .

« لقد بسط أنطون سعادة بنفسه هذه العقيدة فى مؤلف عام لم يصدر منه إلا الجزء الأول فقال : بأن الأمة هى الوحدة الأساسية للتاريخ الإنسانى ، وبأنها تنشأ عن المصلحة والإرادة لاعن اللغة أو الدين ، وبأنها قائمة بذاتها ، لاتخضع لأى سلطة إلا التى تنبثق عن ذاتها .

« كما أن الدكتاتور السورى الذى خلف حسنى الزعيم مباشرة وهو أديب الشيشكلى كان هو نفسه من محبذى الحزب (أى حزب أنطون سعادة) الذى لعب دوراً مهماً فى الحرب الأهلية فى لبنان عام ١٩٥٨ تأييداً للرئيس شمعون وسياسته الغربية »(١) .

ومازال هؤلاء القوميون النصارى يتمسكون بعلمانية أوربا كوصفة يلبسون بها على الأمة العربية حتى لاتستفيق بالإسلام . فهذا قسطنطين زريق يؤلف كتابه « الوعى القومى » بعد النكسة سنة ١٩٤٨ م ، يصف فيه « أن السبب الأساسى لهزيمة العرب وللخطر المحدق بهم إنما هو عدم وجود أمة عربية بالمعنى الصحيح . . إلا بتغيير أساسى فى حياة العرب وتفكيرهم . . . بحيث يصبح العرب ، واقعياً وروحياً جزءاً من العالم الذى نعيش فيه ، فيتبنوا أساليبه المادية ، وعلمانيته ، وطرق تفكيره العلمى وقيمه الخلقية »(٢) .

فانظر كيف ينصح للأمة العربية بأن يتمادوا بالأخذ فى أسباب الهزيمة ؟

---

(١) ألبرت حورانى ، الفكر العربى ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٢٣ .

وفى هذا الجو المظلم . . . يتسلم نصارى حزب البعث القومية العربية ، وما أدراك ماحزب البعث ؟ يذكر البرت حورانى : أن حزب البعث تأسس فى دمشق فى الأربعينيات أسسه ميشال عفلق ، وأنه أعطى شكلا سياسياً لقومية عربية أكثر شمولا ، فلعب دوراً مهماً فى لبنان والأردن والعراق فضلا عن سوريا ، كما كان له ضلع كبير فى قيام الجمهورية العربية المتحدة فى ١٩٥٨ م ،كان هذا الحزب يطمح إلى تسلم الحكم . فلم يسمح لنفسه بتحديد موقفه التحديد الدقيق الذى من شأن المفكر المنعزل أن يقوم به . غير أن دستوره انطوى ضمناً علىعقيدة متناسقة وصفها مؤسسه، ميشال عفلق ، بأنها عقيدة عروبية شاملة قبل كل شىء ، تقول بـ « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » وترى أن الرابطة القومية بين الفرد وأمته هى أساس الفضيلة السياسية ، وأن هذه الرابطة لايمكن أن تكون إلا رابطة عربية لدى كل من كانت لغته عربية وكان مستوطناً بلداً عربياً ومؤمناً بانتمائه إلى الأمة العربية « وهى تستبعد كل انتماء إلى وحدات إقليمية أو دينية أصغر ، وتعتبر جميع البلدان العربية أجزاء متساوية من الأمة العربية الواحدة .

ويقول الشيخ محمد على ضناوى فى كتابه : « الطريق إلى حكم إسلامى» ص ١٦٨ ، ١٦٩ ناقلا عن ميشيل عفلق تعريفه للقومية من كتابه : « فى سبيل البعث » ص ٥ ، ٨ « أما ميشيل عفلق فيعرف القومية بأنها ليست نظرية ولكنها مبعث النظريات ولا هى وليدة الفكر بل مرضعته . . . وليست مستعبدة الفن بل نبعه وروحه . . . هذه القومية هى « حبقبل كل

شيء » وهى « قدر محتوم » وهى نفس العاطفة التى تربط الفرد بأهل بيته لأن الوطن بيت كبير والأمة أسرة واسعة والقومية ككل ، حب يغمم القلب فرحاً ويشيع الأمل فى جوانب النفس .

اندمج حزب البعث بحزب أكرم الحورانى الاشتراكى ، فأصبحت الاشتراكية فى نظر حزب البعث جزءاً جوهرياً من القومية العربية .

ارتبط إلى حد كبير بنظام الحكم العسكرى فى مصر خلال السنوات السابقة لقيام الجمهورية العربية المتحدة .

والسبب الطبيعى لذلك الارتباط هو تطلع الراغبين العفلقيين إلى إحداث تغييرات سريعة فى منطقة لم يكتمل وعيها السياسى بحيث تستطيع أن تحقق بنفسها مايحققه الرأى العام المثقف والمنظم فى بلدان أخرى(١) كأوربا ، هذا على حد رؤية النصارى .

مبادىء حزب البعث :

١ — الأمة العربية وحدة ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة بين أبنائها عرضة زائفة عرضية تزول جميعها بيقظة الوجدان العربى .

٢ — الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة فى مراحل التاريخ ، وترمى إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشرى وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم .

٣ — حزب البعث العربى الاشتراكى قومى يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة ، وبأن الشعور القومى الواعى الذى يربط الفرد بأمته ربطاً

---

(١) ألبرت حورانى ، الفكر العربى، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسؤولية ، عامل على توجيه إنسانية الفرد توجيها عملياً مجدياً .

٤ — حزب البعث الاشتراكى العربى اشتراكى يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية لأنها النظام الذى يسمح للشعب العربى بتحقيق إمكانياته وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن الأمة نمواً مطرداً فى إنتاجها المعنوى والمادى وتآخياً وثيقاً بين أفرادها .

٥ — الرابطة القومية هى الرابطة الوحيدة القائمة فى الدولة العربية التى تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم فى بوتقة أمة واحدة ، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية .

٦ — يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية ينسجم مع روح العصر الحاضر وعلى ضوء تجارب الأمة العربية فى ماضيها »[1] .

ويعود ميشال عفلق يطمئن اللبنانيين فى خطاب له فى عام ١٩٥٥ م فى طلبة المغرب العربى ، فيقول : « واجبنا أن نشرح للبنانيين بأن العروبة التى نعمل لها هى عين مايطلبونه ويطمحون إليه من وراء التهرب من العروبة ، فالعروبة تمنع الضغط الدينى ، إنهم يتهربون لاعتبارهم أن العروبة وهى الإسلام بنظرهم لاتسمح بتكوين مجتمع يحفظ كرامة الإنسان ويساير التطور الحديث فى العالم »[2] وإنه ليحسن أن أنقل ترجمة

---

(١) نقلا عن أبى الحسن الندوى ، من كتابه : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) نقلا عن محمد جلال كشك ، القومية والغزو الفكرى، ص ٨٤ .

كلام لورانس عن حكومة سوريا من تقريره السرى المترجم فى كتاب زهدى الفاتح « لورانس فى خطى هرتزل » قال لورانس « إن شئنا ضمان السلام فى جنوبى سوريا والسيطرة على جنوبى بلاد ما بين النهرين وجميع المدن المقدسة ، فيجب أن نحكم دمشق مباشرة أوعن طريق حكومة صديقة غير إسلامية » !!!

فهل يعنى لورانس بالحكومة الصديقة غير الإسلامية حكومتها فى السابق أم فى العصر الحاضر ؟!!

ولقد كشف هؤلاء النصارى عن وجوههم سافرة حين تولوا الحكم وتمتعوا بالسلطان فجعلوا من قوميتهم العربية عداوة الإسلام ونبذة علانية وفتنة المسلمين وأذيتهم لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة ، ولقد قاتلوا المسلمين حتى كانت الفتنة وقالت إذاعتهم على مسمع من المستمعين .

« آمنت بالبعث ربا لاشريك له وبالعروبة دينا ماله ثان .. »

وقالوا هاتفين : « البعث دينى ، والعروبة مذهبى » .

وقال قائدهم : « يجب تجميد القرآن لأنه يولد الكبت » .

ومزقوا القرآن فى حمص وامتهنوه فى السويداء وألقوه على الأرض[١] .

وعلى العموم فسلوكهم مع الإسلام والمسلمين هو سلوك الصليبية ،

---

(١) انظر : مجلة المجتمع ، ٧ شعبان ١٣٩٦ هـ العدد ٣١١ ص ١٤ ومانقلته عن جريدة العروبة — الحمصية — فى عددها رقم ٢٨٥ الصادر فى ١٩٥٤/٥/٣ م .

وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، لقد كان الصليبيون هم أبطال محاكم التفتيش فى الأندلس وغيرها ، وهؤلاء هم ورثتهم وعلى ملتهم وما ننسى ما نشرته جريدة بعثية من القوات المسلحة تحت عنوان « الله والرسول والدين والأخلاق دمى محنظة فى متحف التاريخ » .

وكان موقف الشيخ حسن حبنكة الإنكارى معروفاً ومشتهراً سمعت به وملأ آذان أناس كثيرين .

الفصل الرابع

نقد القومية العربية

عرفنا من الفصلين السابقين وهما دور اليهود ودور النصارى أن القومية ذاتها هدى يهودى ناسب طبيعتهم المغلقة ودينهم المحتكر لمصلحتهم، وانعزاليتهم عن جميع المجتمعات إلا بقدر مايستغلونها ، اتخذوا القومية الصهيونية كسلاح يحافظون به على ملتهم اليهودية الظالمة المغضوب عليها فنجحوا فى ذلك ، وأوصلوا بهذه الوسيلة إلى هدفهم الفاسد، من الأنانية بغير الحق ، وتفضيل محبة النفس على الحق ، واعتقاد الأفضلية على سائر الناس ، وأنهم شعب الله المختار ، ومن نسل الإله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

ثم إنهم قبل ذلك وأثناءه وبعده يتخذون القومية نفسها سلاحاً ضد أى تكتل يقف دونهم فى مايسعون به من فساد ، وأول ما أعملوا به هذا السلاح الفتاك هو وحدة النصرانية العالمية حيث كانت محل عبثهم ومنفذ مكرهم رغم ماتظاهرت به من قوة بتفتحها على العالم واتساعها بجميع الأجناس واجتماعها على النصرانية ، والاجتماع قوة ، فنشر اليهود فيهم فكرة القومية يفرقونها إلى قومياتها المتعددة ، فيسهل على الصهيونية العالمية (القومية اليهودية) ابتلاعها ، وكان ما كان من تفتيت امبراطورية النصارى العالمية ، وتفريق دينهم إلى مذاهب قومية . أى صار كل مذهب منها يخدم قومية من ذ به هب

انشطرت الامبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية ، أما الغربية فبقيت على كاثوليكية ولاتينية ، ديانة ولغة وسياسة ، وأما الشرقية فاتخذت المذهب الأرثوذكسي باللغة اليونانية سياسة وديانة ولغة . وحدث مايشبه ذلك عند ظهور المذهب البروتستانتي ، فإن الإصلاح الذى أخذ به النصارى الإصلاح الذى بشر به لوثر الشهير ودعا إليه ، حيث لم يكتف بإحداث أنشطار مذهبي فحسب ، بل أوجد بجانب ذلك انشطاراً سياسياً واجتماعياً خطيراً فى وحدة النصرانية لأن الكاثوليكية كانت أبقت الإنجيل باللغة اللاتينية وحدها ، وجعلت اللاتينية لغة الصلوات كلها .

ولكن لوثر حينما ثار على الكاثوليكية — وعلى البابوية التى تمثلها — قائلا بضرورة ترجمة الإنجيل إلى اللغات المحليه ليتمكن الناس من قراءته وفهمه مباشرة بلغتهم ، قد أحدث بهذا انقلاباً قومياً فى ظل الانقلاب الديني الذى جهر به ودعا إليه ، لأنه وضع حد السيطرة اللغة اللاتينية — التى كانت قائمة على معنوية الإنجيل — وقضى على نفوذ اللاتين المستمد من لغة الصلوات الدينية ، وطبيعة التشكيلات البابوية ، وفسح بذلك مجالا واسعاً لجعل المذهب والكنائس قومية بكل معنى الكلمة وساعده على النجاح ارتفاع الإنجيل السماوى المنزل ونسخه بالقرآن الكريم ، ووضعية الأناجيل البشرية كلها ، حتى لم يعد فى أيدى النصارى قاطبة إنجيل إلا وقد انقطع سنده بالمسيح واقتصر على تأليف من بعده ، ألفه وسماه إنجيلا ، هذا فى جميع الأناجيل التى يعترف بها النصارى ويعملون عليها كإنجيل متى وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ، وهذا مايقرره الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله فى كتابه : محاضرات فى النصرانية، ولذلك ساغت مطالبة لوثر بترجمة الإنجيل هـــذا إلى اللغات المحلية ، فأصبحت جميع الكنائس البروتستانتية فى جميع البلاد الأوربية قد

أخذت شكلا قومياً . وعاد لكل قوم إنجيلهم بلغتهم القومية وكنيستهم بتقاليدهم القومية ، ومابقى بين دول النصرانية وطوائفها رابطه على أساس واحد من دينهم بل جرت الحروب الطاحنة بينهم بسبب القومية[1] ، التى سقاها اليهود بنشر الفوارق التاريخية ونبش المدافن لإخراج الآثار المتباينة ، بدافع تقوية قوميتهم « الصهيونية العالمية » وتمزيق كل تكتل عالمى ضدهم ، وامتصاص مشاعر الكراهة ضد هديهم الفاسد بالمشاركة فيه

ولما استوى النصارى مع اليهود فى هذا الاغترار القومى واستساغ النصارى طريقة اليهود وحصل الرد بينهم على هذا الأساس القومى اتفقوا جميعاً على أن يبثوا داءهم فى الخلافة الإسلامية المتحدة على أساس الإسلام من جميع أجناس العالم ، وبدأت القومية تنتشر فيها أولا فى الاتراك ثم فى العرب نشروها فيهم على المفهوم الأوربى أى كغاية محبوبة من دون الله .

ولقد تقدم فى الفصول الثلاثة السابقة من الأدلة والبراهين مالايدع مجالا للشك والريب أن فكرة القومية العربية . فكرة أوربية نصرانية يهودية ولو لم يكن من أمرها إلا أنها كذلك لكفى كل ذى عقل رشيد أن يرفضها ويرتاب بكل ماتروج به ، وتحسن من مغريات ومطامع لاتعدو أن تكون مصائد وحبائل ومكائد .

ولقد بين الله لنا أتم بيان وأوضح برهان عن مقاصد اليهود والنصارى فينا وعن حقيقة عواطفهم ومودتهم .

قال الله تعالى : (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين

---

(١) انظر : ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ص ٤٨ ، ٤٩ .

أن ينزل عليكم من خير من ربكم)(١) .

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق)(٢) ،

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير)(٣) .

(ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)(٤) .

(وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)(٥)

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ومايضلون إلا أنفسهم وما يشعرون)(٦) .

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)(٧) .

---

(١) البقرة ١٠٥ .

(٢) البقرة ١٠٩ .

(٣) البقرة ١١٩ .

(٤) آل عمران ٦٧ .

(٥) البقرة ١٣٥ .

(٦) آل عمران ٦٩ .

(٧) المائدة ٤٩ .

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)(١) .

وقوميو النصارى مشركون لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ثم اتخذوا القومية كغاية محبوبة من دون الله على نمط اتخاذهم الأحبار والرهبان والمسيح أربابا كما هو مقتضى المنطق الذى بدأوا به فى الإنحراف وهو تأليههم المسيح .

ومن هذه الآيات الكريمة إذا تأملناها وتدبرناها لايبقى عندنا شك فى أن اليهود والنصارى ، مغضوب عليهم وضالون قد أضلوا كثيراً ، وليس عندهم خير لأحد مادام هذا فعلهم بأنفسهم . وإن زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً فإنه ليس بحسن ولا فيه مصلحة فى الدنيا والآخرة .

ثم لننظر إلى الواقع للقومية ذاتها نظرة إنصاف نجد أن واقعها منذ بدئها بتأسيس جمعية بيروت السرية ١٨٧٦ م عكس مايبشر به القوميون من قوة ووحدة وعزة تأتى به القومية تماماً .

فقد كان العرب قبلها متحدين بينهم تحت ظل خلافة المسلمين ، ومعززين بالإسلام ، ومتقوين بالمسلمين ، ثم فصلوا بالقومية العربية ، وأفردوا بها كما يفرد البعير المعبد . ثم تجزأت هذه القومية على نفسها إلى أكثر من عشرين دولة ، ولم تستطع هذه القومية أن تجمع نفسها ، خلال هذه المدة الطويلة وكلما اشتدت الدعوة إليها اشتدت بتفريق أهلها كما يحدث فى بيروت بؤرة القومية العربية ومنبت دعوتها من حروب أهلية .

ونظرة تاريخية إلى ميدان القومية التنميذى كافية فى الحكم على أنها

---

(١) المائدة ٨٢ .

لاتنموا فى غير ميدان عبودية غير الله تعالى ، كميدان العسكرية فى أوربا كألمانيا وغيرها ، تلك التى انحرفت عن أن تكون جندية لله عزوجل وفق المشروع الاختيارى الربانى ، وأصبحت فى دائرة اختيارها جندية لغير الله ، للحاكم مثلا ، وسرت عدواها إلى جميع القطاعات العسكرية التى تدربت على نظم العساكر الأوربية هذه ، وساعد على ذلك رغبة الحكام الجامحة إلى درجة تأليهها لهوى النفس فنازعت الله سبحانه فى حكمه ودلاها الشيطان بغروره ، وأوهمها أن الحكم اللائق بهم هو الحكم المطلق من شرع الله تعالى ، وزين لهم الشيطان أن يروا الجندية تضحية فى سبيلهم وطاعة عمياء تصرف لهم وحدهم ، وباتفاق الطرفين السياسى على هذا ، صارت العسكرية عبودية للعبيد ، والعسكرى فى سخرة لهذا التعبيد ، أن أداها كاملة فهى لم تنشأ عن اقتناع باطنى ولا عن سلامة قلب وإنما يؤديها وفى أعماق ضميره أنه وضعها فى غير مكانها يسايس بها ويتصيد ضروراته التى توهم أنه لايقضيها إلا بهذا المسلك ، ولذا فهو ، يتعذب ويتمزق داخلياً .

فانفجر عن ذلك ثورات عسكرية ، وطغيان جامح بالحرية ، وظهر المتصفون بالأحرار من ضباط وغيرهم ثائرين على الملوك والأمراء والسادة والأشراف والنبلاء والإقطاعيين بل وعلى جميع الثوابت والمرامى للمجتمعات . .

وهكذا أتى أولئك الحكام المتألهون من قبل من عبدوهم وظنوهم مأمناً لهم وجنداً محضراً .

ولما انفلت العسكر من عبودية الأفراد ، وتقديس تصرفاتهم الفردية الخاطئة ، ولم يستطيعوا إنكار فطرة التعبد ولا محوها من كيانهم ،

وكان الشيطان قاعدا بأعوانه صراط الله المستقيم ، يحرف فطرتهم السوية فزينوا لهم عبادة الأمة وفكرة القومية كغاية محبوبة من دون الله ، وحيث كانوا حديثى عهد بالطاعة العسكرية العمياء قبلوا هـذه الفكرة وظنوها ، السعة المطلوبة والرحبة المنشودة ، فالأمة أوسع من الأفراد ، لكن إذا وصل الملهم القائد من هؤلاء العسكر إلى مركز السلطة ، استهان بالأمة التى يرى أنه اعتلى رئاستها ، وزين له الشيطان عبادة نفسه ، وكرسيه . ورغب فى استعباد من دونه ، وضحى بمن ينازعه هذا الهوى وإن كان زميله وعوينه بأى وسيلة ولو بالغدر والحيلة .

وهكذا يعود الإنسان التائه إلى مبدأ ضلالة الأول ويستمر فى هذا الدوران إلا أن يهديه الله فلا مضل له ، فلوترك هذا الإنسان هواه لأمر الله وقام ممتثلا لأمره على سنة رسوله صلى الله عليه وسلم واكتفى بذلك لكفاه الله فإن جعله الله حاكما نفذ حكم الله فى خلقه وعامل خلق الله بأمر الله وشرعه وتوكل على الله فيما يهمه فإن حفظه وسخر له شكر . وإن اقتضت حكمته أن يبتليه فى هذه الدنيا صبر محتسباً الأجر فى الحياة الأخرى الخالدة ، وإن جعله الله محكوماً فهو يقوم بواجبه يرى أنه من جند الله يطيع حاكمه مالم تعقه عن طاعة رب العالمين .

وهذا هو الوضع السليم القوى العميق، الذى ينبثق من القلب ، ويعمر جوارحه بلا تردد مع كل خطوة يخطوها

وكم بين جند الله المسلمين فى طاعتهم لأمرائهم وخلفائهم فى السر والعلن موقنين بأنه إن لم يرهم الأمير فرب الأمير يراهم وبين جند الله الكافرين بربهم ، وهو ربهم الكريم ، الذى خلقهم فسواهم فعدلهم ، فى أى صورة ماشاء ركبهم ، فى خداعهم ونفاقهم وتربصهم الدوائر بأمرائهم

وخلفائهم ومتى أمكنتهم القدرة الإلهية لايرقبون ربا ولايفون بعهد ولا ذمة ؟ .

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(١) .

والذى لامراء فيه كما تقدم أن فكرة القومية العربية فى مصطلح أهل هذا العصر هى فكرة القومية فى أوربا ، أى الدعوة إلى العروبة كغاية ، إنما محبوبة من دون الله على غير شريعة رسوله صلى الله عليه وسلم بل على سنن الشيطان وخطواته باليهود والنصارى وسائر المشركين ، وهذا مصداق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون ، شبراً بشبر ، وذراعا بذراع ، فقيل يارسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا أولئك ؟ »(٢) .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لودخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »(٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وليس هذا إخبارا عن جميع

---

(١) الرعد : ١١ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب ١٥ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الاعتصام ، باب ١٥ ، وفى مسلم ، كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، ٢٢٠/٢/٢ .

الأمة ، بل قد تواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة »[١] وأخبر صلى الله عليه وسلم «إن الله لايجمع هذه الأمة على ضلالة »[٢] و « إن الله لايزال يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته»[٣] فعلم بخبره الصدق أن لابد فى أن يكون فى أمته قوم متمسكون بهديه الذى هو دين الإسلام محضاً ، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب دين النصارى .

« وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الإنحراف بل وقد لايفسق أيضاً ، بل قد يكون الانحراف كفراً وقد يكون فسقاً وقد يكون سيئة ، وقد يكون خطأ ، وهذا الإنحراف أمر تتقاضاه الطباع ، ويزينه الشيطان .

« فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهدايا إلى الاستقامة التى لايهودية فيها ، ولا نصرانية أصلا »[٤] .

والدعوة إلى العروبة ، كغاية ، إذ عرضناها على ضوء الإسلام فبحثنا فى القرآن الكريم نجد أنه لم يرد فى القرآن المبين لفظة العروبة والعرب بعينها ، ولا نجد فيه أن الله تعالى ناداهم بهذا اللفظ الخاص فلم يقل : « يا أيها العرب » أو « ياعرب » كذلك لانجد فيه أن الله تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم بهذا اللفظ فلم يقل : « قل يا أيها العرب »

---

(١) هو فى صحيح البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب ١١ .

(٢) انظر : مسند أحمد ١٤٥/٥ . والترمذى ، أبواب الفتن ، باب (٧) فى لزوم الجماعة .

(٣) هو فى سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب ١ رقم ٨ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، ص ٥ ، ٦ .

أو قل ياعرب . وإنما نجد « يا أيها الناس » و « يا بنى آدم » و« يا أيها الذين آمنوا » و « قل يا أيها الـكافرون » .

وبما أن العرب جيل من الناس فقد دخلوا فى الناس فى خطابهم ، ولأن العرب من بنى آدم فقد دخل خطابهم فى خطاب بنى آدم كذلك ، وبالأولى يدخل مؤمنهم فى خطاب المؤمنين وكافرهم فى الـكافرين ، وهم أول من يدخل فى خطاب الناس وأول من يعنى بالدعوة إلى الله وبالبشارة والنذارة .

ولا نجد فى القرآن الـكريم نداء للرسول صلى الله عليه وسلم بـ « يا أيها العربى » أو « ياعربى » لـكن نجد فيه « يا أيها النبى » مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عربى وذلك إشارة إلى أنه مخاطب بما هو أعلى وأعز ، بالرسالة ، وبالنبوة ، لا بالعروبة والعربية . بل لانجد فى القرآن الـكريم خطابه : بيامحمد كما لم نجده خطاباً مرغوباً فيه من الصحابة مع أن اسمه محمد ، وإنما المرغوب خطاباً ونداءا هو « يارسول الله » ، « يانبى الله » ، وذلك إشارة إلى تعيينه بالرسالة ، كما قال الله تعالى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً)(١) .

ونداؤه بالرسالة أعظم من ندائه باسمه المجرد وإن كان حسناً يدل على المحامد .

ثم إذا تأملنا فى القرآن الـكريم لانجد نفيا للفظة « عرب » ولامادلت عليه ولا نهيا عن ندائهم ، ودعوتهم إلى الإسلام لله تعالى بهذا اللفظ أو بما يدل عليه . ونجد فى القرآن الـكريم : « قل ياقوم » و « وإنه لذكر

(١) النور ٦٣ .

لك ولقومك وسوف تسألون »، و « وأنذر عشيرتك الأقربين »، فناداهم، ودعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الخصوص وعلى العموم يدعو إلى الله على بصيرة .

وفى القرآن الكريم المبين نسبته إلى أنه نزل بلسان عربى مبين ، وفى معرض الامتنان من الله وأنه نزل كذلك لعلنا نعقل ، كما قال تعالى : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)(١) .

وقال البخارى : « باب نزل القرآن بلسان قريش » وساق بسنده عن أنس أن عثمان رضى الله عنه دعا زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ذلك »(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « فلم يختلف لسان قريش والأنصار إلا فى لفظ (التابوت) ، فالأنصار يلفظونه التابوه وقريش تلفظه التابوت فرفعوه إلى عثمان فأمر أن يكتب بلغة قريش فكتبوه التابوت بلغة قريش »(٣) .

وليس معنى هذا كما يوهم القوميون أن القرآن بحاجة إلى لغة العرب

---

(١) يوسف ٢ .

(٢) صحيح البخارى ، ج ١٤٤/٤ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، ترتيب : عبدالرحمن بن قاسم ، م/١٥/ت/٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

وإلى العرب ، بل العكس هو الصحيح ، أى أن اللغة العربية بحاجة إلى القرآن لتبقى وتشرف ، والعرب هم المحتاجون إلى أن يحملوا القرآن الكريم لأنه ذكرهم وشرفهم كما قال تعالى : (وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)[١] .

وما تبوأ العرب مكانهم القيادى فى العالم كله ولن يتبوأوا ذلك إلا بالقرآن ، كما شهد بذلك الأعداء فضلا عن أهل القرآن .

والقرآن ليس بحاجة فإنه كلام الله ، والله له الملك كله ، وهو الغنى الحميد ، وهو بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير .

وقال الله عن القرآن : (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم)[٢].

وقد حفظه أناس غير عرب يتشرفون به على حين أن أكثر العرب ينأون عنه وينهون مصداق قول الله تعالى : (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)[٣] .

وقد عاب الله على الأعراب الذين لم يدخل الإيمان فى قلوبهم مثل ذلك الموقف فقال تعالى :(يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين)[٤] .

والله أنزله آية عظمى فهو بلسان عربى مبين ولا يماثل الألسن كلها

---

(١) الزخرف ٤٤ .

(٢) الزخرف ٤ .

(٣) محمد ٣٨ .

(٤) الحجرات ١٧ .

حتى ولا لسان قريش الذى نزل القرآن به قال الله تعالى:(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[١] .

وفضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٢] .

ولا أجد فى القرآن الكريم ولا فى السنة دعوة إلى العروبة ولا إلى العربية كغاية ينتهى إليها ، وإنما فيهما الدعوة إلى الله والدار الآخرة على بصيرة بلسان عربى مبين ومن هنا أصبحت العربية وسيلة مشروعة ، « تعلموا العربية وعلموها الناس » ، ولكل إنسى أو جنى أن يدخل فى الإسلام ويتعلم وسيلة فهم القرآن والسنة بلا حاجز يحول دونه مهما كان من المخلوقات الناطقة ، وليست حكراً على قوم دون آخرين ، إنما هى فضل الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء .

ومن هنا فأعداء الإسلام ليسوا إلا أعداء للعروبية على الحقيقة وإن زعموا أنهم أولياءها ، إذ بموالاة الإسلام توالى العروبية وبعداوة الإسلام تعادى العروبية حتما .

ومحبة العرب لذلك من الإسلام ، وليس معنى هذا الحب ، أن نجعلهم غاية ، أو أن نحبهم من دون الله ، ونعبدهم فنوالى فيهم ونعادى لأجلهم بمجرد كونهم عرب وإن أشركوا أو تهودوا أو تنصروا كما يدعوا إلى ذلك دعاة القومية ، ولكنه حبهم لله وفق شرعة ، ومن حدودها أن

---

(١) الإسراء ٨٨ .

(٢) الشورى ١١ .

لاتخرجنا عن الإسلام بل تكون وسيلة لزيادة التمسك به ، وفى هذه الحدود معنى الحديث الذى ساقه العراقى إن صح فى كتابه « القرب فى محبة العرب » ص ٩٦ فقال : « حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحبوا العرب لثلاث ، لأنى عربى ، والقرآن عربى ، وكلام أهل الجنة عربى » هكذا رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ورواه الحاكم فى المستدرك بعينه لكنه من غير سند » قال العراقى : « ولحديث ابن عباس شاهد من حديث أبى هريرة رويناه فى المعجم الأوسط للطبرانى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى » قال المعلق فى هامش ص ٩٦ المذكورة : « قال العراقى فى ح — محجة القرب — وهذا حديث أصح من حديث ابن عباس المتقدم[1] .

أما حديث « حب الوطن من الإيمان » فهو موضوع كما قاله الشيخ محمد بن السيد درويش فى كتابه : « أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب » تحت حرف الحاء .

بهذا يتبين أن الدعوة إلى العروبة كغاية من دون الله أو إلى الوطن كذلك كأنداد محبوبة على غير ماشرع الله غير موجودة من الإسلام ولكنها موجودة من هدى اليهود والذين أشركوا ومن هدى النصارى ، نجدها دعوة للعرب أن يتحدوا على أساس العروبة المجردة من الإسلام ، دعوة للعرب أن يقبلوا واقعهم أمام أعدائهم وأن يجاروهم فى حضارتهم

---

(١) القرب فى محبة العرب ، لمحدث مصر زين الدين عبد الرحيم العراقى ، تحقيق وتعليق إبراهيم حلمى القادرى ، ونشر عادل محمد البهى ، عبد السلام محمد سعيد ، ١٣٨١ هـ .

الغربية ، ويتركوا الإسلام ويعودوا إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية من شرك وإيثار للدنيا وشهواتها وتبعية لليهود والنصارى والفرس ، على مثال الصورة التى رسمها الدكتور ناصر الدين الأسد فقال :

إن عرب الجاهلية الأخيرة يستمدون حضارتهم مما ورثوه من بقايا ورواسب تلك الحضارات العربية التليدة المنقرضة ومن اتصالهم الوثيق الذى كان يربط عرب الجزيرة بالحضارات القائمة فى جوارها من فارسية ورومية ومصرية الخ . . وربما كانت أهم سبل هذا الاتصال هى :

١ — الإمارتين العربيتين : المناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام فاتصالهما بالفرس والروم من جانب وبالجزيرة العربية من الجانب الآخر بمثابة قناة انسرب منها أثر هاتين الحضارتين إلى الجزيرة العربية .

٢ — الطرق التجارية المنظمة والعهود والمواثيق التى تربط العرب بقوافل التجارة يتعهدون بالمحافظة عليها لقاء جعل يأخذونه .

٣ — الأسواق والمواسم العربية فى أطراف وقلب الجزيرة يؤمها العرب والتجار من مختلف البقاع وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية فيحصل أخذ وعطاء ومبادلة .

٤ — الجاليات الأجنبية الوافدة على جزيرة العرب فمنهم النصرانى واليهودى والمجوسى، والوثنى، ومنهم الفارسى والرومى والمصرى والهندى والحبشى ، ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فافتتح فيها دوراً للهو من غناء وشراب وبغاء ، ومنهم من جاءها فأنشأ فيها مستعمرات ، زراعية فعمر الأرض وأثارها هناك ومنهم من جاءها لغير هـــذا وذاك كالبعثات التبشيرية ، الدينية التى أنبثت فى أنحاء الجزيرة وجاست خلالها وانتشرت

بين أهلها وأقامت البيع والصوامع والأديرة فى المدن والصحراء .

٥ — الجماعات والأفراد من العرب أنفسهم الذين كانوا يفدون على فارس والروم والحبشة ومصر للتجارة وللتعرض لعطاء الملوك والسادة أو لنزعات نفسية وخواطر فكرية استبدت بهم فكانوا : يطلبون فيما نأى عن ديارهم مايفيدهم .

ويقول الدكتور الأسد : « وإذا كان يحلو لبعض الباحثين أن يجعلوا لأهل الكتاب فى الجاهلية سهما فى الحضارة أوفر . . . فمن يكون أهل الكتاب أولئك ؟ ثم يجيب بقوله : « وكيف يغرب عنا أن نصارى بلاد العرب ويهودها لم يكونوا — ماعدا قلة قليلة من الوافدين — غير قبائل قد تنصرت وتهودت ، قبائل كاملة بقضها وقضيضها » .

ويشيد الدكتور الأسد بحضارة العرب فى الجاهلية الأخيرة : « بأنها تنحدر من معالم حضارة تليدة قامت فى بلاد العرب كالتى قامت فى اليمن سبأ وحمير وفى الحجر عاد وثمود وفى بترا ، دولة الانباط ويتلقف عن ونكلر الأوربى قوله الفاتن : « إن تاريخ الجزيرة العربية كما توضحه النقوش يظهر لنا مجموعة من الحكومات والدول المنظمة منذ أقدم القدم » وقول هومل الأوربى الآخر : « إن الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ونقوشها وحصونها وقلاعها لابد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد » ، « إن أهمية العرب فى الشرق القديم تكمن فى مجال الحضارة والدين ، ويكفى أن نذكر كلمتى البخور ، وعبادة النجوم ، لندرك أثر العرب فى الأمم المجاورة لهم ولاسيما العبرانيين واليونان »[1] .

---

(١) انظر الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية من ص ٢ حتى ١٨ .

هذا ماتفتخر به القومية العربية وتدعو إليه معتزة فى الوقت الحاضر، وهى لاترى غير الحياة الدنيا ولاتريد سواها وتنظر إلى الغرب على أنه قبلة التقدم والرقى ، وأنه ينعم بمباهج عظيمة وترغب أن تستمتع بمثلها وغاب عنها كما اختارت، أن ذلك المتاع الباهر سيزول ، وليس ذلك العمل الجبار، والحصيلة الضخمة ، والسلطات والعمران بنافع مالم يرد به وجه الله تعالى وحده ، ويوجه على نحو لايزيل سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بل على وجه يقوى نشرها ويمين على ظهورها فإنه حينئذ ينفع ويبقى ، ينفع فى الدنيا ، ويبقى فى الآخرة .

يذر القوميون الرماد على العيون حينما يمدحون عرب الجاهلية بمايتصفون به من خلال كريمة ، كالوفاء والصدق والكرم والمروءة والذكاء والفهم والفطنة والبلاغة والفصاحة والبيان وسائر الشيم الكريمة ليوهموا أنها من ذواتهم ، أومن مقتضاها ، أو أعطوها لكرمهم وفضلهم على الله ، فسبحان الله ، أنه لانكران لما يتصف به العرب مما ذكر من الشيم الطيبة وأمثالها على الجملة وهو من فضل الله تعالى من غير أن يكون لهم فيه أدنى مستوجب بغير إذن الله ومشيئته ، ولم ينقصها الإسلام بل زادها تماماً وزكاء ، وكذلك شأن الإسلام فى كل بناء صالح من محسوس ومعقول لايزيده الإسلام إلا رسوخاً وثباتاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] وقال « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »[2] وأثنى على

---

(١) انظر : فى مسند أحمد ٢/٣٨١ « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

(٢) صحيح البخارى ج ٤/١٤٢ ، مناقب ١ .

حلف الفضول الذى وقع فى الجاهلية على أن لايظلم بمكة أحد إلا قاموا بنصرته حتى ترد ظلامته(١) .

ولكن ينفر القوميون أن يراد بذلك وجه الله وحده وأن ينظم على سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك لايريد أهل الغفلة ممن يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون أن نقول كل مالم يرد به وجه الله تعالى فهو باطل مهما نما وازدهر لأن الله تعالى يقول : (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباءا منثورا)(٢) .

لاشك أن الأعمال الصالحة نافعة ومرغوبة لكنها ليست كافية ولا من مهالك الدنيا والآخرة مالم يرد بها وجه الله تعالى أى تكون منبعثة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، اللهم صل وسلم عليه ، قال الله تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم)(٣) .

وقال تعالى : (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)(٤) .

ولا يفرق القوميون بين تلك الشيم الكريمة وبين تلك الأوابد المنكرة فى حياة الجاهلية ، كعبادة غير الله تعالى من الأصنام والآباء والأجداد

---

(١) انظر : حلف المطيبين فى مسند أحمد ١/١٩٠ .

(٢) الفرقان ٢٣ .

(٣) الأنعام ٦ .

(٤) الأحقاف ٢٦ .

والقوم والملوك والتجار والملائكة والنجوم وغيرها ، وإنكار اليوم الآخر وهروبهم عن واقعهم المتناقض المحير إلى السكر بملذات الدنيا وشهواتها من خمر ومال ونساء ولهو وجاه وبنين ، وتبعية يستأسر لها التابع كقول دريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[١]

وكالأخلاق الذميمة من هتك للمحارم وزنا وصعلكة وقرصنة وسرقة وفتك وصرعة ومظالم منكرة .

فإذا ذكر القوميون مثل هذه الأمور أو ذكروا بها ، سموها حمية وحضارة إلى غير ذلك من أسماء تشعر بالمدح والافتخار على نمط مايقرره أهل الغرب ويحكمون به إيجاباً وسلباً ،ولهذا قال كبيرهم ساطع الحصرى: « أقول بلا تردد : إن أول الواجبات التى تتحتم علينا لتقوية الإيمان القومى هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية » وقد تقدم فى العرض ، وسيأتى قريباً إن شاء الله تعالى .

وإذا تأملنا جميع تعريفات القوميين للقومية وشروحها فإننا نجد أنها لاتخرج عن هذا النطاق بل تؤدى إليه ، ونجد أنها تلتقى مع نظرية الحصرى للقومية العربية ، ولاتعارضها فى جوهرها على أنها قومية العرب على أساس عروبتهم فحسب ، ولكى نستعيد تصور تعريفاتهم بسرعة أكرر هنا خلاصة لها سريعة ، أنهم يقولون :

إن القومية عموماً والعربية خصوصاً على أساس ذاتها : هى الرابطة

---

(١) الأصمعيات ، ط ، دار المعارف ، ص ١١٢ ، والمرزوقى على الحماسة ، ٨١٥/٢ ، نقلا عن شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ، ص ٦١ .

الفعالة فى هذا العصر ، الوحيدة ذات القوة بين أبنائها ، لأنها طبيعية ، وللطبيعة عندهم أحكام حتمية . كما هو مقتضى فكرهم المتنور . لاتخضع لمشيئة خارجة عنها ، على اختلاف بينهم فى تعيين ماهية هـذه الرابطة ومحورها ، وعلى هذا الأساس يعتقدون جازمين أنه يحق لـكل أمة أن تستقل بنفسها وأن تدير شؤونها وتؤسس دولة خاصة بها عن أمرها دون أن تخضع لمشيئة خارجة عنها لم تنبع من ذاتيتها ، ويوجبون على كل فرد أن يحقق هذا لأمته بكل مالديه من قوة بلا حساب ولا مناقشة مادام فى هذا السبيل ، ولا مكان عندهم لحساب مابعد الموت ، بجانب التضحية فى سبيل القومية العربية الواجب لديهم ، لأن القومية العربية رابطة لاانفصام لها فى نظرهم وكائن طبيعى حتمى بذاته ، ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر على كل رابطة سواها وإن تـكن الرابطة الإسلامية ، وفى جميع الميادين ، كما فعلت القومية فى أوربا وانتصرت حتى على رابطة دينهم ، وأحدثت تحولات خطيرة دولية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، وحدث لها فى البلاد العربية تأثيرها الفعال الذى سيؤدى إلى انقلابات سياسية ومعنوية هامة ، فى جميع أنحاء العالم العربى وبين جميع الشعوب العربية .

هكذا يقولون ، وبهذا يعملون ، ولذا فإنهم يبشرون بأنها طريق النصر وسبيل التقدم ومفتاح العز ورباط الوحدة التى لاتنفصم ، وسبب الود الذى لاينقطع ، وأنها رسالة هذا العصر ، وأصلح له وأقرب منالا من الإسلام ، فالإسلام انتهى دوره بجانبها ، والوحدة الإسلامية أمل غير معقول بجانب الوحدة العربية الحق فى نظرهم . ويرون أن الإسلام ذاته ماهو إلا ذات العروبة ، التى أنشأته فى العرب وهو من أمرها واجهت به زمناً مضى فأخذ مرحلته التاريخية من الزمن ثم انتهى دوره فى عصر

النهضة الأوربية الـكاسحة ، ولم يعد له مكان فى هـذا العصر وهو عصر القوميات .

هكذا توهم هؤلاء الأغرار فى دين الحق ، الإسلام ، الذى جهلوه ولم يبق منه فى نفوسهم وفيهم إلا اسمه ، توهموا أنه دين كالأديان الأوربية الأخرى تشرعه البشرية لنفسها ، ويأخذ مرحلة تاريخية وسلطة زمنية (مؤقتة) ثم ينتهى وتنتهى معه .

هكـذا يتصور النصارى واليهود أو يريدون أن يتصور هـكذا ، فيزعمون أن الإسلام دين العرب فحسب ، أو أنه إنما نبع من ذاتية العرب وإليهم يعود ، وأصله العروبة الخالدة كما يوهمون .

فهيا بنا ننظر حصيلة هذه القومية العربية ، فمنذ بدأت قبل قرن من الزمان نجدها تسير قديماً نحو التمزق كما هو شأنها الروحى ، ثم التناحر ، ثم الاستخذاء والتبعية المذلة تماماً كما كان فى العرب إبان الجاهلية الأولى ، فما أشبه الليلة بالبارحة ؟

ماذا أكسب القوميون العرب أمتهم ؟ أنهم لم يكسبوها سوى الهزائم المنكرة ، والتبعية ، إما للشرق الشيوعى الملحد ، وإما للغرب الصليبى المفسد ، وكلاهما مذلة ذميمه ، فلم يكسبوها إلا إهانة كرامتها على أيدى اليهودى البغيضين ، وشماتة الأعداء خصوصاً الذين وردوا لهم مبدأ القومية : يقول برنارد لويس رئيس قسم التاريخ فى كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن :

« . . . مابين عام (١٩٣٠م — ١٩٤٥م) كان المحور والحلفاء يغذون العرب بنداءات الإطناب والمدح ، وهذا ماشجع الميل على التركيز على

عبادة الذات ، وهو ميل موجود فى كل الحركات القومية وكانت الهزيمة العسكرية العربية فى فلسطين على أيدى اليهود المكروهين ، صدمة عنيفة للعرب لا تقل فى عنفها عن الانهزامات السابقة

« وكان رد الفعل فى هذه الصدمة سريعا ، فنى مدة سنوات قليلة بعد عام ١٩٤٨ م سقط جميع الحكام الذين كانوا سنة ١٩٤٨ م وقتل عدد منهم . . .

« فى سلسلة من الثورات والتشنجات التى ازدادت عنفاً وكنست أنظمة حكم الملوك والباشوات وملاك الأراضى المحافظين، وأطلقت قوى جديدة لم تحدد طبيعتها ، ولم يعرف اتجاهها بعد .

ومن أهم الأهداف العاطفية الغالية للحركات العربية الجديدة . الوحدة العربية والتى تعنى على الأقل تعاوناً أوثق ، وغايتها ذوبان الدول العربية كلها فى دولة واحدة . وهناك اتفاق عام على الحاجة لاتباع طريقة ألمانيا وإيطاليا فى الوحدة التى قامت فى القرن التاسع عشر ولكن الاتفاق لم يتم بعد على من ستلعب دور بروسيا ومن ستلعب دور (سافوى) .

وكان المرشحان المتنافسان مصر والعراق ، ومنافستهما — بالرغم عن انقطاعها فترات معينة — بقيت لمدة طويلة مع تغيير الحكومات والنظم فى كلا الدولتين ، وكان للدول الكبرى حصة كبيرة فى إذكاء نارها وتعقيدها من الجهتين . . .

« كان يظن أن موضوع الجامعة العربية هو وسيلة إنكلترا لتوحيد المنطقة بعد الهزيمة ، وفرنسا أخرجت مطرودة ، وأمريكا لم تكن راغبة وروسيا كانت غير قادرة على أن تلعب الدور . .

« وفى أواخر سنة ١٩٤٩ م كانت أميركا تسعى لتلعب دوراً أوسع وأكثر نشاطا فى الشرق الأوسط كله . .

« فالخطر الشيوعى يتزايد وبريطانيا لانشغالها — بمشاغل أخرى — غير قادرة بعد الآن على تحمل المسؤولية كاملة لحماية المصالح والمدنية الغربية فى المنطقة . .

« وبضربة واحدة وضع الاتحاد السوفييتى نفسه موضع القوة والنفوذ فى قلب الشرق الأوسط . . فى أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٥ م بتوقيع (مصر) صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا . . ويقول :

« سنكون لاشك أقدر على فهم الموقف إذا لم ننظر إلى عدم الرضى القائم فى الشرق الأوسط على أنه تناقض بين دول أو شعوب بل على أنه صدام بين حضارتين ، فالمناظرة الكبرى كما سماها « جيبون » بين المسيحية والإسلام ، لاتزال قائمة . .

« قام البعض يدعو لسياسة معاكسة باتخاذ موقف حازم معارض أو على الأقل بعدم الاهتمام ، بالقومية العربية ، وهناك من يحاول دعم هذا الخط السياسى بترديد مقاطع استعمارية ، فولكلورية مريبة من أمثال : « القوة هى اللغة الوحيدة التى يفهمها العرب . .

« ودعنا من القيم الأخلاقية التى يجب أن يقام لها وزن فى الموضوع ، ولنسأل أنفسنا هل سياسة القوة هذه ممكنة أو مرغوبة ؟ . .

« هل نستمر فى معاملة العرب كأطفال (مدللين) يستحقون إما الضرب والحبس فى غرفهم أو إغراقهم بالحلوى والفطائر . . ليسكنوا ويهدأوا . .

« إن البلاد العربية تمر بأزمة تاريخية عميقة تسبب فترة من عدم الاستقرار . . .

« وفى نظر العرب أن الغرب هو سبب الأزمة — وهذا صحيح إلى حد ما — ويمكن التفتيش عن أصلها فى النتائج المفككة التى أثارها « التغريب » فى المجتمع الإسلامى المحافظ . وعلى الرغم من أن التحول كان على أيدى مسلمين (متغربين) يحملون نفس القدر من مسؤولية الحكام الغربيين ، إلا أن بدء « التغريب » كان بإثارة ودفع الغرب . .

« الاتفاق مع القومية العربية أمر حسن — إذا كان ممكناً — ولن يتم اتفاق دائم إذا اتفق مع الزعماء القوميين لأن مركز هؤلاء عرضة للزوال ، والواقع أن الخطر فى خسارة اتباعهم يبدأ عند . . اتفاقهم مع الغرب ، ومن الصعب الوصول لشروط محددة مع حركة تمثل مزاجاً أكثر مما تمثل برامج »[1] .

هذه كلمات برنارد لويس ، كلمات عدو خبير ، ليس للقومية العربية ، فالاتفاق معها أمر حسن مادامت معول هدم للإسلام بل معول هدم فى وحدة الأمة العربية ذاتها ، وفى كيان العرب المتفرق بطبعه والذى لم يجمعه سوى الإسلام ، فإذا رد إلى طبعه ، رد إلى تفرقه وتمزقه كما يشهد بذلك التاريخ فى الماضى والحاضر .

ولذا كان لويس وأضرابه عدواً للإسلام الذى هذا شأنه مع هؤلاء المحسودين ، والمطموع فيهم ، العرب ، الذين أعزهم الله بالإسلام بعد الذلة ، وأغناهم به بعد العيلة ، وكثرهم به بعد القلة ، ووحدهم به بعد الفرقة .

---

(١) برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، من ص ١٩٨ حتى ٢٣٢ .

وفى كلمات هذا الخبير العدو صدق وحقيقة ، وكيف يعدل الشامت عن الصدق وفيه بغيته ؟ .

فهو يبين هنا وهو الخبير بالداء الذى زرعه قومه أن القومية العربية موقدة فى العرب من دول « المحور والحلفاء (الذين) يغذون العرب بنداءات الإطناب والمدح ، وهذا ماشجع الميل على التركيز على عبادة الذات . . وهو ميل موجود فى كل الحركات القومية » .

وأنه مقصود بها : هزيمة العرب العسكرية فى فلسطين على أيدى اليهود المكروهين ، وصدمتهم صدمة عنيفة لاتقل عن الصدمات العنيفة من الهزائم السابقة ، هزائم الخلافة أمام الغرب ، وردة الفعل السريعة التى كنست أنظمة حكم الملوك والباشوات وملاك الأراضى المحافظين ، فى سلسلة من الثورات والتشنجات العنيفة ، وإحداث أزمة تاريخية عميقة تسبب فترة من عدم الاستقرار فى البلاد العربية ، وأن ذلك مقتضى المناظرة الكبرى كما سماها جيبون بين المسيحية والإسلام » ، فلما تم هذا « قام البعض يدعو لسياسة معاكسة باتخاذ موقف حازم معارض ، أوعلى الأقل بعدم الاهتمام بالقومية العربية . . . الخ .

ولما تم الغرض منها فضحت بأنها : « حركة تمثل مزاجاً أكثر مما تمثل برامج » .

ولندع هؤلاء الشامتين من أهل الغرب ، ونلتفت إلى قومي العرب أنفسهم ، هل كانوا جادين فيما يزعمونه غايتهم من القومية العربية ؟ يزعمون أن الغاية هى الوحدة العربية ، فهل تحققت ؟ أم أن الذى تحقق هو عكسها ؟ كم زاول القوميون من إفساد على سلطان وازع ، وملك حازم ؟ بحجة أنه مستبد بالأمر ، أى لم يضعه فى غير أهله ، لم يجعله كالملك المشاع فى

الدهماء وعامة الناس وجماهير الأمة فيختطف من أهله ، يختطفه من ليس له بأهل ، وكم زاول القوميون من تغيير لمعالم الإسلام القائمة ؟ كالجهاد ، والفرقان بين المؤمن والكافر وبين الرجل والمرأة فى المواريث والقدر وسائر الفوارق الربانية ، والمحاكم الشرعية والحكم بما أنزل الله . والالتزام بالأخلاق والقيم الكريمة ، بالثورة الهوجاء ، والفتنة العمياء ، والحمية الظالمة الباغية ، بحجة أنها لاتلائم القومية العربية ، وأنها عوائق تحول دون الوحدة بين العرب من كل ملة . . فيجب أن تزاح عن الطريق وهل عوض القوميون أمتهم العربية بشىء من ألوان الوحدة والأمن والهداية؟ أو أبقوا عليها بقية من العزة والكرامة ؟ .

هل كان دعاة القومية يؤمنون بالقومية كما يصورونها للناس ؟ وهل يجهلون تناقض نظريتها . وفسادها ؟ .

هذا كبير القوميين « العربى الكبير » على حد تعبير بعضهم ، ساطع الحصرى ، ونظريته كما تقدم فى العرض ، إذا تأملنا أقواله يتضح تناقضها ، ومن هذا التناقض ما يلى :

١ — يقرر الحصرى أن الفكرة القومية لم تنشأ قبل أوائل القرن التاسع عشر ، ويقرر بجانب ذلك أن اللغة هى روح الأمة وحياتها ، بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى ، أى إذا وجدت اللغة وجدت الأمة روحها وحياتها ، وإذا فقدت اللغة فقدت الأمة روحها وحياتها ، وهى بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى ، فإذا فقدت اللغة نامت القومية ، وإذا وجدت اللغة قامت القومية .

فهل الأمم التى دخلت الإسلام ، وتركت لغتها قد فقدت روحها وحياتها ؟ وهل نتذكر قوة اللغة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين ومن

بعدهم فى القرون الإسلامية المفضلة ، ونسأل لماذا لم تنشأ فكرة القومية العربية لديهم ، واللغة العربية موجودة بجميع مراتب الوجود لسانا وفكرا ورسما وتطبيقا مادام أن اللغة محور القومية وعمودها الفقرى الذى يقيم القومية ويشخصها ؟ أو ليست تلك الأمم العربية حقاً أولى بثمرات لغة يجيدونها أكثر من أمم القرن التاسع عشر والعشرين ؟ (عصر القوميات كما لايخفى) .

والحق أن الروح والحياة من أمر الله وهى غير اللغة مستقلة عنها ، أفما رأينا أبكم لايتكلم البتة ومع ذلك لم يفقد روحه ولاحياته ؟ بل كم من الأحياء أمما من أمثالنا وليست ناطقة ؟ « ليست ناطقة » أى ليست من جنس الإنسان على حد فلسفة من يعبر عنهم الحصرى : بـ « الكتاب والمفكرين » فقال : « إن أهمية اللغة فى حيـــاة الإنسان الفكرية ، والإجتماعية من الأمور التى استلفتت أنظار الكتاب والمفكرين ، منذ الأزمنة القديمة . فإنهم لاحظوا بأن اللغة هى أهم الصفات التى تميز الإنسان عن سائر الحيوانات .

ولذلك عرفوه بقولهم : « حيوان ناطق »[١]

والحق أن اللغة لاتستدعى فكرة القومية ولا تقيمها ، ولا القومية تفتقر إليها ، ولكنه الإنسان صاحب الأمانة الذى جعله الله سميعاً بصيراً ، وهداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، هذا ساطع الحصرى الذى حاز لقب « العربى الكبير » لدى قومى العرب ، ونال درجة الأمانة فى القومية العربية ، كما لقب بـ « فيلسوف القومية العربية » كانت لغته الأصلية

---

(١) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، ص ٢٥٤

الأولى هى اللغة التركية ، فلم لم يكن قوميا تركيا ؟ بل صار قوميا عربيا وهو غير عالم باللغة العربية ، وهى محور القومية وعمودها الفقرى كما يقرر ، قال الحصرى فى كتابه : « اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية » « إنى لست من علماء اللغة ، ولا من رجال الأدب . ولم أصب فى يوم من الأيام إلى التخصص فى اللغة ، أو التبريز فى الأدب »(١) .

ليت شعرى وهو يؤصل اللغة محوراً للقومية وعموداً فقرياً لها هل فطن لعدم علمه باللغة مع دعواه القومية : « إنى عربى صميم ، أدين بدين العروبة بكل جوانحى » ؟(٢) واستفتاحه القومى : « باسم الله وباسم العروبة أفتتح »(٣) ربما كان يعلم هذا التناقض ولكن لم يخطر بباله أنه سيواجه الحقيقة كما هو شأنه الذى أفصح عنه فى مذكراته فى العراق فقال : « يجب أن أعترف بأن نوعاً آخر من المشكلات لم يخطر ببالى خلال هذه التأملات: هى التى ستنجم عن عدم كونى مولوداً فى إحدى المدن العراقيه »(٤) أى أن هذا يتنافى مع دعوته إلى الوطنية فى العراق .

وفعلا واجه الحقيقة فهو يقول فى مذكراته : « أن الانتقادات . . . التى . . . تسلط على منذ بداية عملى فى العراق قد اشتدت . . . كانت ناجمة عن المبادىء والخطط التى قررتها لنفسى ، والتى لم أنقطع عن التزامها فى يوم من الأيام . . . أنهم يجدون فى عدم كونى مولوداً فى إحدى المدن

---

(١) ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ص ٥ .

(٢) ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، ص ١٢٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢ .

(٤) ساطع الحصرى ، مذكراتى فى العراق ١/٣٨ .

التى تألف منها العراق وسيلة ثمينة للتشكيك فى نواياى ... يقولون إن ساطع الحصرى ليس عراقياً ، فلا يمكن أن يحب العراق ويعمل لخير العراقيين . . . إنه صديق لمبشرى الجامعة الأميركية فى بيروت ، إنه يعمل لمصالح هؤلاء المبشرين[1] .

٢ — يقول الحصرى عن التاريخ : أنه بمثابة شعور الأمة وذاكرتها .

ثم يعود فيقول : لا أقصد بذلك التاريخ المدون فى الكتب المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات .

ونسأل : ماذا يبقى من التاريخ ؟ أم أن الحصرى يخشى من التاريخ الإسلامى ؟ يخشى منه أن يذكر العرب بشرفهم ، وأن يشعرهم بعزهم ، وأن يوقظهم بذكر الله رب العالمين .

إنه يخشى ذلك خشية أعمته فوقع فى التناقض ، يدل على هذه المخاوف صريح أقواله التى تعتبر أن الإسلام ورابطته من العراقيل فى طريق القومية العربية ، ويقول الحصرى أيضاً عند دعوته إلى الإيمان القومى : « ولذلك أقول بلا تردد : إن أول الواجبات التى تتحتم علينا لتقوية الإيمان القومى — هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية ، وماأدرى كيف يستقيم للعرب كتابة تاريخهم على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية ؟ هل تبقى مشخصاتهم القومية مع العقلية الغربية ؟ وكلاهما يدعو إليه الحصرى ، وهما نقيضان .

٣ — الحصرى يلغى نظرية المشيئة الفرنسية القائلة بأن القومية إنما هى بإرادة الأمة ومشيئتها ، والتى كان الحصرى يقول بها ثم خطأها وصحح

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦١١ ، ٦١٢ .

النظرية الألمانية القائلة بنقيض النظرية الفرنسية وهو أن القومية إنما هى باللغة ، وقال بها فقال : إن كل من يتكلم اللغة العربية فإن القومية العربية تستحوذ عليه شاء أم أبى ، وما تنكر عربى لذلك ، فلم يعتز بالعروبة إلا كان جاهلا فيعلم الحقيقة ، أو غافلا فيوقظ ، أو أنانيا فيؤدب . إنه عربى شاء أو لم يشأ . أ ـ ه بمعناه هذا على الرغم من أن الحصرى انتقل من التركية إلى القومية العربية بإرادته ومشيئته واختياره بنفسه ، فنقض أصله نفسه ، ثم إن هذه الأقوال تقتضى إلغاء المشيئة إطلاقاً ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يدعو العرب إلى الإيمان القومى ، أى إلى الإرادة والمشيئة للقومية العربية .

أليس هذا هو التناقض ؟[1] .

٤ — الحصرى بدعوته إلى القومية العربية المناقضة للسلطان الوازع ، والدين الراشد ، والسلطان الوازع والدين الراشد ضرورتان للاجتماع والعمران البشرى ، والحصرى يعلم ذلك — يناقض مايعلم ، فهل يريد الحصرى بدعوته تفريق ونقض الاجتماع والعمران العربى؟ إن الحصرى قد إطلع على رأى العلامة بتاريخ الاجتماع والعمران / عبد الرحمن بن خلدون وحلله ودرسه ضمن دراساته لمقدمة ابن خلدون التى جمعها فى كتاب سماه : « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » ، وأعجب بابن خلدون وبلغ من إعجابه أنه تكنى بشهرته وسمى بها ولده ، فأصبح يدعى: أبوخلدون، ساطع الحصرى . ومع هذا دعا أبوخلدون إلى نقيض مصلحة العرب التى رآها عبد الرحمن بن خلدون وهو كما يقول أبوخلدون ساطع الحصرى :

---

(١) انظر : فكرة القومية العربية عند الحصرى فى فصل العرض .

« المفكر العربى العظيم »[١] .

يقول ابن خلدون : فى مقدمته : « ضرورة العمران البشرى إلى السلطان الوازع بعضهم عن بعض » ، « إن الاجتماع الإنسانى ضرورى ،

ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر ... وتم عمران العالم بهم ، فلابد من وازع يدفعهم بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم . . فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أن للإنسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها ، وقد يوجد فى بعض الحيوانات العجم على ماذكره الحكماء كما فى الجراد والنحل لما استقرىء فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم فى خلقه وجثمانه إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة ، والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) »[٢] .

وقال ابن خلدون فى موضع آخر : « إن اختلال الملك فساد فى العمران . . . العمران دون الدولة والملك متعذر لما فى طباع البشر من العدوان . . . فتتعين السياسة لذلك إما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة . . . »[٣] .

---

(١) ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، طبعة موسعة الثالثة ١٣٨٧ هـ ص ٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، طبعة مصطفى محمد المصرية ، ص ٤١ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .

ويرى ابن خلدون أن العرب لايخضعون للاستبداد لكن ينقادون لدين الحق وبالدين يأتيهم الملك فيقول : « إن العرب لايحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة .

« والسبب فى ذلك أنهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين ، بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الولى الذى يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لأظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم الملك والتغلب »[1] .

وكذلك يرى ابن خلدون « أن الدولة العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أودعوة حق ، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه قال تعالى : (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم) وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف ، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة »[2] .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

هذا مايقوله عبد الرحمن بن خلدون الذى يقول عنه الحصرى إنه : « المفكر العربى العظيم » فلماذا يناقض الحصرى رأيه ؟ هذا وهو رأى سديد « إن الله ليزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن » .

وقال تعالى : (فهزموهم بأذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) . البقرة : ٢٥١

فهل فهم الحصرى هذا فقصد نقيضه على التمام فى العرب وهو الذى أطلق عليه « العربى الكبير » ؟ ، لعل هذه المناقضة من مقتضيات الدعوة إلى القومية ، فإنه وأتباعه القوميون قد أجمعوا على تأسيس دولة عربية على أساس العروبة فقط ، ونقض كل أساس قام عليه بناء يخالف هذا الأساس ، ومعلوم أن العروبة يشترك فيها كل عربى ، وما كل عربى مسلم ، ومعنى ذلك أن يشترك الكافر والمسلم على قدم المساواة ، وليسوا سواء ، كما أنه ماكل عربى يصلح للحكم والإدارة ، ومعنى تأسيس الدولة على أساس العروبة أن يشترك فيها كل عربى يصلح أو لايصلح ، وهذا فيه نزع السلطة من الملوك ونقلها إلى الجماهير ، وجعل الأمة مصدر السلطات فتصير كالملك المشاع فى الشارع العام فيختطفها الطامع العدو ، وعندئذ تحل الكارثة بهذه الأمة المخدوعة .

ولقد درس الحصرى رأى ابن خلدون هذا بالذات وسلط عليه التجزئة والتفكيك حتى شوهه وأظهره ناقصا مبتورا يدل على خلاف قصد ابن خلدون تماماً وهذا ما أراده الحصرى من دراسته للمقدمة كلها ، فإنه رأى أنه على حسب مايقوله : « مامن مفكر ولامؤرخ عربى ، حظى من كثرة الذكر وذيوع الصيت بماحظى به ابن خلدون » ، « إن مقدمة

ابن خلدون منتشرة بين أيدى جميع المتنورين من الناطقين بالضاد ، أفراد الحصرى أن يصدهم عنها بـ « إعادة النظر واستئناف البحث فى معظم تلك الدراسات ، وفق وجهات نظر جديدة »[١] وهذا ما حصل من الحصرى تجاه هذا الرأى فقارن بين نصوص ابن خلدون من كتابه وبين صنيع ساطع الحصرى فى ص ٢٨٣[٢] فسترى إن شاء الله التحريف العجيب والتفكيك الدقيق الذى يدل على فهمه لهذا الرأى وتقديره لخطره على فكرة القومية العربية فعمد إلى جعله معكوساً يخدم فكرته القومية ويوهم الناطقين بالضاد أن هذا العكس هو مقصود « المفكر العربى العظيم » ابن خلدون . كما هى وجهات نظره الجديدة .

ولقد أفصحت بروتوكولات حكماء صهيون السفهاء عن وجهات نظر الحصرى الجديدة ، فلعل الحصرى تأثر بتكوينه التربوى الذى ناله فى شبابه فى تركيا ، وهو تكوين تركيا الفتاة التى تستند تربيتها إلى الأفكار الوضعية الفرنسية والقومية الأوربية ، وأعضاؤها من الماسون اليهود ويهود سالونيكا جزء منهم لايتجزأ ، وهم الذين أفسدوا على السلطان عبد الحميد سياسته الحازمة ، وسلطانه الوازع . واستمرار اتصال الحصرى بالكماليين بعد نقضهم وإلغائهم للخلافة العثمانية الإسلامية ، فحصل التواطؤ بين وجهات نظر الحصرى كما تقدم وبين مقررات حكماء صهيون كما سيأتى :

فقد جاء فى البروتوكول الخامس منها مانصه : « سيقال إن نوع الاستبداد الذى اقترحه لن يناسب تقدم الحضارة الحالى غير أنى سأبرهن لكم على أن العكس هو الصحيح .

---

(١) ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص ١ ، ٢ .
(٢) نفس المصدر السابق .

« إن الناس حينما كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الله كانوا يخضعون فى هدوء ، لاستبداد ملوكهم .

ولكن منذ اليوم الذى أوحينا فيه للعامة بفكرة حقوقهم الذاتية — أخذوا ينظرون إلى الملوك نظرهم إلى أبناء الفناء العاديين .

ولقد سقطت المسحة المقدسة عن رأس الملك فى نظر الرعاع ، وحينما انتزعنا منهم عقيدتهم هذه انتقلت إلى الشوارع (أى صارت السلطة للشعوب لا الملوك وصارت الأمم مصدر السلطات) فصارت كالملك المشاع ، فاختطفناها .

« ثم إن من بين مواهبنا الإدارية التى نعدها لأنفسنا موهبة حكم الجماهير والأفراد بالنظريات المؤلفة بدهاء ، وبالعبارات الطنانة ، وبسنن الحياة ، وكل أنواع الخديعة الأخرى .

«كل هذه النظريات التى لايمكن أن يفهمها الأميون أبدا مبنية على التحليل والملاحظة ، ممتزجين بفهم يبلغ من براعته أن لايجارينا فيه منافسونا أكثر مما يستطيعون أن يجارونا فى وضع خطط للأعمال السياسية والاغتصاب » .

هذا مخطط اليهود لإفساد السلطان الوازع ، أما عن الدين فى البروتوكول الرابع هذه النصوص : « يمكن أن لايكون للحرية ضرر . . بسعادة الناس لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله . . . نقية من أفكار المساواة التى هى مناقضة مباشرة لقوانين الخلق ، والتى فرضت التسليم .

« إن الناس محكومين بمثل هذا الإيمان سيكونون تحت حماية كنائسهم

موضوعين ، وسيعيشون فى هدوء واطمئنان وثقة تحت إرشاد أئمتهم الروحيين ، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض وهذا هو السبب الذى يحتم علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورة مادية » .

وإن وجه الشبه بين فكرة القومية وفكرة « الشعب المختار » ، أو « الطبيعة الممتازة فوق البشرية » ظاهر ، وفكرة القومية فى أوربا وغيرها مرتبطة بفكرة القومية اليهودية فمثلا القومية الألمانية التى هى مثال افتتن به القوميون العرب حتى قالوا بنظرية الألمان فى القومية ، وقالوا : « العروبة فوق الجميع » ورددوا النشيد الوطنى : بلاد العرب أوطانى ..الخ هى التى هتفت هتاف الغرور فقالت : « ألمانيا فوق الجميع » وجعلته شعارها وضمنته نشيدها الوطنى القومى وجعلته : عنواناً له ، وهذا الغرور القومى هو تماماً الذى جاء فى البروتوكول الخامس عشر: « وأننا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية » ، وفى البروتوكول الخامس : « نحن الشعب المختار » .

ويقول محمد خليفة التونسى فى مقدمته للبروتوكولات : « فمما صرح به روزنبرج الذى كان يلقب « فيلسوف النــــازية » أنه اطلع على البروتوكولات وانتفع بها فى وضع فلسفته السياسية ، وكان عوناً للطاغية هتلر فى سياسته القومية والعالمية التى تشبه سياسة البروتوكولات مع وضع ألمانيا منها مكان اليهود ليكون له سلطان أمته ، ويكون لأمته سلطان العالم » ص ٧٢ ، وهذا هتلر فى ألمانيا وربما كان له من الوضع المنهار فى بلاده ديناً وحكما عامل نجاحه ، فإنه وإن كان يدعوا إلى باطل فهو أخف من الواقع الألمانى ، ويعتبر منقذاً على كل حال ، لكن فيلسوف القومية

العربية ومن تبعه من قومى العرب يدعون إلى القومية بدلا من الإسلام ويوهمون بأنها ستنتصر عليه كما انتصرت على النصرانية فى أوربا ، بينما كان نصرها على دين أوربا يرجع إلى ذات دينهم ، إذ لافرق بين عبادة الأحبار والرهبان وعبادة الأمة بل أن الأمة أوسع .

أما الإسلام فهو عبادة الله رب العالمين ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كوه الكافرون ولو كره المشركون ، ولا يستوى من ينقل أمته من حق إلى باطل ، وفكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ما هى إلا فكرة أملية قدرها القوميون فى منأى من الإسلام وتخيلوها ، فنسبوا إليها كل مايجدونه بالضرورة من صفات تجلب الخير وتدفع الشر كأمنية وحلم فتكلفها كل قومى دون سند من كائن محقق شعروا به وعلموه وفى استطاعة الناس أن يعلموه ، ولا خبر مصدق آمنوا به ويلزم كل مؤمن بالصدق أن يؤمن به ، وإنما إلى ما انبعث من ذهن بشرى قاصر، وانتفث فى خياله من شيطان مارد ، وكم فى اختلاف الأذهان من فروق ، وتعدد الأفكار من كثرة مفرقة ، ومقاصد الشياطين من مهلكة ، وأهواء الناس من تضارب وتصادم ، (لويعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر) ، وهذا فى الدعوى التى لا تعارض البينة القائمة .

أما دعوى القوميين إلى القومية لأنها حتمية ، فهى تعارض البينة القائمة (الإسلام) .

ولذا ينبغى رفضها أصلا لكن لما قبلها قوم من الناس استعرضناها وناقشناها نطلب بيناتها وبراهينها على سبيل الجدل بالتى هى أحسن ، والله أعلم .

خلاصة النتائج والأحكام

وبناء على ماتقدم من ثبوت الأدلة والبراهين القطعية نصل إلى النتائج والأحكام التالية :

إن الاعتقاد بأن القومية العربية ذات قوة رابطة فعالة موحدة كما هو المبدأ الأوربي في القومية سواء جعل محور هذه الرابطة الوطن أو اللغة أو التاريخ أو الجنس أو هي مجتمعة أو بعضها أو أي شيء من دون الله ، اعتقاد باطل .

وقول القوميين بأن اللغة حياة الأمة وروحها ، إذا فقدت الأمة لغتها فقدت حياتها وروحها وبأن التاريخ خلاق وهو ذاكرة الأمة وشعورها ، إذا فقدت تاريخها فقدت خلاقيتها وذاكرتها وشعورها . وهما مع الوطن والجنس ونحو ذلك عوامل مكونة للأمة وروابط تربط أبناءها برابطة ذات قوة لا انفصام لها وذات تأثير حتمى سلباً وإيجاباً لأنها طبيعية وللطبيعة أحكام حتمية لاتتخلف ، وأن ذلك اعتقاد كل متنور ، كل ذلك القول أو بعضه وما أشبهه شرك فى ربوبية الله تعالى أغلظ من شرك الجاهلية ، من شرك العرب فى الجاهلية ، الذين يتوجه إليهم الخطاب لأن أولئك كانوا يقرون باختصاص الله بالخلق والإيجاد والإحياء والإماتة والرزق والتدبير ، إنما نسبوا إلى معبوداتهم أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عند الله ، ولا قالوا فى الطبيعة ماقاله القوميون ، بل يعلمون أنها مطبوعة مخلوقة لها طابع خالق إنما أنكر بعضهم البعث بعد الموت .

ولذا أمر الله الناس بعبادته وبين لهم أن توحيده بالعبادة هو أعظم ما أمرهم به وهو لازم مايعلمونه ويقرون به له ضرورة فى مثل قوله تعالى:

(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)[١] .

وفى مثل قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)[٢] .

ولكن القوميين بقولهم ذلك فى الطبيعة والقومية فى درك من الجهل والسفه أدنى من كل الناس المخاطبين بهذه الآيات ، وفى غفلة وإعراض عن توحيد الربوبية المقرر فيها كما يعلمه المخاطبون ضرورة فعلا لله وحده ، ليكون دليلا على إلزامهم بتوحيد الله بالعبادة التى هى فعلهم ، وعلى أن مجرد توحيدهم الله بأفعاله كما هو اضطرارى لهم لايدخلهم فى الإسلام ولا يخرجهم من الشرك ماداموا يصرفون شيئاً من إرادتهم وأعمالهم لغير الله على وجه التعبد لهذا الغير ، وذلك الوجه التعبدى هو الجمع للحب التام مع الخضوع والذل التام المتجه إليه . بل لابد أن يعبدوا الله وحده ولايشركوا به شيئا حتى يكونوا مسلمين، فكما وحدوا الله بفعله ضرورة

---

(١) البقرة ٢١ .
(٢) الحج ٥ — ٧ .

وفطرة لزمهم أن يوحدوه بعبادتهم — وهى فعلهم — عن رضى طاعة واختيارا ، وقامت الحجة ببيان الرسل لذلك . وأنى للقوميين مع عدم معرفتهم لتوحيدهم الله بأفعاله ضرورة ونسبتهم ذلك إلى العوامل الأخرى ، وأن هذا التكوين الذى أقروا به يظنونه لها . . أو أنهم عرفوا الحق لكن جحدوا سياسة واصطيادا للرغبة ، أنى لهم مع هذا أن يلتزموا بتوحيد الله بأفعالهم التعبدية وأن يقيموا أعمالهم على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

ولذا مالوا إلى الماركسية الملحدة ، وقالوا بالاشتراكية المبيحة ، وعملوا بالثورة الفوضوية ، ونادوا بالحرية المفسدة لتبرير مفاسدهم .

أما شركهم فى العبادة فإيجابهم الإيمان بالقومية العربية لها وحدها والعمل من أجلها والتضحية والجهاد فى سبيلها ، وصرف الكره والبراء ومايتبعهما من سلوب ونقائض ضد ماخرج عن القومية العربية كله ، وصرف الحب والولاء وما يتبعهما من إيجاب وأبرام للقومية العربية وما والاها .

هذا السلب والإيجاب هما بمقام النفى والبراء والإثبات والولاء وهما ركنا الألوهية أو العبادة فى قول : (لا إله إلا الله) ، فلا إله نفى وبراء إلا الله ، إثبات وولاء لله لاشريك له .

والقوميون جعلوا القومية العربية هى الولى المحبوب من دون الله تعالى كما فعلت اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار بقومياتهم ، وهذا هو الشرك فى العبادة .

قال الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون

العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من االذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب)(١) .

ماذا بقى من الشرك والإلحاد لدى القومى القائل : « والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين » لاشك أن هذا أعظم من شرك الأولين الذى فارقوا المرسلين وعادوهم به .

ولقد بين الله موضوع الولاية بياناً بليغاً .

فقال تعالى : (الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون)الآيات(٢) .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بماجاءكم من الحق) إلى قوله تعالى : (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لوتكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) الآيات من سورة الممتحنة وهذه السورة من أولها إلى آخرها تعالج العصبية القومية علاجاً عظيما ولا غيره من دواء وشفاء .

---

(١) البقرة : ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) السجدة ٤ .

وفى آخر سورة المجادلة يبدأ الموضوع من قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) إلى قوله تعالى : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أوعشيرتهم) الآية .

والقوميون يوجبون موالاة أعداء الله . وموادة من حاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذا خلاف مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعارضة لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ظلم وفسق كما بين الله تعالى ذلك أبلغ بيان ونهى عنه نهيا قاطعا ، وإن كان هؤلاء الكفار آباء وأبناء وإخواناً وأزواجاً وعشيرة بل نهى عن المحبة التى تمنع تقديم محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجهاد فى سبيله حتى وإن كان المحبوب قريباً أو مالا مقترفاً أو تجارة يخشى كسادها أو مساكن مرضية .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء أن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين)[1] .

ونهى الله عن استبطان بطانة من دون المؤمنين مبيناً مافى ذلك من

---

(١) التوبة ٢٣ ، ٢٤ .

ضرر فقال تعالى فى سورة آل عمران : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) إلى قوله تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط)(١)

ولكن القوميين العرب يوالون حتى الأبعدين اليهود والنصارى والمشركين وفق مقتضيات العروبة ومصلحتها . والله ينهى عن ذلك ويحذر .

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)(٢)

وفى القرآن الكريم كثير جداً من الآيات البينات التى فصلت موضوع الولاية وحكمه على نحو ماقدمت منها .

---

(١) آل عمران : ١١٨ – ١٢٠ (٢) المائدة : ٥١ – ٥٦

وأما الأحاديث النبوية الكريمة فكثيرة جدا ، ومنها مارواه أحمدعن البراء بن عازب : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » .

وأبوداود وأحمد مطولا عن أبي ذر مرفوعا : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله » .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعا : « المرء مع من أحب » .

وروى الطبرانى بإسناد جيد كما يقول ابن المنذر وروى أحمد معناه عن عائشة بإسناد جيد أيضاً كما يقوله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : « لايحب رجل قوماً إلا حشر معهم » .

وروى ابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود مرفوعا : « لاتصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » .

وعن عائشة رضى الله عنها مرفوعا : « الشرك أخفى من دبيب النمر على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور ، أوتبغض على شىء من العدل . وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى الله » .

قال تعالى الله : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) الآية . رواه الحاكم ، وقال صحيح الإسناد (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتى له لاوجود له بدون ذلك ، والحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات .. وإنما يفترق الناس فى شهود هذا الفقر والاضطرار وعزوبه عن قلوبهم .

---

(١) نقلا عن مجموعة التوحيد ، طبعة آل ثانى بقطر ، ص ١٦٠ ، ١٦٦ .

« وأيضاً فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذى يحبه حب إجلال وتعظيم . فهو غاية مطلوبه ومراده ومنتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا ، وأصل الحركات الحب ، والذى يستحق المحبة لذاته هو الله ، فكل من أحب مع الله شيئاً فهو مشرك ، وحبه فساد ، وإنما الحب الصالح النافع حب الله والحب لله ، والإنسان فقير إلى الله من جهة عبادته له ومن جهة استعانته به ...

وهذا العلم والعمل أمر فطرى ضرورى ، فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها ، وتذل لمن افتقرت إليه ، وغناه من الصمدية التى انفرد بها ، فإنه (يسأله من فى السموات والأرض) وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والإنابة إليه ، فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره فى أن يعبد ربه وينيب إليه (١) .

وقال إمام الدعوة من نجد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : « ... فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد وعلم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بالحب فى الله والبغض فى الله والمعاداة فى الله والموالاة فى الله ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء لم يكن فرقاناً بين الحق والباطل ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان »(٢) .

---

(١) مجموعة فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، المجلد الرابع عشر ، ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) مجموعة التوحيد ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما هو دون ذلك من عصبية وحمية على غير أساس من الحق ، واعتبرها جاهلية ، قال الإمام البخارى رحمه الله : « باب ماينهى من دعوى الجاهليـــة » ، وساق بسنده إلى جابر رضى الله عنه يقول : غزونا مع النبي صلى الله عليـه وسـلم ـ كانت غزوة المريسيع سنة ست ـ وقد ثاب معه ناس من المهـاجرين حتى كثروا ، وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريا ، فغضب الأنصارى غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصاري يا للأنصار ، وقال المهاجرى يا للمهاجرين ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مابال دعوى أهل الجاهليـة ثم قال : ماشأنهم ؟ فأخبر بكسعة المهاجرى والأنصـارى ، قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعوها ، فإنها خبيثة ، وقال عبد الله بن أبي سلول : أقد تداعوا علينا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر : ألا نقتل يارسول الله هذا الخبيث ؟ لعبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه »(١).

وليكن فى البال أنهم تداعوا باسم إسلامى ممدوح : يا للمهـاجرين ، يا للأنصار ، لكن لأنه لغير الله ، وإنما للحميـــة ، صار من دعوى الجاهلية .

وساق البخارى بسنده أيضاً قول النبى صلى الله عليه وسلم « ليس منـا من ضرب الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »(٢).

وروى أبو داود وابن حبان عن ابن مسعود مرفوعا : « مثل الذى

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٧

(٢) نفس المصدر السابق .

يعين قومه على غير الحق كمثل بعير تردى فى بئر ، فصار ينزع بذنبه » .
ومعنى الحديث أنه وقع فى الإثم ، وهلك كالبعير إذا تردى فى بئر فصار ينزع بذنبه فلا يقدر على الخلاص ، قاله ابن المنذر(١).

ولقد حسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الولاية بقوله وفعله ، فمنذ بعثه الله تعالى وهو الفرقان الشخصى بين أولياء الله وأعدائه بأمر الله وقضائه ، ولم يثنه عن ذلك شيء حتى القرابة .

أخرج البخارى فى صحيحه فى كتاب الأدب فى باب « يبل الرحم ببلالها » ومسلم فى كتاب الأيمان فى باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم ، كلاهما عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهاراً من غير سر : « إن آل فلان ليسوا لى بأولياء ـ يعنى طائفة من أقربائه ـ إنما وليي الله وصالح المؤمنين » .

قال النووى : معنى الحديث : إن وليي من كان صالحاً وإن بعد نسبه منى ، وليس وليي من كان غير صالح وإن قرب منى نسبه .

وقال القرطبي : فائدة الحديث انقطاع الولاية فى الدين بين المسلم والكافر ولو كان قريباً حميما .

وقال ابن بطال : أوجب فى هذا الحديث الولاية بالدين ونفاها عن أهل رحمه إن لم يكونوا من أهل دينه (٢) .

---

(١) نقلا عن مجموعة التوحيد ، طبعة آل ثانى بقطر ، ص ١٦٦ .

(٢) نقلا عن فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، للامام ابن حجر العسقلانى ، جـ ١٠ ص ٤٢١ . ط السلفية بمصر .

وهذا موجب الدين الحق ، أما دين القومية فيوجب عكس ذلك ، بل يقتضى أن يغير القوميون أحكام الشريعة الإسلامية السائدة وينقضوها ، وإن كانت محكمة نافذة ، ليحلوا بدلها شريعة القومية المشتركة ، وعلى هذا فالعروبة مشتركة بين يهود ونصارى ووثنيون وغيرهم، تقتضى شرعا مشتركا يرضى هؤلاء جميعاً ، وهو ماشرع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولكنه شرع هؤلاء المختلطين من يهود ونصارى ومشركين وغيرهم، والذين التقوا على هوى العروبة المشتركة وهم لا يرضون الحكم بالشريعة الإسلامية، وبذلك أصبحت القومية العربية تحمل معتنقيها على تغيير أحكام الله ، والحكم بغير ما أنزل ، فهى طاغوت .

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى رسالة بين فيها معنى الطاغوت ورؤوس الطواغيت ، وهى من مقررات وزارة المعارف للسنة الخامسة الابتدائية فيما درست ، وأذكر هنا شاهداً منها وهو مما عدده الشيخ من رؤوس الطواغيت قال مانصه :

«الثانى الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى والدليل قوله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً) (١) .

الثالث : الذى يحكم بغير ما أنزل الله والدليل قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)(٢).

---

(١) النساء : ٦٠

(٢) المائدة : ٤٤ مجموعة التوحيد ، طبعة مشعل بن عبد العزيز ، المطبعة السلفية ، ص ٦٠

والفرق بين الثاني والثالث أن الثاني يقصد به الذى يزعم أنه آمن بما أنزل الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل من قبله على رسله عليهم السلام ثم يريد أن يتحاكم إلى الطاغوت ، ففى إرادته تغيير لأحكام الله تعالى .

وأما الثالث فهو الحاكم فعلا بغير ما أنزل الله ، والحاكم بغير ما أنزل الله والمريد للتحاكم إليه كلاهما رأسان من رؤوس الطاغوت . وهما يشبهان الحاكم بشرع القومية الذى لم يأذن به الله ، والمؤمن بهذا الحاكم بغير ما أنزل الله المريد له ، الداعى إليه ، فأصبح الإيمان بالقومية العربية يقتضى الإيمان بالطاغوت ، والطاغوت باطل ، فالإيمان به إيمان بالباطل وكفر بالله داخل فى معنى قوله تعالى : (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) (١) وابتغاء لحكم الجاهلية وتفضيل له على ما هو أحسن داخل فى قوله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)(٢) .

ولا غرابة فقد صرح دعاة القومية بلا مواربة أن الكفر . مرغوب وممدوح فى سبيل الوحدة العربية فأشاد الحصرى بالشاعر القومى وبشعره الذى تضمن هذا التصريح فقال :

هبونى عيداً يجعل العرب أمة وسيروا بجثمانى على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم(٣)

---

(١) العنكبوت : ٥٢

(٢) المائدة : ٥٠

(٣) ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية العربية ، ط ٢ بيروت ص ٢٥٠ وتأمل تصريحاتهم فى الفصل الأول من هذا البحث .

ومعلوم بأن استحباب الحياة الدنيا كلها ليس عذراً مبيحاً للكفر ، ولا الخوف على فواتها عذراً مبيحاً كذلك ، ولم يستثن الله من الأعذار إلا الإكراه على شرط أن يكون المكره مطمئناً قلبه بالإيمان ، فإن شرح بالكفر صدراً فلا عذر له وإن أكره لأن القلب يمتنع عن الإكراه فلا يجوز الإكراه عليه ، إنما يجوز الإكراه على ظاهر الانسان فى جوارحه ، وقد أشار إمام الدعوة من نجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إلى هذا فى آخر كتابه : كشف الشبهات فقال « ولنختم الكلام إن شاء الله بمسألة عظيمة مهمة . نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها فنقول : لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً » .

ثم مضى الشيخ فى تفصيل هذه المسألة بالأمثلة والأدلة من واقع الناس والكتاب والسنة ، ومن تلك الأدلة قوله تعالى : (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة)[1] الآية .

ثم قال الشيخ ما نصه : « فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنا بالإيمان . وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه ، سواء فعله خوفاً أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله » انتهى .

وعلى فرض أن جميع العرب اتحدوا على أساس القومية العربية ، وهو فرض بعيد عن الواقع فإنه لا يحق لهم طلب فلسطين على أساس القومية ، ولكن

---

(١) النحل ١٠٦ ، ١٠٧

يحق لهم بالإسلام ، ذلك لأنها لإبراهيم الذى قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها بنيه ، فأخذ بها من عدل منهم ، وجعلهم الله أئمة للمسلمين ، وأورثهم الأرض ، ومنهم المهتدون من بنى إسرائيل ، فمكنهم فيها وملكهم إياها كداود وسليمان وحتى مصر فإنها ليوسف الذى مكن الله له فى الأرض كذلك ، ولموسى وهارون ومن آمن معهما ، ولمن أسلم بعد ذلك من أمة سيد ولد إبراهيم وآدم وأولى الناس بإبراهيم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يطالب العرب بفلسطين أو بأى شىء آخر على أساس القومية ، وليس على أساس الإسلام ، فإنهم محجوجون أمام من يدعى وراثة إسرائيل وموسى وداود وسليمان على نبينا محمد أخيهم وعليهم الصلاة والسلام وعلى أساس القومية منهزمون كما انهزم الآباء الكنعانيون الجبارون ، وكما انهزم فرعون وقومه الهكسوس (الرعاة) وفرعون هو ذو الأوتاد ، القائل : (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى)[١] .

فأغرقهم الله فى البحر خلف موسى وهارون وقومهما الناجون باسم الله وبعد أن أدحض الله سحره وسياسته أمام موسى بآيات ربه ، كما قال تعالى : (بآياتنا أنتما - يعنى موسى وهارون - ومن اتبعكما الغالبون)[٢] .

وكما انهزمت بلقيس وقومها القائلون (نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) (٣) .

انهزموا فى بلادهم اليمن وهم عرب أمام سليمان بل أمام تهديده : (فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)(٤).

---

(١) القصص : ٣٨ .
(٢) القصص : ٣٥
(٣) النمل : ٣٣ .
(٤) النمل : ٣٧ .

والعروبة ذاتها ليست كافية ولا عاصمة للدم والمال ولا منجية من عذاب النار ، ولا مانعة للأعداء أن يدخلوا فيها وهم على عدواتهم ، ولاتزيل العروبة منها شيئاً ، رغم كمال اتصافهم بها كاليهود والنصارى والمشركين .

وإنه بأمر الله العلى العظيم ليجب على القوميين أن يتقوه ويتوبوا إليه وقد آن لهم أن يفيقوا من غمرتهم . ويعودوا إلى رشدهم بعد تجاربهم لمصائب أمتهم ، ويستمسكوا بحبل الله جميعاً ، ولا يتفرقوا ، وليعلموا أن العروة الوثقى هى الكفر بالطاغوت ومنه القومية كما تقرر ، والإيمان بالله تعالى ، قال الله عز وجل : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم) [١] .

وإلى من لا يقتنع بما تقدم إلا أن يسمع أحكام علماء الإسلام من المعاصرين لفكرة القومية العربية ، فاليهم منها الأمثلة التالية وفيها مقنع ودلالة على موقف سائر العلماء إن شاء الله تعالى :

١ — يقول العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز فى رسالته القيمة : نقد القوميةالعربية ، بعد كلام طيبقاله : « وإذا عرفت أيها القارىء ما تقدم ، فاعلم أن هذه الدعوة ، أعنى الدعوة إلى القومية العربية أحدثها الغربيون من النصارى لمحاربة الإسلام والقضاء عليه فى داره بزخرف من القول وأنواع من الخيال وأساليب من الخداع ، فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام واغتر بها كثير من الأغمار ومن قلدهم من الجهال وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام فى كل مكان .

ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن الدعوة إلى القومية

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

العربية أو غيرها من القوميات دعوة باطلة وخطأ عظيم ومنكر ظاهر وجاهلية نكراء وكيد سافر للإسلام وأهله ، وذلك لوجوه :

الأول : أن الدعوة إلى القومية العربية تفرق بين المسلمين ، وتفصل بين المسلم العجمي عن أخيه العربي ، وتفرق بين العرب أنفسهم لأنهم كلهم ليسوا يرتضونها . الخ .

الوجه الثاني : أن الإسلام نهى عن دعوى الجاهلية وحذر منها وأبدى في ذلك وأعاد في نصوص كثيرة ، بل قد جاءت النصوص تنهى عن جميع أخلاق الجاهلية وأعمالهم إلا ما أقره الإسلام من ذلك ولاريب أن الدعوة إلى القومية العربية من أمر الجاهلية ، لأنها دعوة إلى غير الإسلام ومناصرة لغير الحق ، الخ .

الوجه الثالث : من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية : هو أنها سلم إلى موالاة كفار العرب وملاحدتهم من أبناء غير المسلمين واتخاذهم بطانة والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم . ومعلوم ما في هذا من الفساد الكبير والمخالفة لنصوص القرآن والسنة الدالة على وجوب بغض الكافرين من العرب وغيرهم ومعاداتهم وتحريم موالاتهم واتخاذهم بطانة والنصوص في هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذو اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) الآية . سبحان الله ما أصدق قوله وأوضح بيانه ، هؤلاء القوميون يدعون إلى التكتل حول القومية العربية مسلمها وكافرها ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، نخشى أن يعود الاستعمار إلى بلادنا ، نخشى أن تسلب ثرواتنا بأيدى أعدائنا ، فيوالون لأجل ذلك كل عربي من يهود و نصارى

ومجوس ووثنيين وملاحدة وغيرهم تحت لواء القومية العربية ، ويقولون إن نظامها لا يفرق بين عربى وعربى وإن تفرقت أديانهم ، فهل هذا إلا مصادمة لكتاب الله ومخالفة لشرع الله وتعد لحدود الله وموالاة ومعاداة وحب وبغض على غير دين الله ؟ فما أعظم ذلك من باطل وما أسوأه من منهج ، الخ .

الوجه الرابع : من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية أن يقال : إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضى بالمجتمع ولا بد إلى رفض حكم القرآن ، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن ، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاماً وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوى مجتمع القومية فى تلك الأحكام .

وقد صرح الكثير منهم بذلك كما سلف . وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة ، كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وقال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) وقال تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) وقال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهى دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها فى الله ، حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته كما قال عز وجل : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) . (ص ٨ – ٢٦) .

٢ — ويقول العلامة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد فى كتيبه : « الإبداع

فى شرح خطب حجة الوداع ، عند شرحه لخطبة الرسول صلى الله عليه وسلم التى قال فيها صلى الله عليه وسلم : «إن الله يقول : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . فليس لعربى على عجمى فضل ولا لعجمى على عربى فضل ولا لأسود على أحمر فضل ولا لأحمر على أسود فضل إلا بالتقوى . يامعشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على رقابكم وتجىء الناس بالآخرة فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً » . فقال الشيخ فى شرحه :

« وقوله صلى الله عليه وسلم : ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . إذ أنهم من أصل واحد فلا تفاخر ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى ، فمن فضله تقوى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم فى كل ما يأمر به وانتهى عما ينهى عنه فهو الفاضل وهو أفضل من غيره سواء كان عربياً أو عجمياً قال تعالى (إنما المؤمنون أخوة) ففى الآية مايشعر أن الأخوة الإيمانية أبلغ من أخوة الولادة لأمور منها أنه بدأ ذلك بقوله : إنما المفيدة للحصر .

ثانيا : أن إخوة الولادة منشأ الحياة وستنتهى وتزول بخلاف أخوة الإيمان فمنشأها البقاء والدوام فى جنان الخلد .

ثالثاً : أن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب . وفى قوله صلى الله عليه وسلم : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

وشبك بين أصابعه ما يفيد معنى الآية : إنما المؤمنون أخوة . وإن الرابطة الإيمانية والأخوة الإسلامية أكمل من أخوة النسب ، فإن الله لم يقل إنما العرب أخوة ، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : مثل العرب فى توادهم .

إلى أن قال الشيخ : « وما اشتهر فى هذه الأزمنة من التعصب للقومية العربية باطل تبطله الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وإن كان للعرب شرف نسب فلا ينفعهم هذا الشرف مع وجود الانحراف منهم عما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم » .

إلى أن قال : « والدعوة إلى القومية العربية إنما نشأت على قول كثيرين فى أوائل هذا القرن ، وأول من دعا إليها هم الغربيون على أيدى بعثات التبشير فى سوريا والعراق ولبنان (وظلت) تزداد وتنمو حتى عقد لها أول مؤتمر فى باريس من نحو ستين سنة ، وكثرت بسبب ذلك الجمعيات العربية وتعددت الاتجاهات وذلك أن أعداء المسلمين لما رأوا من جمع الإسلام لمختلف الأجناس من بنى آدم أرادوا إحلال العصبية الجنسية محل الوجدان الدينى ، فدعوا إلى القومية العربية بدلا من الأخوة الدينية .

ثم ساق الشيخ الأدلة البينة الظاهرة من القرآن والسنة ، ثم قال : « فنى هذه الأحاديث ونظائرها بطلان التعصب القومى . . . » (ص ٦٩ - ٨٧) .

هذا والشيخ ابن حميد لم يقصد بحث القومية العربية ولكنه وهو بصدد شرح خطب حجة الوداع وبمناسبة الحج وإقامته لله وحده يبين بطلان التعصب القومى كله والعربى كأحد أفراده قد وفق للمنفذ العملى التطبيقى وهو الحج ، الذى لا يستطيع أحد إلا الله أن يوقف مسيرته المتحدة من

كل جنس (ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله)[١] .

وما شهد جموع الحجاج من شاهد إلا ورأى الآيات البينات فى مقام إبراهيم الآمن ، يرى الأعمال قبل الأقوال تشهد ببطلان القومية العربية ، وجميع أمر الجاهلية ، ونخرها بغير تقوى الله تعالى ، ويرى زهوق مزاعم القومية أو القوميين عملياً على شعائر الله تعالى ، ولا تكاد تذكر دعاوى القوميين إلا للعبرة والفكرة ، فما أنسب بيان بطلان التعصب للقومية العربية فى شرح أعظم خطبة لأعظم رسول من رسل الله ، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، فى أعظم زمن ومكان ، وهيئة اجتماعية عظمى تقصد رب العالمين العلى العظيم على الإطلاق ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وما دام أن التعصب إلى القومية العربية باطل ، فعبادتها أشد بطلانا من باب أولى ، والباطل على اسمه باطل (ومايبدىء الباطل وما يعيد[٢]) :

وماكان قول : وليم جيفورد بالكراف : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة »[٣] ويعنى بالحضارة : حضارة الغرب المبنية على الباطل ، ماكان قوله هذا عن عدم إدراك للحقيقة الآنفة ، فهل فى مقدور القوميين أن يواروا القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ؟ .

---

(١) الحج : ٢٨ .

(٢) سبأ : ٤٩ .

(٣) أ . ل شاتليه ، الغارة على العالم الاسلامى ، محب الدين الخطيب ، ٩٣ ، ٩٤ .

٣ ـ ويقول العلامة أبو الحسن الندوى فى رسالته : « العرب والإسلام » .

ثم جاء دور مفهوم القومية الغربية التى هى فكرة مستقلة وفلسفة بذاتها ، لها كل ما للدين من حمية وحرارة وشعائر ومقدسات . فخضع لها العرب المثقفون ـ خصوصاً الشباب ـ الذين ضعفت صلتهم بالدين لأسباب كثيرة ، ونشأ فيهم الرغبة الشديدة لنيل المجد والعظمة فى أقرب وقت ..

« وقد أصبح العرب المسلمون فى ذلك فريسة لدهاء الأقلية غير المسلمة فى الشرق العربى التى يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربية ، وحولها محل الدين الإسلامى ، والتى تستطيع أن تصل عن طريقها إلى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه فى العالم العربى ، وتستطيع أن تفصل بها العرب عن بقية العالم الإسلامى الذى لا ترتبط به هذه الأقلية عقيدة وعاطفة وتاريخا ، ولا يزال الأستاذ ميشيل عفلق (المسيحى ولادة) مؤسس حزب البعث العربى ورئيسه فيلسوفها الأكبر فى الشرق العربى »[١] .

ويقول فى رسالته : « اسمعوها منى صريحة أيها العرب » : « فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم فى هذا الوقت فى العالم العربى رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الإيمان وعن أقوى شخصية ظهرت فى العالم ، وعن أمتن رابطة روحية تجمع الأمم والأفراد والأشتات . إنها جريمة قومية تبنى جميع الجرائم القومية التى سجلها تاريخ هذه الأمة ، وإنها حركة هدم وتخريب تفرق جميع الحركات الهدامة المعروفة فى التاريخ ، وإنها

---

(١) ص ١ ـ ٧ .

خطوة حاسمة مشؤومة فى سبيل الدمار القومى والانتحار الاجتماعى »[١].

٤ — واختم بما يقوله الشيخ محمد الغزالى المعاصر، والمعروف بالدعوة إلى الله يقول ما نصه :

« وأما مبدأ القومية ، فهو مبدأ خطر كذلك ، لا ينتج إلا الشرور والآثام والحروب والتخاصم ، والتنافس والتزاحم .

« فإذا كانت كل أمة تدعى أنها سيدة الجميع ، وتعمل للوصول إلى هذه السيادة فمتى تهدأ الثورات ويسود السلام ؟

« وها نحن نرى نتائج تمسك أمم بهذا المبدأ فى مؤتمراتهم التى لم يفلح واحد منها حتى الآن[٢] ويبقى بعد هذا فى وجدانى ألم من احتقار البعض من المسلمين لأنفسهم ، فلعل هذا الصنف حين يرى المعروف يعرفه العدو الشامت بإفاقة أحسن وفهم أعمق ، لعله يستثار وتنبعث فيه كوامن الحياة . فأسوق إليه أحد هؤلاء الغربيين المستشرقين اليهود الذى يعمل فى عاصمة أكبر دولة استعمارية فيما مضى ، تحمل الصليب وتستلهم توجيه اليهود حتى فتحت لهم فلسطين وسلمتها لهم لقمة سائغة بالدماء المحرمة والمظالم العظمى ، وساهمت بأكبر دور فى زرع القومية وإيقاد الثورة العربية على أساسها ، ذلك هو برنارد لويس رئيس قسم التاريخ فى كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن الذى تقدم ذكره والنقل عنه ، يقول ما نصه فى كتابه :

---

(١) ص ٢٧ ، ٢٨ نقلا عن رسالة الشيخ ابن باز ، نقد القومية العربية ص ١٠ ، ١١ .

(٢) محمد الغزالى ، حقيقة القومية العربية ، دار العروبة ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

« الغرب والشرق الأوسط » تحت عنوان : الفصل الرابع : الوطنية والقومية .

« كل باحث فى التاريخ الإسلامى يعرف قصة الإسلام الرائعة فى محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبى وكيف انتصر النبى وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التى حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية .

وفى أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد (اللات) و (العزى) وبقية آلهة الجاهلية ، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها الدولة ، والعنصرية والقومية .

وفى هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف . . . الأصنام . . فإدخال هرقطة القومية العلمانية أو عبادة الذات الجماعية كان أرسخ المظالم التى أوقعها الغرب على الشرق الأوسط ، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرا وإعلانا . وإنه لمن المحزن حقاً أن يؤرخ الإنسان المراحل المتعاقبة التى مرت : كيف بدأ الاحتكاك . . ثم العدوى . . ثم الالتهاب . . ثم الأزمة » ص ١٠٥ .

وأيضا هذا المؤرخ الأوربى الشهير أرنلد توينبى ، وهو نصرانى غربى سبر الحركات القومية فى الغرب وغيره يقول : « ولكن القومية لاتستطيع أبدا أن توحد الإنسانية ، بل إنها توزعها وتشتت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل ، وأنها لاتستطيع إلا أن تدفن الإنسانية فى ركامها »[1]

---

(١) نقلا عن أبى الحسن الندوى ، من كتابه الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، فى الأقطار الإسلامية ص ١٦٧ .

وإلى الذين يقدرون قوة الاجتماع أسوق أن من توصيات المؤتمر العالمى للدعوة وإعداد الدعاة ، المنعقد فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٢٤ — ٢٩/٣/١٣٩٧ هـ . اعتبار « القومية » من الدعوات والاتجاهات المضادة للإسلام كالباطنية والبهائية ، والقاديانية ، والتبشير والاستشراق والرأسمالية الطاغية ، والاشتراكية ، والشيوعية ، والماسونية ، واليهودية العالمية ، والعلمانية والإباحية والوجودية »[١] .

أما الذين يتوجسون من السياسة فأؤكد لهم أنها تكون مهيبة إذا كانت إسلامية واتجه أهلها بصدق نحو الوجهة التى تظهر من أقوال الأمير فهد بن عبد العزيز فى اجتماعه برجال الصحافة عند مستهل ربيع الثانى عام ١٣٩٧ هـ ، والتى جاء فيها قوله : « وقد أدرك الجميع أن الأمة العربية لم يكن لها قيمة فى أى يوم من الأيام إلا بالإسلام .. وبدونه لم ترتفع لتصبح خير أمة أخرجت للناس »[٢] .

إذاً فالدعوة إلى القومية العربية دعوة باطلة ، وظلم عظيم على ضوء القرآن والسنة وعند علماء المسلمين ، بل وعند علماء اليهود والنصارى فى التاريخ ، وعند العرب أنفسهم .

كما سيأتى بيانه فى الفصل الآتى ، فصل المخلص والمفازة .

---

(١) انظر : أبحاث المؤتمر ، المجلد الخامس : بحث « المذاهب والاتجاهات الإلحادية والمعادية للاسلام والفرق المرتدة والزائغة فى هذا العصر وموقف الإسلام والمسلمين منها ، ص ٤٠ ، ١١ .

(٢) نقلا عن مجلة الدعوة من الرياض عدد ٥٩٢ فى ٢ ربيع الثانى ٩٧-١ هـ ص ٧ ، وانظر مجلة المجتمع عدد ٣٤٣ فى ٩ ربيع الثانى ١٣٩٧ هـ ص ١٥ .

الفصل الخامس

المخلص .. والمفاز

فيما تقدم من فصول أربعة بيان ماهى الدعوة إلى القومية العربية ، ومن أين جاءت ؟ ولماذا فى هذا القرن ظهرت ؟ وبيان قيمتها على ضوء تحليلها ومعارضة أصولها ببعضها على نور القرآن والسنة وأقوال العلماء والمؤرخين والمعقول .

وقد تبين أنها من أعداء العرب أصلا ، أولئك الحساد من اليهود والنصارى وسائر الشياطين وأتباعهم من المشركين والمنافقين حيث حسدوا العرب على الإسلام ، حين رأوا نقله إياهم فى مدة ثلاث وعشرين سنة من بداية البعثة إلى وفاة المبعوث صلى الله عليه وسلم ، وهى مدة وجيزة تم فيها بعث الأمة العربية ونقلهم من الجاهلية إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الذل والتبعية إلى العز والسيادة ، ومن الفقر وسوء الحال إلى الغنى والنعيم .

وتبين كيف خطط هؤلاء الحساد المكرة حين أعيتهم المواجهة لاستغفال المسلمين عن حظهم العظيم وفضل الله عليهم وعلى الناس ورحمته بهم ، ولاستدراج العرب خاصة بشهواتهم والتشبيه عليهم حتى أنسوهم على مر العصور وظيفتهم فأبعدوهم عن الإسلام فى الحكم والسياسة وإقامة الأمور ثم استحوذوا عليهم بالحكم والسياسة ومحبة الإمارة المجردة عن الإسلام وكادوا أن ينسوهم ذكر الله فى جميع ميادين الحياة .

وحين أصابهم بما كسبت أيديهم هـــذه المصيبة استغلها هؤلاء المستحوذون الماكرون ، وراحوا يوهمونهم أن ما أصابهم هو بسبب الإسلام ، وأن عليهم إن أرادوا قوتهم وسلطانهم أن يطلبوا منهم تنظيمهم ، تنظيم حياتهم ومناهجهم فى السياسة والاجتماع ، والتربية والاقتصاد وفى الخارج والداخل وفى كل شؤونهم حتى شؤون أحوالهم الشخصية من طعام وشراب ولباس وسكن ونـكاح وغيرها من المرافق الخاصة ، وبرهنوا لهم على كفاءتهم للوصاية عليهم إلى هذا الحد أنهم فى بلادهم وواقع حياتهم قد تفوقوا عليهم فى هذه الميادين المذكورة ، رغم أنه تفوق نسبي ، نظراً إلى أن هؤلاء المصابين قد انتكسوا إلى حالة لاصلاح معها حتى للدنيا التى أشربوا محبتها بذنوبهم وشرودهم عن دينهم باديء ذى بدء فضلا عن أن يكون معها صلاح لآخرة يكرهون ذكرها وحياة أبدية لا يوصل إليها إلا بذل الحياة الدنيا المنتهية إليها حتما .

كانوا بهذه الحالة أقل مستوى مما عليه هؤلاء الأوصياء من القوة والعلم فى عمارة الدنيا وبظاهر منها .

ومن هاتين الحالين المتقابلتين حصل الإعجاب الأعمى من صاحب الحال الأدنى ، وأتت فرصة هؤلاء الماكرين ليقولوا لهم عن علو : خذوا بهدينا : (كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) إن فساد إدارتـكم وهزيمتكم أمام قوتنا ، أمام حضارتنا ، وبلوغنا منـكم ماتـكرهون مع حرمانـكم مما ترغبونه منا ، ومن الشهوات لدينا ، إنما هو بسبب مابقى لديكم من إسلام . . فاقضوا عليه فهو الذى حرم عليكم أهواءكم ، ولما تفلتت منه واحتالت عليه لم يتبعها ، ولم ينتصر لهـا ، ومضى على استقامته عنها ؛ فليـكن هكذا شأنـكم معه فى بنيانـكم كله لتستمتعوا بجميع الشهوات

والقوة والصحة التى ترونها فينا ، وترون أننا فقناكم بها .

وكانت أول قاصمة للظهر أن ضيعت الأمانة فى الحكم ونظامه واستجلبت قوانين ونظم هؤلاء الخبثاء الماكرين ، وأحلت محل شريعة الله ونظامه وحكم بها مسلمون — بزعم الواهمين — على رعايا الإسلام وشعوبه فزادت انتكاسة الناس عن الإسلام ، وتعقدت المشاكل الثقيلة فى القضاء والحكم وفى السياسة والاجتماع وفى الاقتصاد والتربية وسائر ميادين الحياة .

ويكيد هؤلاء الماكرون فيوجهون أنظار هؤلاء المصابين إلى مانقدوه ليطلبوا منه الحلول وقد أبعدوه أو جزأوه ، وأقاموا بين أجزائه فواصل متغايرة يجرى بينها مايجرى بين المتغايرين ، ولا يفطن المغفلون للمغالطة ، كما لايجرؤ الجبناء على المصارحة . ويبحث الجميع عن الحلول من مكان بعيد أو من جزئيات مفرقة بالفواصل التى يفتعلونهالأهوائهم ، فإذا لم يجدوا حلولا كاملة كافية قالوا وهذا برهان آخر على عدم صلاحيته لهذا العصر الحديث ، عصر القوميات ، والذرة والعلم .

والحقيقة أن مايسمونه حقاً وعلماً هو بحسب رؤيتهم التى أغطشها هوى الباطل وحب متاع الغرور .

ومن العجيب الذى لاينقضى منه العجب أن يأخذ هؤلاء الماكرون من علماء المسلمين فى الأندلس مناهج هذا العلم التقنى والبأس والقوة ، ويكتشفون به بطلان ما لديهم مما يزعمونه دين المسيح ، وهو يخالف أبسط الحقائق الكونية ، وبهذه المناهج الإسلامية ينتصرون على حماة الباطل وطغاة الكنيسة ، فيحملهم الغرور ، وينسيهم فيوهمون أنهم

يبطلون به كل الأديان حتى الإسلام مصدر نصرهم كما فعلوا بالنصرانية وهى فى نظرهم من أكبر الأديان ..

ويأتون إلى المسلمين فيقولون بمكر وبلا مكر ، بوعى وبلا وعى ، إن أوربا لما تركت الدين جانباً ، وعزلت حياتها عنه ، وراحت تنقض أسس حكوماتها التى كانت على أساسه ، وتؤسسها من جديد على المبدأ القومى والوطنى وتقنيات العلم الحديث — وماهو إلا علم بظاهر الدنيا — تقدمت فى علومها وعمرانها ونهضت من رقادها ، بينما السر فى تقدمها العلمى والعمرانى ولو كان بظاهر من الحياة الدنيا إنما هو قبس مقطوع عن الآخرة اقتبس من حياة الأندلس وغيرها من المدن الإسلامية ذلك أن الإسلام عمران الدنيا والآخرة معا كما هو الحق الواقع تاريخا وتقريرا .

ولكن الماكر يعى مكره فيقسم بلسان الناصح وبصراحة لايخشى منها فى وسط المصابين المتشبثين ولو بخيط العنكبوت (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) فيقول إن طريق الخلاص وسبب المفازة هو التزام المبدأ القومى بشدة مع اتباع المنهج الغربى الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو المؤلف من منهج الإسلام فى الدنيا أى فى عمارتها ومن منهج الكفر فى الآخرة أى تخريبها وعدم حسبانها ويحوز قصب السبق عنصر الحكومة الإسلامية فينشز للقومية التركية ، ويستشرف للفتنة الطورانية فيفسق عن خلافة المسلمين ويركلها بقدمى الغرور ، ويعود على الأجناس الأخرى بالطغيان ، ليصهروهم فى بوتقتها الضيقة المنتنة .

وهنا يثير الماكرون رد الفعل لدى المحسودين الأصليين والمغبوطين الأولين العرب لتأخذهم حمى هذه القومية عن الصحوحتى لايقيموا خلافة

المسلمين ولا يختطفوا الراية فيرفعوها كما كانوا وقت قومتهم لله يرفعونها في سبيله وحده فأثابهم الله بالعز والسيادة .

وبكل ما أوتى الماكر المنتصر ، والحاسد المتسلط ، تروج القومية العربية لتحويل قومة العرب ، وإبائهم وشجاعتهم وكرمهم في سبيل أنفسهم أو في أى سبيل غير سبيل الله كى يخسروا كما خسروا في جاهليتهم ، تروج الدعوة إلى القومية العربية بديلا من الإسلام ، ويقال زوراً إن العروبة أصل الإسلام ، ويفتى للعرب بأنه ليس لهم إلا أن يحتفظوا بأصلهم فهو في خطر ، ولا يضرهم إن فاتهم فرعه وهو الإسلام ، على زعمهم ، ويعالل للعرب بأن العدو المستعمر والحاسد المحتل والماكر المنتصر ، لن يرضى عنهم ويمنحهم تقرير مصيرهم واستقلالهم ببلادهم ، إلا إذا أبعدوا عن نقطة الحساسية وهى الإسلام ، وقنعوا بالعودة إلى إثبات شخصيتهم ، وعبادة قوميتهم ونقل المعركة من إعلان الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله إلى ذلك كأن العدو يجهلهم وكأن التعريف بهم وبذواتهم وأوطانهم وخيراتهم ومآثرهم وأمجادهم وما كان عليه آباؤهم يمنعه ويكفه عن الطمع فيهم .

استجاب القوميون لهذه الرجعية ، ونادوا في قومهم كما نادى من قبلهم في قومهم حين قالوا : (يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا)[1]

فقالوا يا أمة العرب من مسلمين ويهود ، ونصارى ومشركين دعوا أديانكم جميعاً للعروبة ، واعتصموا بقوميتكم من جميع الأديان حتى دين الإسلام ، ففى العروبة مقنع وكفاية ، لا نريد أن نتجاوزها لنظفر بالمخلص والمفازة .

---

(١) الأحزاب ١٣ .

وجزموا بذلك ، وكرروا بأساليب مختلفة سراً وجراً دعوتهم للعرب بأن حل مشاكلهم ، ومفتاح نهضتهم ، وسر يقظتهم ، ومعقد عزمهم هو فى قوميتهم وذاتيتهم ، ويدللون زوراً بوهم أن كل مجد نالته الإنسانية إنما هو من عبقرية العرب لأنهم عرب ، ومن لدن العرب بمجرد أنهم عرب وليس لأنهم أسلموا ، ويقولون للمسلمين اسمحوا لنا ولا تفتنونا عن عروبتنا (ألا فى الفتنة سقطوا) وفى الحيرة وقعوا ، وفى التناقض انقسموا .

وقوع القوميين فى حيرة من أمرهم

وشعورهم بالحاجة إلى المخلص

لكن القوميين على رغم تمسكهم الشديد بالقومية يشعرون أن قوميتهم ذابت وتلاشت أمام إعصار شديد ، حتى بلغ القرف عند الكثيرين أن أصبحوا يشمئزون من سماعها أو سماع الحديث عنها ، كما يقول الدكتور المنجد ، ولقد آلت القومية بالعرب إلى مستوى برم به حتى القوميون أنفسهم ، وجعلت حليمهم حيرانا . وحتى أن بعضهم كفر بها ولكن راح يلتمس خلاصه فى الشيوعية أو فى الرأسمالية الإلحادية ، أما من بقى متشبثا بها فهو قرف منها . حيران فيها لا يهتدى للخلاص من القومية التى يراها هالكة وهو صائر إلى مصيرها لأنه لا يزال قوميا ولا يرى فى غيرها مخلصا ، مع أنه فى الحقيقة لا مخلص إلا بالإسلام ، لكن القومى بسبب التزامه مبدأ القومية لا يتجاوزها إليه وما كان للمندس فى القومية أن يرى فضل الإسلام ، بل إنه يدور فى بحر منها لجى مظلم ولا يدرى أن داءه منه ، ويظل يذهب فى التبرير والتأويل شتى المذاهب ، يقول الدكتور صلاح الدين المنجد : « هكذا أصبحت القومية العربية ألعوبة ، يستخدمها الكتاب

والمؤرخون والسياسيون والحكام ، لأغراضهم ، فضاعت قدسيتها ، وشوه جمالها ، حتى بلغ القرف عند الكثيرين أن أصبحوا يشمئزون من سماعها أو سماع الحديث عنها ، وأصبحنا جميعاً أمام هـــذا البحر من التأويلات والدراسات والتفسيرات ، وتحت تأثير الأغراض المختلفة لاندرى ماهى القومية ولانعرف أى قومية نريدها ، ولا أى قومية توافق مجتمعنا العربى المعاصر »[1] .

ونلاحظ أن الدكتور صلاح الدين المنجد لم يتخلص من اعتقاد أن القومية حق ، ولذا واجه هذا البحر الذى يذكره من التفسيرات والتبريرات ودخل فيه حينما يزعم أن للقومية قدسية وجمال، ضاعت وشوهت باللعب بها تبعا للأهواء ، هكذا يحار القومى ، لايدرى ماهى القومية ، ولا يعرف أى قومية يريدها ؟ ولا أى قومية توافق مجتمعنا المعاصر ؟ لم يجدوها شيئا فى ماض ولا حاضر ثم ينكس القومى على رأسه فيشتد بالتزامها كمبدأ مسلم به وحق ثابت لايقبل لحصا ولا مراجعة ويبدأ من جديد فى السلسلة الدائرة كالحلقة المفرغة من التأويلات والدراسات والتفسيرات ، يقول الدكتور المنجد فى تقديمه لكتاب : « محنة القومية العربية » الذى ألفه القومى : أركان عبادى :

« إنى أعتقد أن هذا الكتاب الذى ألفه السيد أركان عبادى — وهو عربى الدم ، وسياسى ، ومثقف ممتاز ، من أحسن الكتب التى صدرت هذا العام فى البلاد العربية . .

---

(١) الدكتور صلاح الدين المنجد ، مقدمته لكتاب : أركان عبادى ، محنة القومية العربية ، ص ٧ .

« لأنه حاول أن يصف الداء الأكبر ، أو المحنة ، وأن ينفذ إلى الجزئيات ، وأن يبين الاتجاهات الدخيلة ، ويذكر خيرها وشرها ، ثم أن يضع الحل الذى يجب اتباعه » .

« ولقد كان المؤلف حيادياً فى بحثه ، عميقاً فى نظراته ، لقد رأى : أن قوميتنا يجب أن تنبع منا ، من أنفسنا ، وتراثنا ، وروحنا ، ومانحتاج إليه للتقدم ومسايرة الإنسانية ، والمشاركة فى بناء الحضارة . ولقد عرض رأيه أحسن عرض »[1] .

ويقول أركان عبادى حين يهدى كتابه هذا : « إلى الزعيم العربى الذى يحمل رسالة الإصلاح عن طريق بعث الذات العربية الأصيلة فى كرامتها وعزها نهدى هذا الكتاب »[2] .

« إننا نعتقد بأن الأمة العربية تقف اليوم أمام إعصار شديد يهدد سلامتها وأسسها فى الصميم .

« وتعيش فى أزمة نفسية حادة لتقرير مصيرها تجاه « الأيديولوجيات » المعاكسة والمستحدثة ، وتجاه زحف الأحداث وتطور العلوم ، وتغيرات العالم .

« يذكرنا التاريخ ، وهو غنى بالحوادث والعبر ، بما حدث لأمم عريقة فى الوجود ، مثل أمتنا ، أصبحت فى عالم الفناء اليوم ، فانقرضت ، لأنها أذابت شخصيتها فى بحر الأممية فتلاشت صفاتها الأصلية

---

(١) المصدر السابق ص ٧ ، ٨ .

(٢) أركان عبادى ، محنة القومية العربية ص ٩ .

ومقوماتها المميزة »(١) .

ويقول أركان عبادى أيضا وهو فى كتابه على حد تعريف الناشر : « يعبر فيه عن آراء الآلاف والآلاف من العرب المعاصرين » :

« هذا طريق الخلاص ، القومية التى نريدها والميثاق الذى نقترحه .

« الأمة العربية من أعرق الأمم فى التاريخ ، وجذورها تمتد عبر القرون والأجيال ، ولها تراث زاخر يشمل كل فكر فى حقول الفكر الإنسانى تعاونت أجيال عديدة على صنعه وتكوينه »(٢) .

« إن حياتنا العامة تعانى أثر التفكك العميق فى جوهر وحدتنا القومية .

« ويجب علينا أولا أن نركن إلى تجارب أمتنا وتاريخنا .

« يجب علينا تركيب الأفكار المجردة ، وتنظيم وظائفها وعلاقاتها فى كل متماسك ومفهوم عقائدى يطابق وحدة تفكيرنا الأساسية ، ويكون عرضا عاما لمقومات أيديولوجيتنا القومية . يجب أن تحظى باحترام إجماعى لا باعتبارها وسائل حكم فحسب ، بل لذاتها وقيمتها المطلقة ، وباعتبارها تمجيداً لتراث ثقافى متنام ومتطور »(٣) .

ويقول : الميثاق القومى ، الاتجاه يعلن ميثاق قومى ، بعد اقراره فى مؤتمر عام يعقد فى محل ما ويضم نخبة من المفكرين والزعماء السياسيين

---

(١) أركان عبادى : محنة القومية العربية ص ١٣ — ١٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣١ — ١٣٣ .

وكبار الصحفيين والأدباء ورجال التعليم وخبراء القانون فى دنيا العرب ، تحت رعاية أحد كبار المفكرين أو أحد القادة فى الأمة العربية ليدعمه ويرعاه بكل مالديه من القوى المعنوية ليضعه بعد إقراره أمام الشعب العربى ، أمام الملاك والحكام والجامعة العربية والمؤسسات الثقافية والأدبية الأخرى للتأييد والإقرار »(١) .

وفيما يلى وصفة أخرى من قوى آخر كشاهد لما تقدم :

يقول مدثرعبد الرحيم الطيب فى كتابه : « أزمة المجتمع العربى المعاصر المسألة الحضارية » .

« أما الخطر المحدق بنا اليوم فإنه لايتهدد أرضنا أو أعناقنا وحسب ، بل إنه يتهدد شخصيتنا نفسها وأصل كيـاننا ، يتهدد عبقرية هـذه الأمة »(٢) .

ثم يقول : « إن الشرط الأساسى فى تحقيق نهضتنا المرجوة — إذا أردنا نهضة حقيقة تتوافر فيهـا عناصر الأبداع والحيوية والأصالة الديناميكية ، الشرط الأساسى لـكل ذلك هو تحقيق ثورة ثقافية خلقية حضارية شاملة . . . ثورة ننفض بها ماتراكم على أمتنا من غبار الزمن وخرافة الأجيال وننفذ بها إلى جذور شخصيتنا الحقيقية فى تاريخنا ، ثم تتعهدها »(٣) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٢) مدثر عبد الرحيم الطيب، أزمة المجتمع العربى المعاصر ، المسألة الحضارية ، ص ١٢ .

(٣) المصد السابق ، ص ١٨ .

وفى موضع آخر صور الأستاذ مدثر حالة القوميين العرب فقال :

١ — أما بعضهم فقد أضاع الوقت فى التراشق بالتهم ، وتبادل السباب ، يبرئ كل منهم نفسه ويضع مسئولية ماحدث على أكتاف الآخرين ... فانشغلوا ببعضهم ، وانصرفوا عن المعركة الحقيقية .

٢ — وأدرك بعضهم حقيقة الموقف فقام محاولا صد الهجوم ولكن بأسلحة قديمة صدئة بالية باذلا غاية جهده لسد الباب فى وجه الأعداء ولكن الأبواب مثقبة هالكة ، والنوافذ هزيلة ركيكة ، والسقوف خاوية مهتكة .

٣ — وفريق ثالث ، كذب ما أبصرت عيناه ، ورفض أن يصدق هول ماحدث — فراح يغالط الحقيقة ويمارى الواقع ... آثر أن يدفن رأسه فى رمال الماضى وسحب الذكريات ... يجتر أيام العرب ، ويدمن فتوحات المسلمين ، ويوهم نفسه أن كل شىء على مايرام .

٤ — شلت الصدمة فريقا آخر ... أصيبوا بعنة فكرية أجلستهم القرفصاء فى قاع السفينة . .

٥ — وبين هؤلاء وأولئك قام فريق من الخائرين المنهزمين ... استهوتهم مظاهر من حضارة الغرب ... فراحوا يتسللون إلى سفن العدو: يزاولون البغاء الفكرى ويتاجرون فيه سرا وعلانية . . وأصبحوا يأتوننا كل يوم بجديد من زينة القوم : مرة باسم الحضارة ، ومرة باسم التحرر ، ومرة باسم الفنون . ولكنهم ، شأنهم فى ذلك شأن البغايا ، قد أخذوا إليهم بالأعراض دون الجواهر وبالمظاهر دون اللباب ... فظنوا أن الحضارة الغربية هى « سيجارة وكأس » ، أو لكنة فى الكلام ومجردى زى فى اللباس . وأما العلم ، أما الجد ، وأما النظام من مقومات الحضارة

الغربية ، وميزاتها فقد أهملوها أو استثقلوها ، أو لمسوها لمسا مخنثا ضعيفا بعرض التزين بذكرها ، والتطاول بها فى المجالس والمنتديات . ثم إنهم ، شأنهم فى ذلك شأن البغايا ، قد اختلفوا فيما بينهم ، ورفعوا أصواتهم بالخلاف والنزاع . . . أخذت جماعة منهم تجرنا إلى فرنسا ، وجماعة أخرى تجذبنا إلى انجلترا أو أمريكا ، وجماعة ثالثة تحاول سحبنا إلى روسيا . . وكل جماعة منهم تحاول أثناء ذلك أغراءنا وخداعنا عن أنفسنا والمساومة فى أعراضنا »[١] .

انتهى ما أردت نقله من وصف الأستاذ مدثر للمجتمع العربى ولأنه قومى عربى يصف العرب من هذه الزواية التى هو نفسه يشعر بانتمائه إليهم منها فإن وصفه انطبق بصدق تمام الانطباق على القوميين العرب ولم يجاوزه إلى غيرهم لأنه لايرى غيرهم ، كما أنه لايرى أن الإسلام غير القومية العربية ، بدليل قوله : « إن ارتباط العروبة بالإسلام وثيق قريب بحيث لايمكن التفريق بينهما فى واقع الأمر ولا حتى من الناحية النظرية . . » إلى قوله : « وإذن فالإسلام (أو الحضارة الإسلامية) تراث مشترك بين جميع العرب : نصارى كانوا أم مسلمين . راجع فى ذلك كتابات قادة الفكر والقومية العربية من المسيحيين كالأستاذ ميشيل عفلق ، والدكتور نبيه فارس ، والدكتور جميل صليبا »[٢] .

هكذا يحار كل قومى صادق فى قوميته كما حار الأستاذ مدثر على الرغم مما لديه من عواطف إسلامية وسواء رأى هذه الحيرة أم لم يرها ، فهو لايرى نقطة الافتراق الواضحة بين المسلمين والنصارى ماداموا عربا بسبب

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، الهامش ص ٥٤ .

التزامه المبدأ القومى التزاماً عاقه عن المسيرة الإسلامية التى جاوزت حدود القومية سائرة إلى الله رب العالمين .

وهذا هو السر فى عدم رؤية الآخرين من القوميين ذوى العواطف الإسلامية نقطة افتراق الإسلام بأهله عن النصارى واليهود وجميع المخالفين له ، وإن كانوا عربا ، أو من جنسهم القريب .

ولذا فإن مدثر القومى — كغيره من القوميين ذوى العواطف الإسلامية — لم يخرج فى وصفه للدواء والحلول عن أن يكون نفسه من الفريق الثانى الذين وصفهم بإدراك الموقف على حقيقته — الخطر المهدد شخصية الأمة العربية — ولكن أسلحته قديمة صدئة بالية ، فراح مدثر : يصف العلاج والحل من نفس هذه الأسلحة القديمة الصدئة البالية ، بقوله بعد ذلك الوصف للداء : « ولكن أمتنا الكريمة الأبية ، رغم نكبتها ، وتكالب المصائب عليها من جهة ، ورغم الإغراء والترضية وسياسة الاحتضان من جهة أخرى . . . أنها رغم ذلك قد رفضت أن تساوم فى شخصيتها .

« إن أول مانحتاج إليه فى تحقيق النهضة التى نصبوا إليها هو الالتفات إلى تاريخنا وتراثنا .

« نريد أن نلتفت إليه ونتفهمه لنكتشف فيه جذور شخصيتنا — فننفض عنها غبار الزمن ونرعاها وسر عبقريتنا — فنستلهمها ونفجر كوامن طاقاتها ، وعناصر رسالتنا إلى هذا العالم المضطرب فننشرها ونأسوا بها جراحه ، ونسهم فى إسعاده مستقبلا كما فعلنا سابقا .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ .

« أما إذا لم يكن بد من الاستشهاد — بأوربا ، فلنذكر أنها لم تنهض نهضتها العظيمة الحاضرة إلا بالرجوع إلى تراثها فى حضارة الإغريق والرومان وآباء الكنيسة فى القرون الوسطى ، ثم بالبناء الذكى على ماوضع أولئك من قيم وتقاليد وفلسفات ما زالت هى المنهل الذى تستقى منه وتستلهمه .

« ولا عجب إن فعلت ذلك ، فتاريخ الأمم وتراثها ، إذا ما نظرت إليه نظرا ذكيا واعيا ، مصدر عظيم من مصادر قوتها وإلهامها ، وجذر حى سرعان ما ينبت إذا ما تعهد ويمتد فرعه ثم يزهر ويثمر وليس كما يزعم الجهلاء مجرد « رواسب » ينبغى التخلص منها وقطع الصلة بها ، أو جثث تحنط ويكتفى بالنظر إليها والتعجب منها »(١) .

هكذا يصف لنا الحل ، بالرجوع إلى تاريخنا وتراثنا ، لنكتشف فيه جذور شخصيتنا كعرب ، وهذا يعنى طبعا ذلك التاريخ المشترك الجامع لليهود والنصارى والوثنيين والباحثين عن الدين الحنيف المضاع ، ويستشهد بزعم أن أوربا نهضت بما وضعه آباء الكنيسة وبما نبشت من مخلفات الرومان والإغريق فى قرونها الوسطى ويعلل بأن التاريخ والتراث بالنظر الذكى مصدر عظيم من مصادر القوة والإلهام.. الخ .

هل هذا سوى سلاح قديم صدىء بال ؟ يعود بالأمة العربية إلى ماضيها الجاهلى بقدوة أوروبية ، نزعة قومية بعقلية غربية ، كما قال الحصرى وتقدم وكذلك الدكتور صلاح الدين المنجد فإنه مع معرفته لما هية فكرة القومية يلتزمها بدليل قوله :

(١) المصدر السابق ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ .

« تنبه العرب إلى فكرة القومية فى أوائل هذا القرن - بعد أن كان مضى على موتها فى أوربة فترة طويلة - بتأثير الغرب . وكان هدفه الأول إشعال الثورة على الخلافة الإسلامية الممثلة فى الامبراطورية العثمانية وتحطيمها وقد تم للغرب ما أراد فانهارت الخلافة التى كانت ترمز إلى التراث الإسلامى - العربى كله . أما العرب ، الذين خيل إليهم أن ثورتهم ضد العثمانيين ستعطيهم الحرية فقد وقعوا تحت عبء الحمايات والانتدابات فترة ليست قصيرة »[1] .

ثم يعود الدكتور المنجد إلى الثناء على كتاب « محنة القومية العربية » ومؤلفه أركان عبادى ، ورأيه فى الداء والدواء الذى قدمناه ، وفيه قول المنجد : « كان المؤلف حياديا فى بحثه ، عميقا فى نظراته . لقد رأى أن قوميتنا يجب أن تنبع منا ، من أنفسنا »[2] .

هكذا يقول القوميون : « قوميتنا يجب أن تنبع منا » ، وتقول لهم : وأنتم من أين نبعتم ؟

لكن القومية تدور بهم حتى يدورون على أنفسهم . إن القومى لا يخطر بباله وإن كان متسميا بالإسلام ومن المسلمين ، أن الإسلام شىء نازل من خارج ذاتية العرب لأن اعتقاده بأن القومية حق حجبه عن الحق ، عن ذكر أن الاسلام ربانى (تنزيل من رب العالمين) الواقعة : ٨٠ ، الحاقة : ٤٣ . تنزيل من رب العالمين الذى انفرد بصفات الكمال

---

(١) تقديم للدكتور صلاح الدين المنجد ، لكتاب : أركان عبادى ، محنة القومية العربية ، ص٥ .

(٢) وانظر : صفحة ، ١٤٤ من هذا البحث . ابتداءاً من السطر الثالث .

عن مماثلة المخلوقين ، فلا يرى القومى أنه يلزمه أن يعبد ربه بمنهج ليس من وضعه ، وليس له فيه خيار ، ولا هو من ذاتيته ، فوقع فى حيرة ودور كما وقع من اعتقد أن البيضة تخرج الدجاجة ، والدجاجة تخرج البيضة ، بنفسها ، دون مكون خارجى . وكما هو شأن كل من وهم أن وضع البشر يماثل أو يكافىء وضع رب البشر تعالى .

ومن هذه النصوص وأمثالها نرى هؤلاء الدائرين فى دائرة القومية ، حتى وإن كانوا فى أفضل حالاتهم وأصفاها مع الإسلام ، إنما يدعوننا إلى ما يزعمون أنه الخلاص لنا ولهم كعرب أن نركن إلى كلية مشتركة تاريخية تشخص العرب عن غيرهم على أساس وصف العروبة فحسب ، وإذا سايرناهم قليلا للانصاف ، فبحثناها وجدناها ممتدة الجذور من الواقع التاريخى للذات العربية المشتركة فى الجاهلية .

وللمقارنة بين غناء ذلك القدر المشترك عن المشتركين فيه وبين غناء الإسلام عن المسلمين ، يوم أن امتن الله به عليهم . أقدم خلاصة موجزة هى أجمع ما وجدت فى تصويره من خلال أنسابهم ومساكنهم ولغتهم وحالتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، تلمح منها عن كثب ذلك الواقع العربى المشترك ، وتلك الذات العربية ، والتى منها اتصلت العروق وامتدت الجذور بالقومية العربية الصادقة :

١ — يذكر ابن كثير أن هودا عليه السلام : « من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف — وهى جبال الرمل — وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر ، واسم واديهم مغيث ، وكانوا

كثيرا ما يسكنون الخيام ، ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد) أى عاد إرم وهم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فتأخرة » .

« ويقال إن هودا عليه السلام أول من تكلم بالعربية وزعم وهب ابن منبه أن أباه أول من تكلم بها ، وقال غيره : أول من تكلم بها نوح وقيل آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك. والله أعلم .

« ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام ـ العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة : منهم عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان وبنو يقطن وغيرهم

« وأما عرب اليمن وهم حمير . فالمشهور أنهم من قحطان .

« وقحطان بن هود وقيل هو هود . وقيل هود أخوه ، وقيل من ذريته ، وقيل إن قحطان من سلالة إسماعيل حكاه ابن إسحاق وغيره .

« والجمهور على أن العرب القحطانية ليسوا من سلالة إسماعيل[١] .

« وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل .

« وكان إسماعيل أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان ، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله (محمد) صلى الله عليه وسلم[٢] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جزء ٢ ص ١٧١ ، تحقيق النجار .
(٢) المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

« وعندهم (أى الجمهور) أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية وعدنانية ، فالقحطانية شعبان : سبأ وحضرموت ، والعدنانية شعبان أيضاً : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان .

« والشعب الخامس - وهم قضاعة - مختلف فيهم فقيل إنهم عدنانيون، والقول الثانى أنهم من قحطان .

وقال محمد بن سلام البصرى النسابة : العرب ثلاثة جراثيم : العدنانية والقحطانية وقضاعة ، قيل له فأيهما أكثر ؟ العدنانية أو القحطانية ؟ فقال: ما شاءت قضاعة أن تيامنت فالقحطانية أكثر وإن تعدنت فالعدنانية أكثر(١) .

ويذكر ابن جرير فيما ذكر له والله أعلم أن بدء نزول العرب أرض العراق وثبوتهم فيها ، واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلا بسبب دخول بختنصر بلاد العرب وجزيرتهم وقتله كل ذى روح قدر عليه مما استعرضه وتخريبه الجزيرة تسليطا من الله لأنهم كذبوا الأنبياء واتخذوا الآلهة من دون الله بعد فراغه من بنى إسرائيل ومن إخراب ديارهم وتشريد بقيتهم إلى بابل .

ولقد سلط الله بختنصر على أهل عربة (مكة) فى زمن عدنان . واجتمع أكثر العرب من أقطار عربة مع عدنان إلى (حضور) - اسم مكان - لملاقاة بختنصر ، فأخذت سيوف بختنصر العرب من بين أيديهم ومن خلفهم فندموا على ذنوبهم فنادوا بالويل ، وإياهم وبنى إسرائيل عنى الله بقوله :

---

(١) المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين)
الآيات : من سورة الأنبياء : ١١ - ١٥ .

ونهى بختنصر عن عدنان ، ونهى عدنان عن بختنصر ، فرجع بختنصر إلى بابل ، وألقى ماجمع من سبايا عربة بالأنبار . فقيل أنبار العرب والحيرة لتحيرهم فيها(١) .

ويذكر ابن جرير الطبرى أيضاً فيما يروى عن ابن الكلبي : أنه لما مات بختنصر انضم الذين أسكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار من قبائل العرب من بنى إسماعيل ، ولما كثر بنوا معد بن عدنان ، ومن كان معهم من قبائل العرب وملؤوا بلادهم تهامة وما يليها فرقتهم حروب وقعت بينهم وأحداث حدثت فيهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين وبها جماعة من الأزد فتحالفوا على التنوخ - وهو المقام - وتعاقدوا على التوازر والتناصر ، فصاروا يدا على الناس وضمهم اسم تنوخ ، فكانوا بذلك الاسم ، كأنهم عمارة من العمائر ، وتنخ عليهم بطون من نمارة بن لخم ، ودعا مالك بن زهير جذيمة الابرش الأزدى إلى التنوح معه ، فتنخ جذيمة وجماعة ممن كان بها من قومهم من الأزد فصارت كلمة تنوخ كلها واحدة ، وذلك أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الاسكندر عند قتله دارا بن دارا ملك فارس ، وكان يملكهم .

فتطلعت أنفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق ، وطمعوا فى غلبة الأعاجم ، فأجمع رؤساؤهم بالمسير إلى العراق ونزل

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى ١/٥٥٨ - ٥٦٠ .

كثير من تنوخ مع عرب الأنبار والحيرة الذين ألقاهم بختنصر بها فكان أول من ملك منهم مالك بن فهم من تنوخ ثم من بعده أخوه عمرو بن فهم، ثم من بعده جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم الأزدى من سبأ[1] .

ويذكر ابن جرير أيضاً عن ابن الكلبي أن جذيمة من أفضل ملوك العرب رأيا، وأبعدهم مغارا وأشدهم نكاية، وأظهرهم حزما، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب وغزا بالجيوش وكانت منازله فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيتها وعين التمر، وأطراف البر الى الغوير والقطقطانة وخفية وما والاها. وتجبى إليه الأموال، وتفد إليه الوفود، وكان غزا طسما وجديساً فى منازلهم من جو وما حولهم - وكانت طسم وجديس يتكلمون العربية - فأصاب أن ملك اليمن حسان بن تبع الحميرى وهو ابن وريث بلقيس على الملك فى عهد ملوك الفرس الذين استطالوا بعد نهاية ملك سليمان وتسليط بختنصر على بنى إسرائيل والعرب - فأصاب جذيمة أن ملك اليمن هذا قد أغار على طسم وجديس باليمامة فانكفأ جذيمة راجعاً بمن معه . وتأتى خيول تبع هذا على سرية لجذيمة فتجتاحها وعندها يقول جذيمة شعرا :

ربما أوفيت فى علم ترفض بردى شمالات
فى فتو أنا كالئهم فى بلايا غزوة باتوا

إلى قوله :

أنا رب الناس كلهم غير ربى الكافت الفات

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى ، ١/٦٠٩ - ٦١٣ .

إلى قوله :

وقد شربت الخمر وسطهم ناعما في غير أصوات

ولا يخفى ما فى هذا الشعر من إقواء وتفاهة .

وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن واتخذ صنمين يقال لهما : الضيزنان ومكانهما بالحيرة معروف .

وكان يستسقى بهما ويستنصر بهما على العدو . وكانت إياد بعين أباغ ، وأباغ رجل من العماليق فغزاهم جذيمة ، فبعث إياد قوما سقوا سدنة الصنمين الخمر ، وسرقوا منهم الصنمين فأصبحا فى اياد ، وبعثوا لجذيمة أن أوثقت لنا أن لا تغزونا رددناهما إليك ، فأوثق لهم وانصرف عنهم بالصنمين ، وجمع جموعه من العرب فغزا ملك العرب الآخر بأرض الجزيرة ومشارف الشام عمرو بن ظرب العمليقى فقتله جذيمة وملكت ابنته الزباء . وكانت جنود الزباء من العماليق والعاربة الأولى وتزيد وسليح ابنى حلوان بن قضاعة ، ومن كان معهم من قبائل قضاعة(١) .

وقصة الزباء مع جذيمة مشهورة وأنها احتالت عليه حتى قتلته ثأراً بأبيها . واعتمدت فى ذلك على الكهان ، ومشهور كذلك ما جرى بينها وبين ابن أخت جذيمة عمرو بن عدى الذى ملك بعد خاله من قبل الفرس ، وحيل قصير معها(٢) .

وكان من أخبار طسم وجديس أنهم من ساكنى اليمامة ، وهى إذ ذاك

---

(١) المصدر السابق ، ٦١٣ – ٦١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ٦١٨ – ٦٢٨ .

من أخصب البلاد وأعمرها . وكان عليهم ملك من طسم ظلوم غشوم ، لا ينهاه عن هواه شيء ، يقال له عملوق ، مضرا بجديس مستذلا لهم ، ومما لقوا منه أنه أمر بألا تهدى بكر من جديس إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها فقتلته جديس وقتلت معه كثيراً من طسم وفر طسمى إلى اليمن يستعدى تبع على جديس فكان فناء جديس على يد تبع اليمن حسان ابن تبع كما سبق ذكره إلى أن فقأ عين اليمامة أخت المستعدى وصلبها على مدينة جو فسميت باسمها[1] .

وكان من أخبار تبابعة اليمن أنهم من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فلما عبدت قبائل سبأ غير الله وبطروا وسألوا أن يباعد بين أسفارهم أرسل الله عليهم سيل العرم فتفرقوا فى البلاد تشاءم منهم أربعة وتيامن ستة ، وهؤلاء التبابعة ممن تيامن بقى فيهم الملك حتى سلبهم ملك الحبشة ملكهم وأمر عليهم أبرهة إلى أن استرجعه سيف بن ذى يزن الحميرى قبيل مولد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بقليل .

وكان أحد ملوك التبابعة ربيعة وخبره مع شق وسطيح الكاهنين . وإنذارهما بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهور ، وذكر السهيلى أنهما ولدا فى يوم واحد .

وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية . ويقال إنها تفلت فى فم كل منهما فورث الكهانة عنها ، وهى امرأة عمرو بن عامر . وكان كاهناً أيضاً وله قصة تتلخص فى أنه أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم حين رأى الجرذ يحفر فى سد مأرب ، فكاد قومه حتى باعهم أمواله وهم

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٦٢٩ — ٦٣٢ .

لا يعلمون ، وقد ذكرها ابن كثير فى تفسير سورة سبأ مطولة[١] .

وهذه الدولة قد استولى عليها الفرس تماماً زمن باذان كما أن الرومان قد قضوا على بترا سنة ١٠٦ م بقيادة تراجان ثم قضوا على تدمر سنة ٢٧٢ م بقيادة أورليان(٢) .

وكان العرب على العموم خاضعين إما للروم فى الشام وما يليه ، وإما للفرس فى ريف العراق وما يليه ، وليس لهم فى داخل الجزيرة كيان مستقل وله نظام حكومى ، وإنما من كان له هذا النظام فهو تابع أما الرومان فى الغرب وأما لفارس فى الشرق ، وهذا التابع رغم ذلك هو فى الحالة الفضلى فى المعيشة والحضارة الدنيوية على سائر العرب ، وسائر العرب تفد عليه وتؤمه للتجارة والتعرض للعطاء والترف وغير ذلك من مرغوبات هل الجاهلية .

٢ — ولا يزيد عن ذلك الباحثون الجدد فى التاريخ للقومية العربية ، فكما فى محاضرات الدواليبي من ص ٥ - ١٥ حيث قرر فيها أن من نتائج البحوث العلمية الجديدة فى السنوات الأخيرة ومن خلال الآثار الحضارية القديمه ، الجزم بحقيقتين علميتين هما كما يقول :

١ — « أن الحضارة الإنسانية الأم إنما نشأت فى جزيرة العرب وفى جنوبيها على الضبط (أى سبأ التى أخبرنا الله بقصتها) » .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ١٧٤/٢ - ١٩٧ .

(٢) انظر : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية، للدكتور الاسد ، ناصر الدين ، ص ١٣ .

وانظر : العرب فى الشام قبل الإسلام لمحمد أحمد باشميل ص ٣٥ ، ٧٣ وما بعدها .

ثم اضطرت هذه الحضارة ـ تحت تأثير حدوث الجفاف فى الجزيرة العربية فريقاً من أصحابها من آكديين وبابليين وآشوريين وغيرهم ، إلى الانتقال والانتشار على جوانب الرافدين فى العراق وما حوله ، والفراعنة بجميع أسرهم الجنوبية والشمالية إلى الانتقال والانتشار على جانبي النيل .

٢ — أن هجرات عربية أخرى امتدت منذ ما قبل التاريخ على كل من أفريقية الشمالية ، والبلقان وإيطالية وأسبانية ، كما وصلت أيضاً إلى كل من ققفاسية وبحر الخزر من جهة . وإلى ترانسيلفانية وسلوفاكية وأعالى بوهيمية فى ألمانيا ، عن طريق مجرى الدانوب من جهة أخرى ، وأخيراً إلى كل من فرانسه والجزر البريطانية وايرلندة والدانمركة واسكانديناوه من جهة ثالثة ، كما شرحنا ذلك فى كتابنا « قلعة طروادة التاريخية » وصلتها بالهجرات العربية القديمة إلى أوربة »(١) .

ويستطرد فيقول :

« الشعب الفلسطيني العربى القديم ، الذى يدل اسمه فى اللغة الكنعانية القديمة على أنه فريق من الكنعانيين حسب مهنتهم واختصاصهم وهم « المحاربون » أو « الجبارون » كما أشار إليهم القرآن الكريم على لسان بنى إسرائيل حين خرجوا من رقهم لفراعنة مصر فقالوا فى الفلسطينيين :

« إن فيها قوماً جبارين » أو كما جاءت تسميتهم فى كتب التاريخ بالعمالقة .

---

(١) الدكتور محمد معروف الدواليبي ، دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضاراتهم الإنسانية ص ٥ ، ٦ .

ثم يذكر فى استطراده : « البونيين » فيقول : « وما هم إلا الهجرة العربية التى يرجع أصلها إلى منطقة « بون » فى اليمن ، والتى امتدت إلى الجزائر وتونس فى صدر التاريخ ، وإليهم يرجع بناء مدينة بون فى الجزائر المعروفة اليوم بمدينة عنابة ... مع بنائهم عدة مدن أخرى تحت هذا الاسم فى أماكن أخرى من العالم .

ثم يذكر التيرانيين والبحر التيرانى فيقول : « وما هم إلا الشعب « الايتروسكى » من بحارة النيل ، وهو كنعانى الأصل ، وقد سكن فى مطالع التاريخ فى شمالى إيطالية من نهر « التيبر » إلى جبال « الألب » وهو الذى اكتشف الجزر الثلاثة « كورسيقة » و « سردينية » و « سيسيليه » فيما بين ذلك من هذا الجزء من البحر مما أطلق عليه اليونان اسم بحر « التيرانيين » والكلمة كنعانية وتعنى بحر « البحارة » ولا نشك فى أن اسم جزيرة « تيران » ومضايق « تيران » فى مدخل خليج العقبة العربى له صلة بأصل هؤلاء « التيرانيين »[١] .

وهكذا يجد العاملون للقومية العربية ، ويتكلفون فى تحصيل الحاصل ، وتثبيت الواقع ، ويؤكدون صلة العرب بهذه المسميات من بلدان وشعوب وعمران ، ويظنون أن المسألة المشكلة عدم ثبوتها منسوبة إليهم ، وما فطنوا أن الكفر يقطع ما يدلى به الوارث من نسب ، وإلى أن سبب الإرث الصحيح هو ما دل عليه قوله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) الأنبياء : ١٠٥ ، ١٠٦ . والزبور : زبور داود الملك عليه السلام

---

(١) المصدر السابق ص ٨ ، ٩ .

والذى ينتظر اليهود من نسله طاغية يحكم العالم ، وهو الدجال الذى يتبعه اليهود المفسدون وكتب الله فى الزبور أن الأرض ، وله ملكها ، إنما يرثها عباده الصالحون لا المفسدون ، أى أن سبب الأرث الحق ، هو الصلاح والأصلح وهو عبادة الله وحده ، وليس التعلق بالأنساب والمآثر والتغنى بالأمجاد والمفاخر .

وعجيب أن يلتمس أصحاب هذه البحوث الملهية عن نقطة الخصومة الإسلام ، حتى يضيع أصحابه عنه فيضيعوا عن كل شىء ، عجيب أن يلتمسوا مبررا من القرآن ، يقول الدواليبي بأنه يبحث فى هذا : « للاسهام بالعمل بالإشارة القرآنية فى هذا المقام التى خاطبت العرب فى عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمرتهم بالنظر فى تاريخ أجدادهم السابقين وما كانوا عليه من قوة وآثار حضارية فى الأرض حيث جاء فى القرآن الكريم (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن . مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) الأنعام : الآية : ٦ .

وكما قال فى مكان آخر : (كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض) سورة المؤمن الآية ٨٢ .

وكما جاء فى مكان آخر فى إرم ذات العماد ، (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) سورة الفجر الآية ٩ . وفى مصر (وفرعون ذى الأوتاد) الفجر الآية ١١ . أى الأهرامات »(١) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧ ، ٨ .

ثم لم يبين أن مراد الله هو تنبيه العرب أن لا يغتروا بنواديهم وأموالهم وأولادهم وتجارتهم التى تفوقوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من الصحابة حين بدء الدعوة فى مكة ، وأن آباءهم وأجدادهم وغيرهم ممن قبلهم ما أغنت عنهم هذه الأمور وهى فيهم أكثر وأعمر بدليل آثارها التى يرونها لما كذبوا وعبدوا غير الله بل يوهم أن مراد الله هو دعوة العرب لزيادة التمسك بالأموال والأولاد والأوطان وعمرانها حتى يصلوا إلى مستوى آبائهم فيها بدليل مدحها بأنها قوة وحضارة ، وعدم تكملة سياق هذه الآيات لأن فيه بيان مراد الله تعالى ، بل مدحها فى حالة المسغبة ، مسغبة العرب المنكوبين إلى هذه القوة والحضارة .

وكأن مدحها واثارة الشهوة فيها هو طريق الحصول عليها ، بينما ذلك زيادة فى الحرمان ، زيادة فى الشعور به ، والحسرة على فواته ، أما طريق الحصول عليها فهو مجاوزتها إلى مالكها وطلبها منه ، سبحانه ، والعمل بما شرعه سببا لرزقهم إياها .

وهل يريد أعداء العرب من علماء الآثار فى بحوثهم الأثرية سوى دعوة العرب إلى أن يعودوا إلى آثارهم الوثنية ، ومخلفاتهم الهمجية التى كان العرب عليها إبان ضياعهم وحرمانهم ، ويروجون الدعوة إليها بأنها حضارة مؤثرة ، كما يقوله هومل الأوربى ، وقد سبق ، وأعيده هنا للمناسبة : « أن الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ونقوشها ، وحصونها وقلاعها لا بد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد » .

وقال : « إن أهمية العرب فى الشرق القديم تكمن فى مجال الحضارة

والدين ويكفي أن نذكر كلمتي البخور وعبادة النجوم ، لندرك أثر العرب في الأمم المجاورة لهم ولا سيما العبرانيين واليونان »(١) .

٣ — وبقى مصدر تاريخي هام وهو الشعر الجاهلي (ديوان العرب) :

إذا بحثنا فى الشعر الجاهلى نجد فيه أن بنى أسد سموا « عبيد العصا » حين قتل سرواتهم ملك العرب فى جاهليتهم ، حجر بالعصى وكان هذا الملك قد ورث الملك عن أبيه الحارث الذى ملكه قباذ ملك الفرس على العرب(٢) .

يقول شاعر بنى أسد عبيد بن الأبرص بين يدى حجر هذا بعد تلك الحادثة يستعطفه :

أما تركت تركت عفوا ... أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم ... وهم العبيد إلى القيامة
ذلوا لسوطك مثل ما ... ذل الأشيقر ذو الخزامة

فعطف عليهم حجر : وعفا عنهم ، فتكهن كاهنهم عوف بن ربيعة الأسدى ، فقال :

---

(١) نقلا عن الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، تمهيد مجتمعات العرب فى الجاهلية وتفاوتها فى الحضارة ، ص ١١ ، ١٢ .

(٢) أنظر : مختار الشعر الجاهلى للشنتمرى ، تحقيق مصطفى السقا ، ص ٩ .

« يا عباد : قالوا : لبيك ربنا » وحرضهم بالسجع على قتل حجر وهو لا يصرح باسمه حتى استفهموا منه بقولهم : « من هو ربنا » ؟ فأفصح لهم فقتلوه . وفى ذلك يقول ابنه امرىء القيس ووريثه المضياع :

أرقت لبرق بليل أهل ... يضىء سناه بأعلى الجبل

. . . .

بقتل بنى أسد ربهم ... ألا كل شىء سواه جلل

فأين ربيعة عن ربها ... وأين تميم وأين الخول(١)

وامرىء القيس هذا ، ملك ضيع ملكه كما ضاع قلبه بين الغوانى ، وابن ملوك من ملوك العرب ومذكور فى دنياهم ، وشريف فى جاهليتهم ، يقود لواء الشعر العربى الجاهلى ، حتى وصل إلى أن قال :

نادمت قيصر فى ملكه ... فأوجهنى وركبت البريدا(٢)

وقد خصص من معلقته المشهورة وأولى المعلقات ما يقارب أربعين بيتا فى وصف ضياع القلب وحبه الذى بلغ حد العبادة والتوله حين يبدؤها بقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل(٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٢ وما بعدها ، وشرح ديوان امرىء القيس ، تأليف حسن السندوبى ، ص ١٨٠ :

(٢) مختار الشعر الجاهلى ، ص ١٢ .

(٣) شرح المعلقات السبع ، للزوزنى ، ص ٣

إلى أن يصف مدى تغلغل هذا الحب الضائع على فاطمة أو عنيزة ونحوها :

أغرك منى أن حبك قاتلى
وأنك مهما تأمرى القلب يفعل(١)

ويقول فى هذه المعلقة وهو يصف أفعاله التى أثمرها ذلك الحب حين ضاع :

فقلت لها سيرى وأرخى زمامه
ولا تبعدينى من جناك المعلل
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول
إذا مابكى من خلفها انصرفت له
بشق وتحتى شقها لم يحول(٢)

ومن ذلك قوله :

وبيضة خدر لايرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً
علىّ حراصا لو يسرون مقتلى

* * *

(١) المصدر السابق ، ص ١٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١ ، ١٢ .

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها
لدى الستر إلاّ لبسة المتفضل
فقالت يمين الله مالك حيلة
وما أن أرى عنك الغواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا
على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فتمايلت
على هضيم الكشح ريا المخلخل(١)

ومن ذلك قوله فى قصيدة أخرى من المختارات :

سموت إليها بعد مانام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لها بالله حلفة فاجر
لناموا فما أن من حديث ولاصال
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ وما بعدها .

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا
ورضت فذلت صعبة أى إذلال

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها
عليه القتام سيء الظن والبال

ثم إن امرىء القيس مع هذا يتهدد بعلها لو حملته الغيرة فيقول :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال(١)

ومما يدل على أن امرؤ القيس كان ممتنعاً بما تراه له العرب من مكانة وشرف رغم عهره وضياعه لاستساغة وقوع هذا الضياع فى المجتمع الجاهلى أن القلة الذين يخشون العار بين الناس لايجرؤون على قتله جهاراً ويودون لو قتلوه سراً قوله فى معلقته والذى سبق ذكره قبل قليل :

تجاوزت أحراساً إليهـا ومعشراً
على حراصاً لو يسرون مقتلى

ولا أدرى ماذا يبقى من العهر والإفساد بعد افتخاره بإغواء الحامل والمرضع ، وبيضة الخدر التى لايرام خباؤها ، وذات الزوج فى شعره ؟ إنه الفتنة والضياع ، ولا أدل على هذا الضياع العام فى المجتمع العربى بلا إسلام من قول طرفة بن العبد فى معلقته يفتخر أيضاً :

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى
وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد

(١) مختار الشعر الجاهلى ، للشنتمرى ، تحقيق السقا ، ص ٣٨ ومابعدها .

نداماى بيض كالنجوم وقينـــة
تروح علينا بين برد ومجسد

إلى قوله :

ولولا ثلاث هن من عشية الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودى
فنهن سبق العـاذلات بشـــربة
كميت متى ما تعل بالمـــاء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محنبا
كسيد الغضا نبهتـــه المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الخبـــاء المعمد(١)

لقد استطاع طرفة أن يجمع بين مجالس الرؤساء وأندية الفجار فى مجتمعه وكل شىء عنده فى هذه الحياة هو شرب الخمر . والحرب ، والتمتع بالنساء ولولا هذه الثلاث لم يبال فى أى وقت جاءه الموت . وهذه الثلاث من المفاخر فى المجتمع العربى بلا إسلام ، وأعلاها التشبيب ، بالنساء وتبرير الزنى بالعشق والغرام والحب ومايحدث من ميل القلب وضلاله ، ويليها الخمر . حتى أصبح من الأغراض الأساسية لشعر القوم أن تستهل القصيدة بذكر مفاتن المرأة وصفات الخمرة فاتحة ومقدمة ومهل للقصيدة كى تسمع وتنال القبول وتعلقها القلوب لأنها والهة هـذه الأشياء حتى حكيم الجاهلية زهير فى معرض الجد والحزم والإصلاح بين المتحاربين يبدأ معلقته بقوله :

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ .

أمن أم أوفى دمنة لم تـكلم بحومانة الدرّاج فالمتثلّم

« يعنى أمن منازل الحبيبة المكناة بأم أوفى دمنة لم تكلم ؟ » ، « والدمنة ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما »(١) .

وهذا الصبا والفتنة بالمرأة حمل كثيراً منهم على دفن بناته أحياء مخافة العار بين الناس واستسلاماً لوقوعه ، نظراً لمقتضى وقوع قلوبهم فى قبضة عشق المرأة والخمرة وهذا دليل كونهم من الجاهلين ، قال يوسف عليه السلام : (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)(٢) .

وينقض زهير حكمته وغرض معلقته بمقولته فيها :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهـرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم(٣)

وبمقولته فيها أيضاً : « ومن لا يظلم الناس يظلم(٤) » .

ويصور لنا التبعية إلى حد العبادة للقبيلة إن غوت وإن رشدت هذا البيت لدريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد(٥)

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى ، ص ٨٥ .
(٢) يوسف : ٣٣ .
(٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى ، ص ١٠٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
(٥) الأصمعيات ، ص ١٢ .

ولمقام هذا الفصل أكتفي بهذه الأمثلة من كتب التاريخ ، وتقارير البحوث الحديثة ، ودواوين الشعر الجاهلي ، لتقديم صورة مقبولة لجذور الشخصية العربية المشتركة التي يزعم القوميون أن رجوعنا إليها وتصورنا بها مخلص ومفازة مما يهدد شخصيتنا وأصل كياننا .

وقد تبين من هذه المصادر المختلفة مدى المستوى الذي وقع فيه العرب من إسفاف في النظر وانحطاط في الفكر ، وتبعية مذلة ، وذل لمن لا يستحق ، فهم وإن كانوا يذكرون الله ويحلفون به ويسمون أبناءهم : عبد الله وتيم الله ويقرون بأن الله خالقهم ومن قبلهم وسائر المخلوقات وأنه الذي يدبر الأمور فهم مشركون قد اتخذوا من دون الله أولياء وقالوا : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)[١] .

وفي جاهلية أفسدت تقديرهم للقيم والأخلاق .

والقوميون : سواء شعروا أو لم يشعروا إنما يجرون قومهم إلى هذه الصورة وهي صورة لا يعبأ بها ولا يقام لها وزن ، صورة العرب وهم على أسوأ حال يشركون بالله ، ويقتل بعضهم بعضاً يقول الشاعر القطامي عمير بن شييم وهو يصف حالهم ، حال قومه من العرب في كرهم وفرهم وعدوانهم على ذوي الأرحام إن لم يجدوا غيرهم أو على الأصح إن عجزوا وجبنوا عن عدوهم استأسدوا على بني عمهم وذوي قرباهم :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا(٢)

---

(١) الزمر : ٣ .

(٢) انظر : مجلة المجتمع ، عدد ٢٨٥ في ٣ / صفر / ١٣٩٦ هـ . ص ٤ وما بعدها .

وهذا القتال فى غير سبيل الله ، فمن يعوضهم غير الله ؟ إنها الخسارة . يتمسحون بأذيال فارس المجوسية فى الشرق ، أو بأذيال الرومان فى الغرب ، وقد دخل فيهم اليهود بالشر والفتنة والفساد والاستغلال ، وليس من نقص فى العروبة ، بل كانوا فى قمتها ومنتهاها ، يقول أحدهم المعلقات الطوال إنشاء ورواية ، ويقيم النوادى والمؤتمرات العربية من أدبية وفكرية وغيرها من مخالفات ومعاهدات ، وتجرى فيها البيانات غاية فى البلاغة وتصريف الكلام الذى يسبى العقول ويصرف القلوب إذا أذن الله تعالى .

ينحر أحدهم ناقته التى يركبها جوداً لمن نزل به ، بل يجود بنفسه لمن دعاه وعاذ به ولو فى سبيل التوافه ، ويسمى ذلك شهامة يخشى العار فيها ويتحاشى المسبة ويطلب حسن الأحدوثة من الناس فحسب ، ويتعصبون لذلك إلى حد التضحية والفداء ، فهل أنقذهم ذلك وخلصهم من الضلال المبين ، والخسران العظيم . هذا امرؤ القيس الذى دون شعره ونشر وكان به يفتخر ، وبشعره وشعر غيره يستشهد على صحة العروبة لغة وعادة وتقليداً ، وشرح ديوانه حسن السندوبى ورأى أن ينوه فى شرحه هذا باسم من لقبه « بطل العروبة الموفق » للمناسبة فى طبعته الخامسة بمطبعة الاستقامة الصفحة ٣ من الورقة الثانية بعد ورقة العنوان الأولى

أقول هذا لم ينج امرؤ القيس فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار »(١) .

والعروبة لم تنج عمرو بن لحى أبا خزاعة فقد قال النبى صلى الله

---

(١) مسند الإمام احمد ، ٢/٢٢٨ .

عليه وسلم : « رأيت عمرو بن عامر بن لحى يجر قصبه فى النار ، وكان أول من سيب السوائب » . قال ابن المسيب : « كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء »(١) .

والعرب بمجموعهم لم تمنعهم العروبة المشتركة وهى فيهم كل متكامل من الجهل والضلال والخسران يقول ابن عباس رضى الله عنهما : « إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام (إلى قوله تعالى) (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين)(٢) .

وما يسرنى جهلهم ولكن يسرنى العلم(٣) .

والذى وجدناه فى شعر امرؤ القيس من دعارة وعهر يكاد أن يكون سائداً فى الجاهلية لدى المجتمعات العربية ، بل المعروف أن من أنحاء نكاحهم الزنى والبغاء المحترف ففى صحيح البخارى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وصف لأنحاء النكاح فى الجاهلية ومنه « أن الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها حتى يتبين حملها ، فإذا تبين أصابها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، ونكاح آخر يجتمع الرهط (ما دون العشرة) على المرأة فيدخلون ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم:

---

(١) صحيح البخارى ، ٤/١٤٧ .

(٢) الأنعام : ١٤٠ .

(٣) نفس المصدر .

قد عرفتم ما كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها . لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ، ونكاح آخر : يجتمع ناس كثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها — وهن البغايا — ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت ، جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به ، ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك »(١) .

وأجمع وصف لهم قبل الإسلام فى قوله تعالى : (وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) (٢) .

هل يستطيع القوميون مهما فسروا القومية العربية وبرروها وقالوا بعدم الفرق بينها وبين الإسلام أن يخرجوا هذه الصورة من القومية العربية ؟ وهل تجتمع مع الإسلام ؟ وهى صورة الضلال . والضياع والخسار ، والتى جمعت بين اليهودى والنصرانى والوثنى والمسلم فى رابطة العروبة،فهل يهون على حر احترام رابطة متوهمة فيدخل عليه عدوه بذلك الاحترام ويستولى عليه ولا يرقب فيه إلاً ولا ذمة ؟

لا يستطيع القوميون أن يخرجوا تلك الصورة من القومية العربية ، ولا أن يجعلوا القومية العربية من الإسلام ، ولا الإسلام منها

ولا أدرى ماذا فيها من خلاص ومفاز ونصر على الأعداء وقد تضمنت يهودية ونصرانية ووثنية ؟

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب ٣٧ من قال: لا نكاح إلا بولى ، ص ١٤ .

(٢) آل عمران : ١٦٤ .

الاسلام هو المخلص والمفازة

عرفنا فيما تقدم أن القومية العربية ، حتى وإن كانت أصيلة كما رأينا لامخلص فيها ولا مفازة .

ولكن المخلص والمفازة هو الإسلام الذى منّ الله به فتخلص به هؤلاء العرب من تلك الصورة المتقدمة من الضلال المبين إلى الهدى ، والزكاء ، والعلم ، والحكمة .

قال الله تعالى : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)(١) .

لقد من الله على المؤمنين وعلى الناس ببعثة رسوله فى وسط هذا المجتمع الجاهلى ، وعلى تلك الصورة التى قدمنا مثالها وكان قومه عليها فجابههم بخلافها ونقضها ليغيرها ولينقذهم بالإسلام ، « لا إله إلا الله » حتى تزكو أنفسهم وتتطهر فيتعلموا منه الكتاب والحكمة ويهتدوا بهما إلى الرشد والسيادة ، وينتقلوا بهما إلى العز والمنعة وسعادة الدنيا والآخرة .

اللهم صل وسلم على رسول الله محمد . فكان حائز السبق : صديق الأمة أبا بكر رضى الله عنه صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووزره فى دين الله ، ودعا معه إلى الله ، فاستجاب لأبى بكر عثمان وطلحة وسعد رضى الله عنهم ، وبادر إلى الاستجابة صديقة النساء خديجة رضى الله عنها ، وبادر إلى الإسلام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان ابن ثمان

---

(١) الجمعة ٢ .

سنين ، وفى كفالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذه من عمه ، وبادر زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وأسلم ورقة بن نوفل »(١) .

وهكذا بدأ الإسلام بقلة من الناس ، بآحاد ضعفاء حتى كثرهم الله ودخل أناس فى دين الله واحداً بعد واحد ، وانتبهت قريش على بيان حقيقة ماهى عليه سابقاً ، وأنه باطل ، فخاف المشركون من دعوة الحق أن تجتاح شركهم وماهان عليهم فراقه فحينئذ شمروا لرسول الله بالعداوة ، ولأصحابه بالأذى والعذاب ، يقولون : (ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة أن هذا إلا اختلاق . أأُنزل عليه الذكر من بيننا ؟)(٢) .

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات : « قال السدى إن ناسا من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والأسود ابن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث فى نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذى يعبده ، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء ، فتعيرنا به العرب يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه ، فبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب فاستأذن لهم على أبى طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال أدخلهم فلما دخلوا عليه قالوا يا أباطالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه ، وقال : فبعث إليه

---

(١) مختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٥٧ .
(٢) ص : ٤ - ٨ .

أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا بن أخى هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك قال صلى الله عليه وسلم : « ياعم أفلا أدعوهم إلى ماهو خير لهم ؟ » قال وإلام تدعوهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « أدعوهم أن يتكلموا بكلمة واحدة يدين لهم بها العرب ويملكون العجم »

فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم ، ماهى وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها . قال صلى الله عليه وسلم « تقولون لا إله إلا الله» فنفروا وقالوا : سلنا غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : « لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ماسألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضابا وقالوا : « والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا »

ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير(١) .

وفى جامع الترمذى فى تفسير سورة ص بسنده عن ابن عباس قال : « مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبى صلى الله عليه وسلم وعند أبى طالب مجلس رجل فقام أبو جهل كى يمنعه قال وشكوه إلى أبى طالب فقال يابن أخى ماتريد من قومك ؟ قال أريد منهم كلمة (واحدة) تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم العجم الجزية ، قال : كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة ، فقال ياعم : قولوا لا إله إلا الله ، فقالوا إلهاً واحداً ؟ ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق قال فأنزل فيهم القرآن (ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق — إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٧ ، تفسير سورة ص .

قوله — ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) هذا حديث حسن صحيح(١) .

وأورد ابن جرير هذه الرواية عن ابن عباس بأبسط وأطول من رواية الترمذى وبأسانيد متعددة(٢) .

وقال ابن كثير بعد إيراده رواية لابن جرير الطبرى بلفظ أبى كريب وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائى والترمذى وقال (الترمذى) حسن(٣) .

ولنلاحظ وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى وضعه لاعدد ولا عدة ولا هو مع شىء من قيمهم الجاهلية التى رفعوها وألهوها مجمعين ، ولا معه سوى رب العالمين .

وعد قريشا بأن تدين لهم العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية ، إذا قالوا كلمة الحق لا إله إلا الله ، ولكن كيف يؤمن من حقت عليهم كلمة العذاب من الله ؟ كيف وهم فى تلك الصورة من الضلال والضياع بين العجم من فرس ورومان ، لايرون أنفسهم أهلا لشىء فى هذه الحياة من ملك وإن كان أمنية أحدهم السَّكَرِية لاتخرج عن أوصاف عرضهن عتبة ابن ربيعة على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لعله يختار أحدها ، ولأنهم يألهونها فهم لايشكون أن عقدة محمد صلى الله عليه وسلم فى إحداهن

---

(١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، تصحيح عبد الرحمن عثمان ٩/٩٩ وما بعدها .

(٢) انظر : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تأليف أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢٢/١٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٨ .

فلعله يقبلها فتنحل عقدته وتنتهى دعوته ، ولذا لما لم يقبل واحدة منها أو أكثر رموه بالجنون ، كما هو منطقهم ، حيث يرونها كل شيء ، وهى أعلى غاية يتمناها العربى فى جاهليته ، حتى يحقر نفسه أو لايراها شيئاً إذا فقدها أو عزت عليه .

جاء فى تفسير ابن كثير ، لسورة فصلت قوله : « قال الإمام عبد بن حميد فى مسنده ، حدثنى ابن أبى شيبة حدثنا على بن مسهر عن الأجلح عن الزيال بن حرملة الأسدى عن جابر بن عبدالله رضىالله عنه قال اجتمعت قريش يوما فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه فقالوا مانعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة فقالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة فقال يامحمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله علية وسلم ، فقال إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خيرمنهم فتكلم حتى نسمع قولك ، وإنا والله مارأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا وأن فى قريش كاهنا ، والله مانتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا وأخذا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فرغت ؟ » قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) ، حتى

بلغ قوله : (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)[١] .

فقال عتبة : حسبك حسبك ماعندك غير هذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا . فرجع إلى قريش فقالوا: ماوراءك ؟ قال: ماتركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، قالوا : فهل أجابك ؟ قال : نعم ، لا والذى نصبها بنية مافهمت شيئاً مما قاله ، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لاتدرى ما قال ؟ قال : لا والله مافهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة »

وذكر ابن كثير روايات أخرى عن أبى يعلى والبغوى وعن محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة تقرب منها وتؤيدها إلا أن فى رواية ابن اسحاق زيادة فى العروض التى عرضها الوليد هى قوله « وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه » .

وفى رواية ابن اسحاق زيادة أيضاً فى كلام أبى الوليد عتبة لقريش حينما رجع إليهم بعد سماعه القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى أنه قال لقريش : « سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها لى خلوا بين الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت

---

(١) فصلت : ١ – ١٣ .

نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ؟ قال هذا رأيي فيه فاصنعوا مابدا لكم »(١) .

وفي هذه الآيات التي تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عتبة قول الله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه . وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون)(٢) .

وفي هذا خلاصة الدعوة الإسلامية وغايتها ، وليست في شيء من تلك الغايات التي عرضها عتبة حتى المال والملك وهما أقصى غاية عند أهل الجاهلية ، ولله كم يلقى من عناء من يريد نقلهم من هذا الواقع الدرك ، وما كان إنذار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الواقع الوخيم ليفر من يعيشه إلى الله الذي يدعو إلى دار السلام ، وله الدنيا والآخرة ، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم الشدة في العداوة والأذى من أهله .

وفيما يلي أسوق موقفا من مواقف أنذاره صلى الله عليه وسلم لقرابته لما نزل عليه قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) . ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فهتف : ياصباحاه ، فقالوا من هذا ؟ فاجتمعوا عليه ، فقال : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا ماجربنا عليك

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٩٠ وما بعدها .

(٢) فصلت : ٦ ، ٧ .

كذبا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، قال أبو لهب تبا لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام فنزلت : (تبت يدا أبى لهب و ـ قد ـ تب ، هكذا ، قرأها الأعمش يومئذ »(١) .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فتر عن الدعوة مستعصماً بربه يوافى المواسم يتتبع القبائل قبيلة قبيلة يدعوهم إلى الله وحده .

ورد فى مسند الإمام أحمد فى مواضع متعددة بروايات مختلفة وبألفاظ متقاربة عن ربيعة بن عباد الديلى وكان جاهلياً أسلم فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عينى بسوق ذى المجاز ـ ويطوف على الناس بمنى فى منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ويدخل فى فجاجها والناس متقصفون عليه فما رأيت أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت يقول أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ويتبع القبائل . ويقف على القبيلة ويقول يابنى فلان إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصدقونى حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به ، ووراءه رجل أحول وضىء الوجه ذو غديرتين ، يقول إنه صابىء كاذب ، يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . هذا يأمركم أن تدعوا دين آبائكم .

قال ربيعة فقلت لأبى من هذا الذى يكذبه قال عمه أبو لهب »(٢) .

وقال ابن كثير فى تفسيره لسورة تبت بعد أن ساق هذا الحديث بنصه

---

(١) صحيح البخارى ، ١٤٨/٦ ، تفسير سورة تبت .

(٢) مسند الإمام أحمد ، ٤٩٢/٣ ، ٦٣/٤ ، ٣٤١ ، ٣٧٦/٥ .

عن محمد بن إسحاق : « ورواه أحمد والطبراني »[1] .

وكانت القبائل ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ، وتؤذيه ، ويقولون له : « عشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك » وهو يقول : (اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا)(٢) . ولقد مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الإسلام ، إلى قول لا إله الا الله ، وما تقتضيه ، وهي كل الأمر وأصله ، وعليها مبنى الإسلام جميعه ، ومنها تصدر الشريعة ، وفيها ينحصر العدل ، ولا يكون في غيرها ، وهي المفتاح الوحيد ، الذي تفتح به الدنيا والآخرة ، وتنفتح به القلوب ، ويخرج بها الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها . ومن كل ضيق وعقدة وقيد إلى السعة والحل والتحرر من الظلم ، في الدنيا والآخرة ، ومن الجاهلية إلى العلم ومن الظلمات إلى النور ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الجور والاضطراب إلى العدل والإحكام ومن المنكر إلى المعروف ومن الخبيث إلى الطيب ، وبغير هذا المفتاح لا يمكن لكائن من كان سواء كان زعيماً وطنياً أو مصلحا عبقريا ، أو سياسياً محنكا ، أن يفتح له ، ولا يمكن أن يفتح له به حتى يتبع به طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس في السجون ، مسجونين بمخافة التصور وباطله ومظلمة الجاهل وجوره « يسجد أحدهم للحجر والشجر والنهر وللتمرة في الصباح ثم يأكلها في المساء ، ويسجد

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير لسورة تبت ٥٦٤/٤ .

(٢) انظر : مختصر السيرة ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٠ .

الـكل مالا يملك لنفسه فضلا عن غيره نفعاً ولا ضراً ، ويعيش ما ينتج عن ذلك من فساد فى العقلية . فلم تعد تسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ، وانعكس نظام الفكر فإذا النظرى بديهى ، وإذا البديهى نظرى ، يستريب الإنسان منهم فى موضع اليقين والجزم ويؤمن فى موضع الشك ، وفسد الذوق فصار الإنسان منهم يستحلى المر ويستطيب الخبيث ، ويستمرىء الوخيم ، وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم بل يتملقه . ولا يحب الصديق الناصح ، وفسدت الحياة كلها فتحولت إلى شقاء وبؤس يشقى الإنسان نفسه ، والناس يذيق بعضهم بأس بعض .

واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتمعاً عالمياً بأكمله منكوساً فى وضعه ، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً ، وأصبح المجرم سعيداً بجرمه ، والمصلح شقياً بإصلاحه ، لا أنكر فى هذا المجتمع من المعروف ، ولا أعرف من المنكر قد غلبته عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك ، معاقرة الخمر ، والعهر ، والربا ، والقسوة ، ووأد البنات ، وقتل الأولاد ، وملوك قد تداولوا بلاد الله بينهم ، واستعبدوا عباد الله لهم ، ورهبان اتخذوا أرباباً من دون الله ، واتخذوا الرهبنة ودعوى التدين وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله .

وعلى العموم فالناس قد سجنوا فى ظلمهم وجهلهم ، فعادت مواهبهم عليهم وبالا وعلى رقابهم أغلالا ، كدودة القز التى تنسج من حولها سجنها بفيها ، قد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا وإسرافاً ، والحمية عمية جاهلية ، والذكاء خديعة ، والعقل إبداعاً فى الجنايات وابتكارا فى مزاولة الشهوات ، واتباع الأهواء .

ولكن قد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المفتاح وهو لا إله إلا الله وأنزل عليه منهاج الفتح به ، وهو الوحى بقسميه ، قرآنا يتلى ويتدبر كما قال الله (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) وسنة يعمل بها . ولا يرفضها إلا ضال طريقة الفتح والنصر ، فأنى له ؟

فواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك البشرية السجينة بمفتاح سجنها ، يهديها إلى طريق الخلاص والفوز ، بل إلى الفتح والنصر بإذن ربه ، وعلم الناس اليقين عيناً وعلما أنه لاشيء يعادل هذا المفتاح ، ولاشيء يستغلق عليه ، حتى ولوكان السموات السبع وعامرهن غير الله والأرضون كل ذلك فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله ، ولو صارت المذكورات حلقة واحدة مبهمة ضد لا إله إلا الله لفصمتها لا إله إلا الله ، لكن بشرط استعمال هذا المفتاح على طريقة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى فتحت له كنوز كسرى وقيصر وأعطى الكنزين الذهب والفضة ففتح عنهما المغاليق ووزعهما فى سبيل الله ، وزويت له الأرض من المشرق والمغرب ، ونصر بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمره .

ولذا صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه على طريقته ، ومضى على سنته ، يدعو الناس إلى لا إله إلا الله ، المفتاح الوحيد الذى لا ينفتح المغلق بغيره ، وما رضى بديلا به لأنه لا يعدله مهما كان ، حتى وإن كان الرياسة القومية والإمارة الوطنية ، والملكية العربية ، ولو كانت هذه تنوب عن كلمة لا إله إلا الله لقبلها حينما عرضت عليه بحضرة عمه أبى طالب الكافل المحرج ، كيف لا وهى أى الزعامة قد بذلها خصومه الألداء أبو جهل وعتبة والوليد وغيرهم ، ورضوا أن ينضموا تحت هذا اللواء

القومى بسيادته ورئاسته ، أما حكّموه فى وضع الحجر الأسود فى مكانه من البيت بعد أن كاد القتال يقع بينهم ؟

وهو أكبر حادث فخرى فى حياتهم فمنحوه إياه ، ثقة بأمانته وعدله أما قالوا له على لسان عتبة كما تقدم وهم ما عرفوا الاغراء السياسى : « إن كنت إنما بك الرياسة : عقدنا لك ألويتنا فكنت رأساً ما بقيت » ؟

« وإذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمى الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للعروبة المهضومة ، وينتصر من العجم الظالمين ، ويغرز علم الفتح العربى والمجد القومى على هضاب الروم وفارس ، إذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدى الامبراطوريتين فى ذلك الحين ، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة ، أو جارة أخرى ، ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة .

« ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلا بباطل ، ويبدل عدواناً بعدوان آخر ، ويحرم شيئاً فى مكان ويحله فى مكان آخر ، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى ، لم يبعث زعيماً وطنياً يجر النار إلى قرصه ، ويصغى الإناء إلى شقه ، ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان .

« وإنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً ، بإذن الله تعالى فما كان ليتصرف من تلقاء نفسه ، إنما أرسله الله ليخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وسعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم .

« فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ، ولقوم دون قوم ، وللعرب دون الناس ، ولوطن دون وطن ، ولكن خطابه للناس جميعاً » .

وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به رسالته ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها السياسى لعدم مطامع السياسة الدنيوية فيها خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته (والله أعلم حيث يجعل رسالته) .

« أتى النبى صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقد الذى أعيا المصلحين جميعهم فتحه ، وكل من حاول فتحه بغيره ، دعا الناس إلى الإيمان بالله وحده ، ورفض الأوثان ، والكفر بالطاغوت بكل معنى الكلمة ، قام فى الناس ينادى : (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)[1] .

ثم كانت الهجرة ، كانت الهجرة إلى الله ورسوله ، والتقى المهاجرون بالأنصار ، التقى المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

واتحدوا لا يجمعهم إلا الإسلام ، ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة

---

(١) مقتبسات مما كتبه أبو الحسن الندوى فى كتابه : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين مع التصرف انظر : ص ٧٨ وما بعدها من كتابه المذكور . وانظر فى كتاب : معالم فى الطريق ، لسيد قطب ص ٧٨ وما بعدها .

الله إخواناً وكانوا نواة الأمة الإسلامية المباركة ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله .

« ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة ، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ، ويذكى جمرة قلوبهم .

ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخا فى الدين ، وعزوفاً عن الشهوات (المحرمة) ، وتفانياً فى سبيل مرضاة الله ورسوله وحنيناً إلى الجنة ، وحرصاً على العلم وفقها فى الدين ومحاسبة للنفس ، يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنشط والمكره ، وينفرون فى سبيل الله خفافاً وثقالا ، قد خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم للقتال سبعا وعشرين مرة فى عشر سنين ، وخرجوا لقتال العدو أكثر من مائة مرة ، فهان عليهم التخلى عن الدنيا وهانت عليهم رزيئة أولادهم ، ونسائهم فى نفوسهم ، ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه ، وبكل مايشق على النفس إتيانه فى المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها .

« وانحلت العقدة الكبرى - عقدة الشرك والكفر - فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى .

« وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة ، وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لايشاقون الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى ، ولايجدون فى أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى .

« حدثوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد، نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة ، والأكباد المتقدمة ، وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة .

« حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم . وأنصفوا من أنفسهم انصافهم من غيرهم ، وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة وفى اليوم رجال الغد .

لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا باجتماعهم عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم[1] ، ومثلا لقيام دين الله مشهوداً فى هذه الحياة ، وودعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بخطبه الوداعية وفيها :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع[2] » .

---

(١) مقتبسات مع التصرف من كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوى ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) صحيح مسلم ، صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم . عن جابر ، ٥٣٤/٢/١ .

وفيها : « وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عنى ، فما ذا أنتم قائلون ؟ . قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس اللهم أشهد ثلاث مرات »(١) .

وفيها : « يا أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى »(٢) .

وفيها : « يامعشر قريش لاتجيئوا بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتجىء الناس بالآخرة ، فإنى لا أغنى من الله شيئاً »(٣) .

واستخلفهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى عمله ليلحق بالرفيق الأعلى ، قرير العين من أمته ورسالته .

وكان فى عشية عرفة من حجة الوداع قد نزل قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)(٤)

---

(١) صحيح مسلم ، صفة حج النبى صلى الله عليه وسلم ، عن جابر ، ١ / ٢ / ٥٣٤ .

(٢) مسند أحمد ٥/٤١١ .

(٣) رواه الطبرانى عن العداء بن خالد ، نقلا عن كتاب : الإبداع ، شرح خطب حجة الوداع تأليف سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد ، وانظر شرحه وشرح حديث مسلم وحديث أحمد المذكورين هنا فى كتاب الإبداع هذا ص ٨ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٨٧ ، ٨٨ ومابعدها .

(٤) المائدة : ٣ .

كما فى تفسير ابن كثير ٢/١٢ - ١٤ .

ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمل الله لهم الدين فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وأتمه فلا ينقصه أبدا ، ورضيه فلا يسخطه أبدا .

وهكذا كانت النقلة من الجاهلية إلى الإسلام ، وكان التحول من صفات الجاهلين إلى صفات الحكماء العالمين ، وكانوا خامة طيبة أى العرب، فكما كانوا يفضلون الناس بما فضلهم الله به من الشيم التى مدحها كالكرم والمروءة ، والشجاعة والوفاء ، والعروبة والبيان . وإن كانت لاتغنى عنهم فى حالة الكفر ، فكذلك هم فى الإسلام أفضل لما فقهوا ، فهم خيار فى الجاهلية خيار فى الإسلام إذا فقهوا ، وليس سائر الناس أسعد مصيراً منهم ، وإن كانوا أكثر رخاء وترفاً وقوة وبأساً فى الظاهر ، وزينة فى دنياهم ، فليسوا بأقوى منهم فى عقولهم وحافظتهم ، وبيانهم وعبارتهم ، ولا أقرب منهم للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء غير أنها مكارم وشيم وضعت فى غير موضعها ففسدت وضاعت ، أما غيرهم فيفتقرون إلى مثل هذه الشيم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ، ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبي ولا هم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة . كالطب والحساب ونحوهما ، إنما علمهم ماسمحت به قرائحهم : من الشعر والخطب وماحفظوه من أنسابهم وأيامهم، وما احتاجوا إليه فى دنياهم من الأنواء والنجوم ، أو من الحروب .

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى — ماجعل الله فى

الأرض ولا يجعل أعظم قدراً منه — وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات الجاهلية ، والظلمات الكفرية ، التى كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها. فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم ، واستنارت بهدى الله الذى أنزل على عبده ورسوله فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة . فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ، والكمال الذى أنزل الله إليهم ، بمنزلة أرض جيدة فى نفسها ، لكن هى معطلة عن الحرث أو قد نبت فيها شجر العضاه والعوسج وصارت مأوى الخنازير والسباع . فإذا طهرت عن المؤذى من الشجر والدواب ، وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار : جاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء ، وصار أفضل الناس بعدهم : من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم »(١) .

وللمثال الشخصى : عمر بن الخطاب كيف كان فى الجاهلية ؟ وكيف كان فى الإسلام ؟.

وعمرو بن العاص يعد من دهاة العرب وترسله قريش فى سفارتها إلى الحبشة ليسترد المهاجرين من المسلمين فيرجع خائباً لا لنقص فى حيلته أو قصور فى خطته ولكن لأنه حارب بها الله ورسوله ، صلى الله عليه وسلم فلما أسلم عاد فاتحا عظيما وداهية حصيفا وقائداً ناجحاً .

« كان الأرطبون أدهى الروم ، وأبعدها غورا ، وأنكاها فعلا ، وقد كان قد وضع بالرملة جنداً عظيما وبإيلياء جنداً عظيما ، وكتب عمرو

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

إلى عمر بالخبر ، فلما جاءه كتاب عمرو ، قال عمر : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عم تنفرج[1] .

وخالد بن الوليد فى الجاهلية أحد فرسان قريش الشجعان ، وزاده الإسلام أن كان سيف الله المسلول .

وهكذا مامن شيمة كريمة ، وخصلة حميدة إلا وزادها الإسلام وصلا وزكاء ونماء وكمالا ، ولا مطمح كبير ، وهمة عالية إلا وقد وجد صاحبها ضالته فى الإسلام القائم ، فتحولت الأحوال ، ارتفعت القيم الكريمة ، وهبطت القيم الرذيلة ، وقدروا الحياة قدرها ، وأخذوا لما يستقبلهم من آخرتهم أمرها . ساروا بالمفتاح : (لا إله إلا الله) يفتحون به شرقاً وغرباً ، وما يستعصى عليهم مغلق بإذن الله ، فالحصون تفتح ، والقلوب تفتح ، والموازين تصحح ، والحب الضائع الذى مرصور منه فى الجاهلية يأخذ وضعه الصحيح : « همَّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضالة ؟ قال: نعم يارسول الله ، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لاشيء كنت أذكر الله، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . وكان فضالة يقول: والله مارفع يده عن صدرى حتى ماخلق الله شيئاً أحب إلى منه ، قال فضالة: فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها قالت: هلم إلى الحديث فقلت: يأبى الله عليك والإسلام:

---

(١) وكان ذاك فى وقعة أجنادين وفتح بيسان بعد ارتحال هرقل منهزماً من الشام وقوله لسورية : « السلام ياسورية تسليم المفارق ، ولا يعود إليك رومى أبداً إلا خائفاً » ، انظر تاريخ الطبرى ٣/٦٠٣ ، ٦٠٥ .

لو قد رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بينـــا
والشرك يغشى وجهه الإظلام(١)

ولقد استمسك المسلمون من بعده صلى الله عليه وسلم بوصيته التى ودعهم بها: « تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله » والتى مر ذكرها وذكر مصدرها قبل قليل.

وكان المسلمون فى عز وهدى على قدر تمسكهم بهذه الوصية، رغم أنه صلى الله عليه وسلم ليس فيهم بشخصه، ولكن فيهم ميراثه باقياً محفوظاً بحفظ الله وثيقة منه فله الحمد والمنة.

ولنستعرض بعض صور من وقعة القادسية نرى فيها أصالة التربية التى تربوا عليها وهى تربية رب العالمين بنعمته الإسلام، سنرى حوارهم مع فارس الشرق، وجهادهم إياهم، على شأن يختلف عن جميع شؤون أهل الأرض غيرهم فى الحروب، واختصر ما أعرضه مما نقله عن مصادره المؤرخ ابن جرير الطبرى:

جاء سعد بن أبى وقاص حتى نزل القادسية ومعه الناس، ولا يزيد المسلمون على سبعة آلاف أو نحو من ذلك، والمشركون يبلغون ثلاثين ألفاً أو نحوا من ذلك ونبال المسلمين وعدتهم موضع سخرية أهل فارس الشرق، يشبهونها بالمغازل فيقولون « دوك دوك » ويقولون للمسلمين مزدرين لهم: « لايدى لكم ولا قوة ولا سلاح ماجاء بكم؟ ارجعوا ».

---

(١) زاد المعاد، تأليف ابن القيم ٢/١٦٧.

ولكن المسلمين يأبون الرجوع ، ويفهمونهم أنهم ما جاءوا إلا بدعوة ربانية ، يدعونهم إلى الله عز وجل ، وعندئذ يطلب منهم أهل فارس أن يبعثوا إليهم رجلا منهم ، « عاقلا يبين لنا ما جاء بكم » ، ثم يرسل سعد وفداً إلى كسرى يزدجرد ، ويطوى قائد الفرس «رستم» حتى ينتهى إلى باب يزدجرد فيوقف الوفد على خيل عروات معهم جنائب وكلها صهال ويستأذن فيحبس على الباب ، وبعث يزدجود إلى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم ، ويقوله لهم ، وسمع بهم الناس فحضروهم ينظرون إليهم ، وعليهم البرود والمقطعات ، وفى أيديهم سياط دقاق ، وفى أرجلهم النعال ، فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فأدخلوا عليه . . .

« وجعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم ، فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس ، وكان سيء الأدب ، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال سلهم ما يسمون هذه الأردية ؟ الخ وكان يلقى منهم أجوبة يتطير منها .

« ثم قال سلهم ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا والولع ببلادنا ؟ أمن أجل أنا أجممنا كم ، وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النعمان بن مقرن لهم إن شئتم أجبته عنكم ، ومن شاء آثرته . فقالوا : بل تكلم ، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا . فتكلم النعمان ، فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلاصاروا فرقتين ، فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص .

فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من

العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعاً على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمة فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله ، وإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه ، الجزاء ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا كم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن أتقيتمونا بالجزاء ، قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم

« فتكلم يزدجرد ، فقال : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونناكم . لاتغزوا فارس ، ولا تطمعوا أن تقوموا لهم ، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

« فأسكت القوم . فقام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدى ، فقال : أيها الملك . . .

إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا .

وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا

رجلا معروفاً ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له ، وكان الخليفة بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا : إن ربكم يقول : إننى أنا الله وحدى لاشريك لى ، كنت إذ لم يكن شىء ، وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى، ولأحلكم دارى ، دار السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم . فمن قتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك . فقال أتستقبلنى بمثل هـــذا ؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به . فقال لولا أن الرسل لاتقتل لقتلتكم ، لاشىء لكم ، وقال ائتونى بوقر من تراب ، فقال احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليكم رستم حتى يدفيكم ويدفيه فى خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم ، حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ، إلى آخر القصة .

وفيها أن عاصم بن عمرو احتمل وقر التراب واعتبره فألا على الظفر بأرضهم ، كما تطير منه رستم على أنه علامة أن الله سلبهم أرضهم وأبناءهم

للمسلمين . ثم إن كسرى بعث أهل فارس بعددهم وعددهم وعلى رأسهم رستم، حتى إذا نزل رستم بالعقيق على منقطع معسكر المسلمين راسل زهرة فخرج إليه حتى واقفه ، فأراده أن يصالحهم ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه ، وجعل يقول : أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا . . . الخ .

فقال له زهرة : صدقت ، قد كان ماتذكر وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا . إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا كما ذكرت ، يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم يطلب مافى أيديكم . ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا ، فدعانا إلى ربه ، فأجبناه ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق ، لايرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز .

فقال له رستم : وماهو ؟

قال : أما عموده الذى لايصلح منه شىء إلا به ، فشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . والإقرار بما جاء من عند الله تعالى . قال : ما أحسن هذا ، وأى شىء أيضا ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى .

قال : حسن ، وأى شىء أيضاً ؟

قال : والناس بنو آدم وحواء ، إخوة لأب وأم . قال ما أحسن هذا .

ثم قال رستم : أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر ، وأجبتكم إليه ، ومعى قومى ، كيف يكون أمركم ؟ أيرجعون ؟

قال : أى والله ، ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة .

قال: صدقتنى والله ، أما أن أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة ، كانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم ، وعادوا أشرافهم .

فقال له زهرة : نحن خير الناس للناس ، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون نطيع الله فى السفلة ، ولا يضرنا من عصى الله فينا ، فانصرف عنه وطلب رستم آخر ، ثم إن سعدا أرسل ربعى بن عامر أيضا إلى رستم وصفته وهيئته عجيبة ، ودعوته مثل دعوة زهرة قال « الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضى إلى موعود الله.

قال : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

فقال رستم : قد سمعت مقالتكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟

قال : نعم ، كم أحب إليكم ؟ أيوما أو يومين ؟

قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . وأراد مقاربته ومدافعته ، فقال : إن مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر فى أمرك وأمرهم ، واختر

واحدة من ثلاث بعد الأجل ، اختر الإسلام وندعك وأرضك ، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه ، وإن كنت محتاجاً إليه منعناك ، أو المنابذة فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا . أنا كفيل لك بذلك على أصحابى وعلى جميع من ترى .

قال : أسيدهم أنت ؟

قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم .

فخلص رستم برؤساء أهل فارس ، فقال ماترون ؟ هل رأيتم كلاما قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويحكم لاتنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة ، وأقبلوا يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه إلى آخر حوارهم ومراسلتهم بينهم ، ثم إن أهل فارس لم يقبلوا الدعوة إلى الله واختاروا المناجزة فنصر الله المسلمين ، فهزموا فارس وسبوهم .

« قال حصين : فحدثنى رجل منا يقال له عبيد بن جحش السلمى ، قال : لقد رأيتنا وإنا لنطأ على ظهور الرجال مامسهم سلاح ، قتل بعضهم بعضاً ولقد رأيتنا أصبنا جرابا من كافور حسبناه ملحا لا نشك أنه ملح ، فطبخنا لحما ، فجعلنا نلقيه فى القدر فلا نجد له طعماً ، فمر بنا عبادى معه قيص فقال : يامعشر المعربين ، لاتفسدوا طعامكم فإن ملح هذه الأرض لاخير فيه ، هل لكم أن تأخذوا هذا القميص به ؟ فأخذناه منه ، وأعطيناه منا رجلا يلبسه ، فجعلنا تطيف به ونعجب منه فلما عرفنا الثياب ، إذا ثمن ذلك

القميص درهمان قال : ولقد رأيتنى أقرب إلى رجل عليه سواران من ذهب ، وسلاحه ، فجاء فما كلمته حتى ضربت عنقه » .

انظر : تاريخ الطبرى ٣/٤٩٦ ومابعدها .

هذا حوار المسلمين ، الدال على العزة ، كما قال الله تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)(١) .

هذا حوارهم مع أهل فارس الشرق ، وهذا جهادهم الكريم ، وحالهم الأبية الشريفة مع فارس ومع الروم أيضا ، فقد شهد لهم رجال الروم وهم يحاربونهم بأنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، والفضل ماشهدت به الأعداء ، وقال فيهم ملك الصين لما استنجد به يزدجرد ملك الفرس هذا الذى سبق ذكره ، بعد أن وصفهم له : « إنه يمكننى أن أبعث لك جيشاً أوله فى منابت الزيتون — الشام — وآخره فى الصين ، ولكن إن كان هؤلاء القوم كما تقول فإنه لايقوم لهم أهل الأرض ، فأرى لك أن تصالحهم ، وتعيش فى ظلهم وظل عدلهم »(٢) .

ولكنه لم يصالحهم فكبته الله وأورثهم أرضه وملكه .

وبعد أن استعرضنا بعض صور التحول من الجاهلية إلى الإسلام ، يمكن أن نكتفى بها هنا ، كأمثلة تبين لنا كيفية النقلة والتحول من عبادة غير الله تعالى إلى عبادة الله وحده ، والتى امتن الله بها على العرب خاصة وعلى الناس عامة ، ببعثة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، ومصدر نور فى حياة البشرية كلها .

---

(١) المنافقون : ٨ .

(٢) نقلا عن كتاب : إفادة الأخيار ببراءة الأبرار، تأليف محمد العربى ١/٣٨

أثر الإسلام أو المد الإسلامى فى حياة البشرية

جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وغلبت العقيدة لأنها هى الصحيحة وفازت الدعوة لأنها هى السليمة ، وصارت للمسلمين العاقبة لأنهم متقون ، والعاقبة للمتقين ، أقبل الناس على اختلافهم جميعاً للدخول فى الإسلام يوم كانت له الدولة ، ويوم كان طريقه إلى حياة الناس كلها مفسوح ، لأن كلا يجد فيه رغبته فإن كان عادلا أحبه وإن كان ظالماً أذعن له ، لأنه يجد فى الإسلام نصرته حقاً بردعه عن الظلم ، وحمايته عن عاقبته ، ووصايته الرشيدة عليه ولا يجدها فيما سواه ، حتى لقد وجد كل واحد ممن استظل براية الإسلام . وإن كان غير مسلم بغيته ، وتنمية مواهبه ، وإشباع رغباته باعتدال ، ومسح آلامه وإنصافه وشفاءه مهما تعددت أمراضه وتعقدت مشاكله ، ذلك لشمول الإسلام وتمامه وكماله وصلاحيته وانفراده بذلك فى هذا الوجود كله ـ وحيث أتيح للاسلام أن يظهر بمظهره ولم يمنعه الناس ـ حصل الأمن والهدى .

وعند ذلك انساح المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانتشر معهم الإسلام بسرعة ، فائقة ، وما من مانع خارجى يعاديه سواء تمثل فى دولة أو فى ديانة إلا واهتز واندكت أركانه ، ورعب من مده وذل لأمره وتصاغر لعظمته عن مخالفته ، وخضع لإصلاحه ، زهقت أمامه قوتان من أقوى قوى الظلم ، عالميتان تتجاذبان العالم فيما بينهما . وكل منهما جعلها أصحابها إلها يتعالى على الآخر ، فالرومان ينازعون فارس وفارس تنازع الرومان ، ونشأ عن ذلك فساد يحمى كل منهما نصيبه من هذا الفساد ويغذيه ، ولكن جاء الحق وزهق الباطل ،

فكان أثر الإسلام فى بناء الحياة البشرية عظيماً حتى على أهل الباطل يوم كان وجودهم قائماً ، فإنه لأول مرة يتحد أهل الباطل فيما بينهم فى وحدة متماسكة ضد غيرهم من أهل الحق . وما كانوا قبل ظهور الحق يعرفون الانسجام والاتحاد فيما بينهم ، ولكن أثر الحق عرفهم حسن هذه الوحدة ، وتغلغل أثر الإسلام فى حياة البشرية كينابيع الماء فى الأرض .

« والمبادىء والتصورات والقيم والموازين ، والنظم والأوضاع التى واجه بها الإسلام البشرية أول مرة وليس معه إلا رصيد الفطرة ...

« هذه المبادىء والتصورات والقيم والموازين ، والأنظمة والأوضاع قد استقرت فى حياة جماعة من البشر - وهى فى صورتها الكاملة - فترة من الزمان .

ثم استقرت فى حياة العالم الإسلامى العريض - فى مستويات متفاوتة - فترة طويلة أخرى .

ثم عرفت فى حياة الجماعة البشرية كلها تقريباً خلال نيف وثلثمائة وألف عام . . عرفت على الأقل دراسة ورؤية وفرجة . إن لم تعرف مزاولة وعملا وتجربة .

« إن حركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وكالفن فى أوربا وحركة الإحياء التى تفتقت منها أوربا اليوم . وحركة تحطيم النظام الإقطاعى فى أوربا ، والانطلاق من حكم الأشراف وحركة المساواة وإعلان حقوق الإنسان » .

« وحركة المذهب التجريبى التى قام عليها مجد أوربا العلمى ، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة فى العصر الحديث . . وأمثالها من الحركات

الكبرى ، التى يحسبها الناس أصولا فى التطور التاريخى . . كلها قد استمدت من ذلك المدد الإسلامى الكبير ، وتأثرت به تأثراً أساسياً عميقاً . . »[١] .

ويقول أحمد أمين : «ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام. من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى سبتمانيا حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس ، وأن ليس للقسس حق فى ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم .

« وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية ، ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع الميلادى أو القرن الثالث والرابع الهجرى ، ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الامبراطور الرومانى ليو الثالث أمراً سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م بعد الإتيان بهذا وثنية . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ...

« إن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ويقولون إن كلوديوس أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨ م وحول ٢١٣ هـ) والذى كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها فى أسقفيته ولد وربى فى الأندلس الإسلامية . . .

« كذلك وجدت طائفة من النصارى ، شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام »[٢] .

---

(١) سيد قطب ، هذا الدين ص ٦٥ ، ٦٧ .

(٢) ضحى الإسلام ١/٣٦٣ ، ٣٦٤ .

ومما يقوله « بريفولت » مؤلف كتاب « بناء الإنسانية » :

« فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون فى نشأة تلك الطاقة ، التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره أى فى العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى »[1] .

وماذا فى الأندلس وجامعاتها ؟

جاء فى كتاب قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ، عصر الإيمان ، ترجمة محمد بدران نقل المؤلف عن استانلى لين بول من كتابه « حكم المسلمين فى أسبانيا » قوله : « لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب » .

ويعنى بالعرب المسلمين ، لكن المستشرقين من غير المسلمين لا يعرفون الإسلام نازلا من رب العالمين ، ويحسبون أو يوهمون أن الإسلام من وضع العرب ، أو خاص بهم ، وهو منهم ، فلا يفرقون فى تاريخهم لعز العرب بالإسلام ، بين العرب والمسلمين ، أو ربما تعمدوا نسبة عطاء الإسلام وغنائه للعرب لإيهام أن العروبة أصل الإسلام ، وأن الإسلام من وضع العرب للصد عن الإسلام .

ويقول ديورانت معلقا على قول استانلى لين بول هذا : « ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحى عظيم »[2] .

---

(١) نقلا عن كتاب : هذا الدين لسيد قطب ، ص ٧١ .
(٢) ص ٢٩٢ .

وقال ديورانت : « وفى وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامى من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت فى عام ١٣١١ م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين فى ذلك الوقت بمائتى ألف ، كلهم ما عدا خمسمائة منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام . وكثيرا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين »(١) .

هذا القول يصدره المؤلف ديورانت الذى لا يعرف عنه أنه أسلم ، بل المعروف تحامله وغمطه قدر المسلمين ، وعصبيته للنصارى الواضحة فى كتابه هذا الذى اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية .

نعمت الأندلس تحت ظل الإسلام بحكم عادل رحيم ، لم تنعم بمثله تحت ظل غيره ، ولذا كانت أوربا تبعث أبناءها للاستفادة من المسلمين ، تبعثهم إلى مسلمين شهد لهم الكون كله الموافق والمخالف بالصلاح والإصلاح ، ولم تبعثهم إلى مشركين ويهود ونصارى ، وشتان بين الفريقين كما لا يستوى الكفر والإيمان .

كانت هذه البعثات من أوربا احتكاكة أولى من نوعها اقتبست منها أوربا نورها ونهضتها وبدأ معها الاستشراق من الغرب ، ولأن هذا النور المقتبس أنقذ أوربا من ظلمات الكنيسة ، وظلم الطغاة كان فزع الكنيسة وطواغيتها مصاحباً فى بدئه لبدء تلك البعثات الباعثة ومستمراً مع العلم المستنير حتى انتهى الصراع بالفصام بين دين النصارى والعلم الناهض فى أوربا التى لم تدرك أن هذا العلم مبنى على دين الحق ، فحصل وهم انفصال العلم

---

(١) ص ٢٩٧ . نفس المصدر المذكور .

عن الدين على الاطلاق ، مع أنه فى الحقيقة يستحيل فصل العلم عن الإسلام ، ويمتنع قيام العلم على غير أساسه .

« عند ما كانت الأندلس منارة للعلم والمعرفة - يأتيها الأوربيون للتزود منها : -

« هؤلاء هم أول من تعلم اللغة العربية ، واطلع على الإسلام ، وقد عادوا من بلاد الإسلام ، وعادوا من مدارس المسلمين يتكلمون اللغة العربية ، ويحملون فى قلوبهم تأثرات إسلامية ، وبلغة العصر الحديث . والتشبيه مع الفارق ، كانت الكنيسة تعتبرهم غزوا فكريا إسلامياً بالنسبة لأوربا . ولهذا فزعت الكنيسة ، فلتستمعوا إلى هذا القرار الكنسى ، الذى تقول فيه الكنيسة : « إن هؤلاء الشبان الرقعاء الذين يبدأون كلامهم بلغات بلادهم ثم يكملون كلامهم باللغة العربية ، ليعلم عنهم أنهم تعلموا فى مدارس المسلمين ، هؤلاء إن لم يكفوا عن ذلك فستصدر الكنيسة ضدهم قرارات حرمان » .

تدلكم هذه العبارات على فزع الكنيسة من التأثرات الإسلامية العائدة مع المبتعثين الأوربيين إلى مدارس الإسلام »(١) .

وانتشر نور الإسلام فى جميع ميادين الحياة الدنيوية الظاهرية فى أوربا ، ولولا عداء عباد الصليب وعباد الدنيا ، ومن ورائهم عباد العجل ، وسائر أولياء الشيطان ، لكانت أوربا قد دخلت فى الإسلام باطناً وظاهراً منذ مدة ، وننتظر ذلك إن شاء الله فى المستقبل .

---

(١) نقلا عن محاضرة للأستاذ محمد قطب ، بعنوان : المستشرقون والإسلام ، ونشرت فى مجلة المجتمع ، انظر : عدد ، ٣٤٠ ، فى ربيع الأول / ١٣٩٧ هـ ص ٢٧

يقول القس رئيس الدير « ميشو » فى كتابه : رحلة إلى الشرق » :
« إن من المحزن لدى الأمم النصرانية أن يكونوا قد تعلموا من المسلمين التسامح الدينى ، الذى هو دستور الإحسان من شعب إلى شعب »[١] .

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه : حضارة العرب : « لم تكن القوة عاملا فى انتشار القرآن قطعاً . . . وإذا حدث أن اعتنقت الشعوب النصرانية دين غالبيهم فذلك لأن الفاتحين الجدد بدوا أكثر عدلا نحوها ، مما كان عليه سادتها السابقون ، ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان من البساطة البالغة ما لم تعرفها الشعوب النصرانيه حتى ذلك الحين »[١] .

هذه معاملة المسلمين للمغلوبين والتى يحزن النصارى وأممهم كما يقول القس ميشو أن يكونوا تعلموها من المسلمين ، ولذا كان رد هؤلاء لما ظهروا لهذا الجميل والفضل رداً ينبثق من هذه الروح التى لاتشكر ، ونأخذ شهادة من فم واحد منهم عليهم ، قال ميشو فى « تاريخ الحروب الصليبية » : « منع محمد قواده من قتل الرهبان لأنهم رجال صلاة ، ولما استولى عمر على القدس لم يمس النصارى بسوء ، ولما صار الصليبيون سادة هذه المدينة المقدسة ذبحوا المسلمين بلا رحمة وأحرقوا اليهود »[٣] .

وكتب أيتين دينيه عن تبرير قديسى النصارى موقف محاكم التفتيش وما عملته من مجازر بشرية رهيبة فى بلاد المسلمين وغيرها : « أرسل القديس أغسطين إلى الحاكم (بوليفاس) رسالة يبرر له اضطهاد المخالفين

(١) نقلا عن كتاب مجالى الإسلام : تأليف حيدر بامات « ج . ريفوار » ترجمة عادل زعيتر ، ص ٣٩ .
(٢) نقلا عن المصدر السابق ، ص ٣٩ .
(٣) نقلا عن المصدر السابق أيضاً ص ٣٩ .

وقتلهم قائلا : « إنه لخير أن تقوم الكنيسة نفسها بذلك ، لأن الكنيسة إن هى اضطهدت أحداً ، فإنما هى لا تقدم على ذلك إلا مدفوعة بعاطفة المحبة . »(١)

وتلك هى مكافأة أوربا وأممها للمسلمين بعد أن أشرقت أندلسهم بنور ربها على العالمين ، فبدأ اضطهادهم لسكانها المسلمين منذ سنة ١٤٩٩ م واستمر نحو قرن وكما قدر مسيو سيديو وغيره من المؤلفين الذين يوثق بهم عدد ضحايا التفتيش المقدس بثلاثة ملايين ، وينتهى دور الاضطهادات فى سنة ١٦١٠ م بطرد جميع العرب المسلمين إلى إفريقية ، ويتم نقل مليون من الناس فى أحوال بالغة القسوة ، فقد روى بليدا الدومينيكى أنه ذبح منهم فى الطريق أكثر من ثلاثة أرباعهم »(٢) .

وما كان يحدث هذا فى حال ظهور الإسلام وعزه ولكن يحدث من أحقاد طواغيت الباطل على الحق حين يقدر لهم الظهور للدرس والتأديب لأهل الحق الذين أهملوه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ورغم هذا الانتكاس والبلاء يكثر النوم وتستمر السكرة فيأتى الاحتكاك من الجانب الإسلامى بالعالم الغربى ، الذى كانت هذه ذمته ومكافأته وتقواه لله ، يأتى الاحتكاك هذه المرة من الجانب الاسلامى لا لاقتباس النور وأسباب القوة كما فعلت أوربا سابقاً ، ولكن لجر

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام ، ترجمة راشد رستم ، سلسلة الثقافة الإسلامية للسمان (١٧) ص ١٩ .

(٢) نقلا عن كتاب : مجالى الإسلام ، تأليف (ج . ريفولر) ص ١١٦ ، ١١٧ .

الظلمات وأسباب الضعف ومتابعة التدحرج إلى قيعان الذل والتبعية بين واشنطن وموسكو ومادار فى فلكيهما البعيدين عن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين كما أمر الله وفق طريقة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أرى بدأ من إيراد كلام المؤرخ اليهودى الغربى برنارد لويس هنا أيضاً كما سبق أن أوردته فى آخر الفصل الرابع .

« كل باحث فى التاريخ الإسلامى يعرف قصة الإسلام الرائعة فى محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي ، وكيف انتصر النبي وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التى حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية، وفى أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد اللات ، والعزى وبقية آلهة الجاهلية بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها : الدولة ، والعنصر ، والقومية .

وفى هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف . . . الأصنام ، فإدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة الذات الجماعية كان أرسخ المظالم التى أوقعها الغرب على الشرق الأوسط ، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرا وإعلاناً . وإنه لمن المحزن حقاً أن يؤرخ الإنسان المراحل المتعاقبة التى مرت : كيف بدأ الاحتكاك . . ثم العدوى . . ثم الالتهاب . . ثم الأزمة »[1] .

---

(١) برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، تحت عنوان الفصل الرابع : الوطنية والقومية ص ١٠٥ .

وهكذا قال أهل التاريخ كلتهم : « أعز الله العرب بالإسلام ، ولما بعدوا عنه ذلوا وانحطوا » .

فما هي كيفية هذا الذل والانحطاط ؟

فيما يلي أسوق نصوصاً من الوحي ، الذي أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأنفال تعقيباً على غزوة بدر وما أصاب كفار قريش ومشركى العرب من عقوبة عاجلة كالبطش والقتل والأسر والذل حين أعرضوا عن ذكرهم الذى أنزله الله إليهم ونعمته التى أسبغها الله على المسلمين من أمثالهم : (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ، كدأب آل فرعون، والذين من قبلهم، كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم)[1] .

ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة الرعد : (الله يعلم ماتحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام ، وماتزداد وكل شيء عنده بمقدار) إلى قوله تعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال)[2] .

وبوب مسلم فى صحيحه بابا فى هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض وساق أحاديث صحيحة منها حديث بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن

(١) الأنفال ٥١ – ٥٣

(٢) الرعد ٨ – ١١ .

أمتي سيبلغ ملكها مازوى لى منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى أن لايهلكها بسنة بعامة ، وأن لايسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وأن ربى قال يامحمد ، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لايرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولواجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال ـ من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً »[1] .

وقد أورد البخارى فى صحيحه عن معاوية رضى‌الله عنه قوله : « سمعت رسول الله صلى‌الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين »[2] فمفهوم قوله : (ما أقاموا الدين) أن عدم إقامة الدين سبب فى انحطاطهم وزوال الأمر عنهم ، وعذر لمن نازعهم الأمر ليقيم الدين حيث لم يقيموه فأقامه ولوكان عبدا .

وفى صحيح البخارى فى كتاب الفتن باب (قول النبى صلى‌الله عليه وسلم هلاك أمتى على يدى أغيلمة سفهاء) ـ وساق سنده ـ قال أبو هريرة : سمعت الصادق المصدوق يقول : « هلكة أمتى على يدى غلمة من قريش » فقال مروان : لعنة الله عليهم غلمة ، فقال أبو هريرة : لوشئت أن أقول بنى فلان وبنى فلان لفعلت . ، قال الراوى عمرو بن يحيي بن سعيد : « فكنت أخرج مع جدى إلى بنى مروان حين ملكوا الشام ، فإذا هم غلماناً أحداثاً قال لنا عسى هؤلاء أن يكونوا منهم ؟ قلنا أنت أعلم »[3] .

---

(١) صحيح مسلم ٢/٣/٣٠٩ .

(٢) صحيح البخارى كتاب المناقب ، ٤/١٤٣ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الفتن ، ٩/٤٠ .

وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى فى المتن أن الترمذى عقد بابا فى ماجاء فى الخلافة وساق حديثاً بسنده عن سفينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة . ثم ملك بعد ذلك » ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .

وقال الشارح : وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائى .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح بعد ذكر هـــذا الحديث : أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره(١) .

وفى البخارى فى كتاب الفتن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : ويل للعرب من شر قد اقترب .

وساق بسنده عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش ، رضى الله عنهن ، أنها قالت : استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم محمرا وجهه يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وعقد سفيان تسعين أو مائة ، قيل أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم اذا كثر الخبث »(٢).

وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، اشارة الى أسباب الانتكاسة صريحة ، وهذه الإشارة هى قوله ، لا إله إلا الله ، ويل للعرب ، أى إن فرطوا بلا إله إلا الله ، وانحرفوا عن مدلولها وهى الكلمة التى دانت بها العرب ، وأدت بها

---

(١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، ٦/٤٧٦ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الفتن ، ٩/٤٠ .

العجم الجزية ، فإذا فرطوا بتطبيق مقتضاها وتنفيذ مدلولها ، وانحرفوا عن مفهومها الشامل ، بإعراضهم عن دراسة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفيهما بيان معنى لا إله الا الله ، بيانا شمل حياة البشرية كلها فى جميع أزمنتها وأمكنتها الى قيام الساعة ، ونهج بهذه الحياة منهجاً الى الكمال والشمول لا يماثله أى مستوى فى حياة جميع الناس الذين استمدوا منهجهم من غير دين الله الذى ارتضاه وهو الإسلام له وحده على سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مهما كان هذا الغير فى الكم والكثرة كما يظهر بالمقاييس الدنيوية ، أقول فإذا فرطوا بتطبيق لا إله إلا الله ، وتنفيذ مدلولها ، وانحرفوا عن مفهومها الشامل لحياة البشرية دخلوا فى الوعيد بالويل : ويل للعرب من شر قد اقترب ، ومن هذا الشر أن يلبسهم الله شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، ويمزقهم كل ممزق بظلمهم أنفسهم ، واستدعائهم للشر كما قضى الله وقدر ، ولا يرد ماقضاه وأراده سبحانه ، وتقدم ذكر الحديث الصحيح بذلك قبل قليل ، والذى فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وان ربى قال يامحمد ، انى إذا قضيت قضاء فإنه لايرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً »(١) .

وليس معنى أن الله قضاه وقدره عدم مسؤوليتهم ، فهم قد انحرفوا باختيارهم ورضاهم بتبعة انحرافهم ، والله لايسأل لماذا خلق وقدر أن يختاروا الانحراف ويرضوا تبعة هذا الانحراف ، فتلك قدرته الفريدة

---

(١) صحيح مسلم ٢/٢/٣٠٩ .

فى ملكه الذى انفرد به بلا شريك له فيه فلا يظلم أحداً ، وكل الملك له وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير ، أما مملوكى الله من الجن والإنس فهم يسألون ، لأنهم لا يملكون غير ما ملكهم مالكهم ، وشرع لهم كيف يتصرفون فيه بإذنه ، فلا يتصرفون فيه تصرفاً يخالف شرعه وإذنه إلا حق عليهم أن يسألوا : (قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون [١]) ؟

ومن أسباب هذا الانحراف عن مدلول لا إله إلا الله سببان رئيسان هما :

١ — اللهو والإعراض عن الذكر الذى هو القرآن الكريم وما تلاه النبى صلى الله عليه وسلم من الهدى بقوله وفعله وتقريره ، ونجم عن ذلك نسيان لله تعالى ولآياته وسننه فى مخلوقاته ، فأنساهم أنفسهم وهذا الإعراض وقع أول ماوقع على شكل انشغال فى أمور الناس وفى حياتهم دون أن يستصحب مع هذا الانشغال قصد وجه الله وما عنده فى الآخرة ومعرفة صورة الحياة الدنيا الصحيحة وصورة سائر الأشياء على حقيقتها فى كل وقت .

وهذا برز أول ما برز فيمن أسندت لهم الأمور وهم ليسوا أهلا ولا يدلون إلا بوراثة الاسم والنسب وليس بوراثة علم وعمل فأرادوا سد نقصهم بالجبرية على بيعتهم .

٢ — إيثار الحياة الدنيا والنشاط فى أمورها ومازين فيها للناس من حب الشهوات والمتاع والترف فى النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ونسيانهم الآخرة وعدم العمل على حسابها ومراعاة ميزانها .

---

(١) يونس : ٥٩ .

وهذا برز أول ما برز فى عامة الناس بعد انسياحهم فى الأرض وفى الذين دخلوا فى الإسلام يوم صارت له الدولة والفتح ودخلوه وقت ظهوره وهم لم يفقهوه مجرداً عن مظاهر الدنيا فدخولهم لم يتعد مرغوبات أهل الدنيا ، ولهذا صاروا آلة للسياسة الشيطانية ، وأتباعاً لكل ناعق ، وسواداً على كل مطمع دنيوى وشهوة غى إما فى رئاسة ومال أى دنيا مؤثرة وعلو فى الأرض ، وإما فى بطن وفرج ، فحسب ، وكأن هذه الأمور الدنيوية ماعنهاسؤال ولا عليها حساب ، ولابعدها أمور أخروية تترتب السعادة بها والشقاء على ما عمله المبتلى بتلك الأمور الدنيوية . ونتيجة لهذا التصور نسوا الدار الآخرة ، ونسوا لقاء الله ونسوا الله ، فألهوا أمور دنياهم ففسدت ، وضل عنهم ماكانوا يكسبون .

وليس هذا الإعراض وهذا الإيثار عامان ولا كليان ، فإنه لاتزال طائفة على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة ، ولم تخل الأرض من قائم لله بحجته ولله الحمد ، وكذلك هما نسبيان ، وعقوبتهما من جهل ونسيان وخسارة كل ذلك نسبي أيضاً ، إلى يومنا هذا ، فإن وزنت حالهم بحال الصحابة ، وجدت حالهم مرجوحة بحسب بعدهم عن تلك الحال .

وإن وزنت حالهم بحال من خرج عن الإسلام وخسر الآخرة ، وجدت حالهم أرجح حتى وإن خسروا الدنيا كلها ، ما داموا مسلمين فهم لم يخسروا الآخرة ، ويتحمل كل مسئولية إعراضه عن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيثاره للدنيا على الآخرة فى حدود الوسع والطاقة ، وما عجزوا عن إظهاره فى الحياة الدنيا من الاسلام ما داموا مطمئنين بالايمان ، بقلوبهم ، فلا يضرهم ما أكرهوا عليه من الكفر الظاهر فى

مظاهر الحياة الدنيا كذلك لا يضرهم مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان ولا يغيب عن البال عند المقارنة أن ماقد يوجد فى المسلمين من المعاصى الكثيرة التى هى دون الكفر كالكذب والخيانة والغش ونحوها ، وأقل منها يوجد فى الكفار من أهل الشرق والغرب ، ذلك لأن الشيطان لم يفرغ من المسلمين، ولا يفرغ منهم حتى يكفروا أو يفارقوا الدنيا ويأتيهم اليقين .

وقد فرغ الشيطان من الكفار ، فما بعد الكفر ذنب ، وهو الذنب الأعظم المؤدى إلى خسران الآخرة ، وذلك غاية مطلوب الشيطان أما المسلمون فهم المجاهدون ولا يزال عدوهم الشيطان يحاولهم ويستغفلهم ويسارقهم ولو عن بعض أمور الإسلام ، ويورطهم ولو بالصغائر ومحقرات الذنوب ، حتى يجرهم إلى الكفر بها من قرب ، أو ينقص أجرهم ودينهم على الأقل(١) .

ولا شك أن الإعراض عن الذكر وإيثار الدنيا سببان رئيسان لانحطاط المسلمين ونكستهم . والتاريخ كله ناطق بأمثلة دالة على هاتين الحقيقتين ، أمثلة كثيرة لا يمكن حصرها فى حدود باحث واحد ، وضمن بحث لا يختص بهما ، ولكن أكتفى بإيراد هذه القصة كدليل على إعراض العرب بعد عهد الصحابة مباشرة .

نقل ابن حجر فى تهذيب التهذيب عن الزهرى أنه قال : قدمت على عبد الملك بن مروان فقال من أين قدمت يازهرى ؟ قال قلت من مكة قال ومن خلفت بسودها وأهلها ؟ قلت عطاء بن أبى رباح قال فمن العرب أم

(١) انظر : الإبداع شرح خطب حجة الوداع ، للشيخ ابن حميد ص ٤٨ ، ٤٩ .

من الموالى ؟ قلت من الموالى ، قال فيم سادهم ؟ قال قلت بالديانة والرواية قال:إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا . قال : فن يسود أهل اليمن قلت طاوس بن كيسان ، قال فمن العرب أم من الموالى؟ قال قلت من الموالى . قال فيم سادهم ؟ قلت بما ساد به عطاء قال إنه لينبغى ذلك قال فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن حبيب ، قال: فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى ، قال فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى (عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل) قال فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى قال فمن يسود أهل خراسان ؟ قال : قلت الضحاك بن مزاحم ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى . قال فمن يسود أهل البصرة ؟ قال : قلت الحسن البصرى ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى ، قال : ويلك ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال قلت إبراهيم النخعى ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت من العرب قال ويلك يازهرى فرجت عنى ، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . قال قلت : يا أمير المؤمنين : إنما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط »(١) .

وجاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه : « وقال ابن أبى ليلى : قال لى عيسى بن موسى ديانا شديد العصبية — من كان فقيه البصرة ؟ ، قلت الحسن بن أبى الحسن ، قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين قال : فما هما ؟

---

(١) نقلا عن كتاب الإبداع شرح خطب حجة الوداع للشيخ ابن حميد ص ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ .

قلت موليان . قال فمن كان فقيه مكة؟ قلت عطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار. قال فما هؤلاء؟ قلت موالى . فمن فقهاء المدينة؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبي نجيح قال فما هؤلاء؟ قلت موالى ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء؟ قلت ربيعة الرأى وابن أبي الزناد . قال : فما كانا؟ قلت من الموالى ، فاربد وجهه ، ثم قال فمن كان فقيه اليمن؟ قلت طاوس وابنه وابن منبه . قال فما هؤلاء؟ قلت من الموالى فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدا . قال فمن كان فقيه خراسان؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى قال فما كان عطاء؟ قلت مولى ، فازداد وجهه تربدا واسود اسودادا حتى خفته ، ثم قال فمن كان فقيه الشام؟ قلت مكحول قال فما كان مكحول هذا؟ قلت مولى . قال فتنفس الصعداء . ثم قال فمن كان فقيه الكوفة؟ قال فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتيبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت : إبراهيم والشعبي ، فما كانا قلت عربيان قال الله أكبر ، وسكن جأشه »[1] .

ومثل هذا جاء فى معجم البلدان لياقوت فى مادة خراسان : « قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما مات العبادلة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى — وعددها إلى قوله — إلا المدينة فإن الله تعالى خصها بقرشى ، فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب »[2] .

قال أحمد أمين بعد إيراده ماجاء فى العقد الفريد فى كتابه ضحى الإسلام

(١) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، ٢/٢٦٢ ، باب المتعصبين للعرب .

(٢) معجم البلدان ، لياقوت ، ٢/٣٥٤ ، مادة خراسان .

ص ١٥٤ وما بعدها ، وهناك قصص كثيرة أخرى كهذه لاتخلو من نزعة شعوبية ، ولكن أساسها صحيح وهو أن أكثر العلماء من الموالى »[١] .

وهذا الذى نريد التدليل عليه ، وهو أن أكثر العلماء ليسوا من العرب، فلماذا ؟ إنه الإعراض ، وكما نقل أحمد أمين عن ابن خلدون أنه يقول : « انشغالهم بالرياسة »[٢] .

وما يتبع هذا الانشغال بالرياسة عن طلب العلم من أنفة وتكبر يمنع عن التواضع والتذلل فى طلب العلم لله تعالى ، وقد عرفت هذه الأنفة عن العرب فى جاهليتهم ، فأذهبها الإسلام ولكن لما اتصلوا بحضارة الرومان وفارس — رغم أن اتصالهم هــذا كفاتحين — اشتغلوا فى الرئاسة والإمارة ، وسار فيهم خلب هاتين الحضارتين على غرة منهم عن دعوتهم إلى الله والدار الآخرة ، واستمتعوا بالترف كما استمتع الذين من قبلهم ، وتبعوا فيه سنن من كان قبلهم ، حذو القذة بالقذة ، استمتعوا كما استمتع الروم وفارس ، ومن الناس إلا أولئك .

ولقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه : « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » ماوقعت فيه الأمة من هذا على سبيل التحذير والنصيحة ولا يتسع له بحثنا أكثر من هـذا ، وذلك فى وقته ، فكيف بوقتنا هذا ، والواقع أبلغ من تسطير وصفه لوقدر وهذا ما كان يخشاه عمر رضى الله عنه ، لما رأى بوادره وصار يحذر منه ولانه ويحمل الناس على الجد والجهاد كى يشغلهم عنه بادئاً بنفسه ، وسيرته رضى الله عنه

---

(١) ضحى الإسلام ، تأليف أحمد أمين ، ص ١٥٤ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر السابق .

تنطق بهذا ، وما تلا عهده رضى الله عنه من توسع الناس وذهابهم إلى الأمصار ، ثم فى قيام دولة بنى أمية سرى الترف إلى الحكام كمثل عهد يزيد ابن معاوية ، وبلغ أشده فى طبقة علية الناس — فى نظر العامة من الناس — فى دولة بنى العباس .

ثم كانت نهاية حكم العرب بالإسلام ، وقيض الله للاسلام من يحكم به من غير العرب ، كما قال تعالى للعرب المسلمين بالأولوية : (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم)(١) .

فكان الذين تسلموا أمر المسلمين من غير العرب ومنهم محمد الفاتح العثمانى حماة الإسلام بل حماة للعروبة المتشرفة بالقرآن الكريم ، وبالنبي من ولد عدنان ، سيد ولد آدم ولا فخر ، وهذا شأن دين الحق من حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط ، كما وصفه الزهرى ، وهو القرشى لعبد الملك بن مروان ، فى قصته معه التى قدمناها ، قبل قليل .

وبالجملة فإن السبب الرئيسى فى الانتكاسة التى أصيب بها المسلمون هو تقصيرهم بتطبيق مدلول لا إله إلا الله فى القلب واللسان والأعمال على قدر وسعهم وطاقتهم ، كما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته والقرون المفضلة .

وجميع ما يقال عن أمور أخرى أنها أسباب للانتكاسة فهى وإن كانت صحيحة لا تعدو أن تكون من عوارض ونتائج هذا السبب الأكبر ، وهو عدم شمول تطبيق الإسلام كله فى كل الحياة الدنيا على جميع الأحياء فيها ، كما هى طبيعته أو صفته وصبغته ، فإذا قصرت على لون كان كمن يعبد

---

(١) محمد : ٣٨ .

الله على حرف ، وما انحسار قولها على اللسان فقط لدى كثير ممن يتوهم أن ذلك كاف ليكون ممن قالها إلا صورة من صور عدم تحقيقها ، كما هو المطلوب وكذلك قصر أركان الإسلام على فئة من الناس دون الآخرين . - والجميع مشمولون باسم الإسلام ومعاملون على السواء - يعد حصراً لمفهومها الشامل فى البراء والولاء وهما ركناها .

ولقد كان نتيجة ذلك تشويه مفهوم لا إله إلا الله حتى صار من يزعم أنه من المسلمين لا يفهم لا إله إلا الله كما فهمها الكافرون حين قالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، فهو يقولها ولا يرفضها بلسانه كما رفضها أولئك لكنه لا يحقق قولها بفعله وقلبه نفيا وإثباتاً وولاءاً وبراءاً ، وزاد هذا التشويه لمفهومها حتى كانت الكارثة على المسلمين ، عموماً عربيهم وعجميهم بالقومية التى أحلت محل الإسلام ، فتمزق أمر المسلمين ، وانفكت وحدتهم ، وتركوا خلافتهم تموت وهى سنة راشدة وهم يجرون خلف هذه القومية وهى سراب ويتكئون عليها وهى جرف هار ، ومهما تكلف القوميون فإنهم لا يجدون قوميتهم شيئاً فعالا بنفسه ، قائماً بذاته ، ولا يستطيعون أن يوجدوها كذلك ، وسبرناها فى الماضى فما رأيناها وفى الحاضر فما وجدناها ، لا وحدة واستقلالا ، ولا فكراً وحضارة .

ليست القومية فى التاريخ سوى ما أغير عليه من أعمال إسلامية جردت من نسبتها إلى الإسلام ، ونسبت إليها . حتى إذا أخذ الغرور مأخذه . انتكس بأهله وذهب عنهم ، وأخذوا يتفرقون عن هذه القومية أمام الهزائم المنكرة التى لم يبق معها كرامة لقومى على أيدى الصهاينة ، وكلما خلفوه إنما هو المشاكل التى تعقدت بسبب القومية وغيرها ، ولم يجدوا لها

حاضراً ولا حالا من القومية فذهبوا شيعاً وأحزاباً منهم من يلتمس الحل فى روسيا وشيوعيتها ومنهم من يلتمس الحل فى أمريكا ورأسماليتها ، وتبعاً لذلك صاروا على بعضهم حرباً ، يذيق بعضهم بأس بعض ولله كم أبعدوا ، وتعبوا ، وأرضوا عدوهم بما بلغوا من أنفسهم من العذاب ما لم يبلغه أشد أعدائهم منهم ، كم يلتوون فى طلب الحلول والمخالص والمفازات ، والملاجىء والمغارات والمدخلات ، ويجمحون بولايتهم إلى الغرب والشرق كلما لوح لهم بأحبولة وأضحوكة بعد أحبولة وأضحوكة ، حتى أصبحوا وكأنهم لهذا خلقوا ، وبه وجدوا ، وكلما أرادوا كانت النتيجة عكس ما أرادوا ، تزيد المشكلة مشكلة أخرى ، ويركب الظلمة ظلمة فوقها حتى كثرت المشاكل وتراكمت الظلمات ، بعضها فوق بعض ، حتى إذا أخرج أحدهم يده لم يكد يراها ، ولم يفيقوا مرة ، أثناء ذلك كله على الإسلام بجد ، (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)[١] .

بينما عندهم المخاص والمفازة قريب ميسر قال الله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[٢]) .

نعم القرآن لم يرفع بعد ولله الحمد ، ولا يزال ميسراً محفوظاً فهل من مدكر ؟

(بسم الله الرحمن الرحيم ، الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، أن لا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير ، وأن

---

(١) الزمر : ٤٥ .

(٢) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ، إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير)[1] .

ومن هذه الآيات نفهم أن القرآن الميسر للذكر كله من أوله إلى آخره : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير أن لا تعبدوا إلا الله » أى من أوله إلى آخره بيان لمعنى : (لا إله إلا الله) التى دعى أول ما دعى إليها العرب فأجاب منهم من كانوا أئمة الرشد والهدى وأن الله لا ينزع فضله هذا عن العرب وغيرهم بعد أن تفضل به عليهم إلا أن يتولوا عنه ، بل إنه سبحانه هو الكفيل بإيتاء كل ذى فضل فضله .

هذا طريق المخلص والمفاز

أيها العرب قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

لقد أتيحت الفرصة للعرب الآن أكثر من ذى قبل أن يأخذوا بعزهم ، ويطلبوا به من الله نصرهم ويعودوا إلى مركز الهداية والقيادة إلى المعالى فى العالم ، كما كانوا من قبل .

لقد رفعت عنهم الوصاية فلم يعد من غيرهم قائم فعلا بأمر المسلمين وخلافتهم الآن

خلا الميدان للعرب وهم أحق بها ، الآن ، فغيرهم كالأتراك قد جنى عليهم شبابهم بالأمس وشيبهم اليوم ، ونبذوا عنهم خلافة المسلمين منذ

---

(١) هود : ١ – ٢ .

زمن ، والغرب وسائر أممه والشرق وأممه من غير المسلمين من يهود ونصارى وملحدين ، يشهدون بأن الإسلام دين العرب فهل على العرب منهم عار أو سبيل إن أخذوا بدينهم الإسلام ؟ كل الدنيا تشهد برفع الزرية والمذمة بل تشهد بالإعجاب والمحمدة للعرب إن هم قاموا بالاسلام فهو ميراثهم الذى أقامه أجدادهم وآباؤهم الكرام من المهاجرين والأنصار من قبل ، وعزوا به وانتصروا ، هذا فى حس الغرب والشرق مستقر ، فهل فيه وفى الأخذ به ما يخجل ؟ لا بل فيه وفى الأخذ به تدرع بمهابته التى ألبسها الله من أخذ به كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى »[(١)] .

وعلى قدر اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون قدر هذه المهابة فى قلوب أعدائه وأعداء متبعيه ، ومع هذه الحال ليس مهما أن لا يرضى اليهود والنصارى ، وليس مهما أن لا يرضى من لا يرضى إلا باتباع نحلته الضالة المضلة ، فإن الله يقول : (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرين)[(٢)] .

وبحضور الاسلام وظهوره وثبات أهله عليه فإن الله يلقى الرعب فى قلوب الذين كفروا ويضرب عليهم الذلة والصغار ، ووجود المسلمين يفرض بطبيعته احترامهم .

هذا الباحث اليهودى ، برنارد لويس ـ الذى ظل ينتقل من أوربا إلى أمريكا فى المدة الواقعة بين ٢٩ آذار ، إلى ٢٣ نيسان عام ١٩٦٣ م ليلقى

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهم ، انظر صحيح البخارى ، الجهاد ، ومسلم المساجد .

(٢) غافر : ١٤ .

المحاضرات على الأجيال الناشئة التى تعد لتولى زمام الأمر فى المستقبل ليعرفها بمواطن الخطر وأبعاده الحقيقية عليهم ويكشف عن تجارب ، وخبرات من سبقهم فى مواجهة هذا الخطر ليكون لهم فى ذلك خبرة وعبرة(١) .

يقرر هذه الحقيقة فيقول : « فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والاشتراكية كلها أوربية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها فى الشرق الأوسط ، والمنظمات الإسلامية هى الوحيدة التى تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة ، وبالرغم من أن كل الحركات الإسلامية قد هزمت حتى الآن غير أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة »(٢) .

ولقد أصبح العرب فى حل من إخوانهم فى الإسلام حين خلعوا عنهم شرف خلافة المسلمين بأنفسهم ، ولا يمكن لمغرض فى هذا الحال أن يلصق بالعرب إذا قاموا بخلافة الإسلام تهمة الخروج على ولاة الأمور . وإنها لفرصة عظيمة خاصة بالعرب فهل يفقهون ؟

إن وضع العرب ذاته ، وشخصيتهم الكريمة ، وعبقريتهم الفائقة لا تصلح بغير الإسلام .

هذه العروبة العذبة الصافية الثرة ، وهذا اللسان العربى المبين ، هل صلحا بغير القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ؟

---

(١) ماجد كيلانى ، الخطر الصهيونى على العالم الإسلامى ، ص ٩١ ، ٩٢ .
(٢) برناد لويس ، العرب والشرق الأوسط ، تعريب الدكتور/نبيل صبحى ، ص ١٧٩ .

وهذه العقول الحصيفة الذكية ، والمناطق السليمة ، هل وصلت واطردت بغير الحكمة ، التى علم بها الرسول من الله إلى العالمين ؟ .

وهذه الشجاعة والفروسية ، والنبل والمروءة ، والوفاء والكرم ، والسخاء والحلم ، والجود والإيثار ، هل نفعت وبقيت نافعة فى غير سبيل الله تعالى ؟

إن هذه الغرائز القريبة من الخير ، وغيرها من الأخلاق المحمودة ، ما كملت ووصلت بغير الإسلام ، ولا يمكن أن تبقى وتدوم بغير الإسلام وإن العرب مهما أحرزوا كامل طبيعتهم الخيرة ، وصافى مشخصاتهم العروبية ، بدون الإسلام ، لا يعدون كونهم : طبيعة طيبة تقبل الحيوية ، وتتفاعل مع الخير لكنها معطلة عن فعله ، ومقطوعة عن وصله ومنغلقة عن التفتح له ، ولا يمكنها أن تحيا وتنهض إلا بالإسلام ، وبالإسلام الربانى ، الذى لم ينبع منها ولا من جميع المخلوقات ، وإنما أنزله الله رب العالمين ، على رسوله المختار من العرب إلى العالمين رحمة بهم وفضلا من الله عليهم ، ولذا صار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من العرب أفضل خلق الله بعد الأنبياء ، لاتصال عروبتهم بالإسلام وزكاء نفوسهم بالإيمان ، بعد أن تطهروا من أدران الجاهلية والأوثان ، وزادهم الله فضلا وحبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وجعلهم من الراشدين وأئمة فى الدين ، وما عرب اليوم إلا أبناء أولئك . والمقام مقام وفاء وشكر لأهل الثناء والمجد ، الذى أكمل لنا ديننا وأتم علينا النعمة وحفظها ، ورضيها ، ولم يرض غيرها .

قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى

الآخرة من الخاسرين)(١) .

فليس لنا ميثاق مع الله أو مع خلقه إلا الإسلام، ولا صلة لنا معشر العرب خاصة بربنا وبنصره وما النصر إلا نصره إلا بالإسلام ، و(لا إله إلا الله)، وإلا نسلم - وأعوذ بالله من الكفر - فإن الله يستبدل قوماً غيرنا ثم لا يكونوا أمثالنا كما قال تعالى : وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم(٢)) .

وبتدبر هذه الآية فى التاريخ نجد أن الله سبحانه قد استبدل قوماً غير العرب ، قاموا بالإسلام ، ولم يكونوا مثل من قعد من العرب عن القيام به .

والآن قد أتاح الله من فضله للعرب الفرصة مرة أخرى ليغتنموا حظهم قبل أن يفوت فلا يدركوه ، وإن طلبوه وجدوا فى طلبه ، وقد ورد فى الأثر : « أدعوا الله قبل أن تدعوه ، فلا يستجاب لكم » .

ولا خلاص للقوميين العرب خاصة إلا أن يخلعوا عنهم القومية ، ويدعوها فإنهامنتنة ، ويدخلوا فى الإسلام ، لباس التقوى ، فى كل حياتهم حكومة وشعباً ، واقتصاداً واجتماعا وسياسة وتربية ، فى الداخل والخارج فى الأحوال الخاصة والعامة ، وسائر ميادين الحياة بصدق وإخلاص ، وسوف يجدون مبتغاهم بالإسلام وأعلى كما وعد الله ، ولن يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن

---

(١) آل عمران ، ٨٥ .

(٢) محمد : ٣٨ .

لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ، لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير (١)

وقولهم بالقومية - مهما كانت تتراءى لهم منقذة ومطمعة - لا يخلصهم ، ولا ينيلهم مطمعهم لأنهم متى قالوها ، ومتى اختاروها فلن يملكوا الخلاص من ضيقها وحرجها ومشاكلها ونتنها وموتها ، والذى لا يتبين إلا بالإسلام ، وبضدها تتبين الأشياء ، ثم لن يستطيعوا إطفاء نور الإسلام ، الذى أضاء له العالم كله ، وهو مؤهل من تأهل به ، والعرب أولى من يتأهل به لقيادة العالم ، إلى الله عليه وهو الصراط المستقيم .

لقد أصلح الله بالإسلام أولينا ومنذ أبينا آدم إلى خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وعلى أبينا آدم وسائر الأنبياء والرسل وأصحابهم وسلم إلى يومنا هذا نجد أن كل صلاح صدر إنما هو بالإسلام ، واستحال أن نجد الصلاح والعز بغيره .

فكيف يعرض العرب ، من أعرض منهم ، عن هذا الأمر ، ويفوتون هذه الفرصة ؟ سبحان الله ما أحلمه وأكرمه .

---

(١) النور : ٥٥ - ٥٧ .

تباشـــــير

ليس كل العرب قوميين ، ولا كل الأمة العربية تجسدت فى هؤلاء القوميين ، يقول الكاتب اليهودى موروبيرجر فى كتابه (العالم العربى المعاصر) الذى صدر سنة ١٩٦٢ م :

« والعربى العادى مازال حساساً للغاية فيما يتصل بمشاعره بالنسبة للوحدة الدينية ، أكثر مما هو حساس بالنسبة للأخوة العربية بشكلها العلمانى ، والقومية العلمانية هى أيدلوجية العرب المتعلمين ممن تأثروا بالغرب تعليما وقدوة . . وبالرغم من أن القوميين يستخدمون الولاء للاسلام فى تعبئة المشاعر ضد العالم الخارجى غير الإسلامى ، إلا أنهم يرفعون فى كل بلد لواء الإصلاح (الغربى) الذى يعرضهم لنقمة قادة الحركات الإسلامية .

لذلك يلجأون لهذا السبب . إلى التلويح بخطر الاستعمار . . »[(١)] .

نعم والله الحمد كثير من العرب مسلمون ، وكثرتهم بإخوانهم المسلمين تضطر القوميين إلى ذلك المسلك الذى وصفه بيرجر ، وكثير من العرب لايرضون بالقومية ، ويراها المسلمون فتنة ظهرت فى أوائل هذا القرن بينهم لتفتيت وحدتهم بعد أن أتمت دورها فى أوربا ثم انتهت منها واختفت عنها لشر منها ، ونبتت فى العالم الإسلامى للقضاء على الإسلام فى حسبان ، أعدائه من اليهود والنصارى والمشركين ، ولكن يأبى الله إلا

---

(١) نقلا عن الأستاذ ماجد كيلانى ، من كتابه الخطر الصهيونى على العالم الإسلامى ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

أن يتم نوره ، ولو كره الـكافرون ولئن قامت الثورة على الخلافة العثمانية ، فأزالتها ، فإن الإسلام ولله الحمد ليس مربوطا بعين من الخلق ، فقد زالت الدولة الأموية فاعتز الإسلام بالعباسية ، ثم زالت دولة العرب فاعتز الإسلام بالأتراك وغيرهم ، وحين زالت امبراطورية آل عثمان فإن الإسلام سيعود عزه بالعرب إن شاء الله تعالى ، مع أن الإسلام رغم كل هذه التحولات عزيز بذاته ومازال ولله الحمد باقيا محفوظا بحفظ الله له ، ولم يربط الله مصيره بجنس معين ، ولا فرد بل إن الله تعالى لم يربط مصيره حتى برسوله صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله ، والذى ليس بعده رسول ، ورسالته إلى قيام الساعة ، فقد قال تعالى لأمة رسوله : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)(١) .

ولقد تلا هذه الآية أبو بكر الصديق على المسلمين حين ارتج عليهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمعوها فتح عليهم وسقط السيف عنهم من يد عمر وعاد إلى رشده رضى الله عنهم ، والله سبحانه يقول وقوله الحق : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(٢)

وبوب البخارى فى صحيحه فى كتاب الاعتصام : (باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم) ثم ساق حديثاً بسنده عن المغيرة بن شعبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لايزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) الحجر : ٩ .

ظاهرون ، ثم ساق بعده حديثاً عن معاوية رضى الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، ويعطى الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتى أمر الله » وكلا الحديثين متفق عليه .

ومن معنى هذا أنه لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته وهو الإسلام رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولن يخلو الناس من مسلمين وإن كانوا قلة وغرباء ، وأنه لا يزال القرآن محفوظاً ، والسنة الصحيحة مدونة فى غاية من التحقيق والاتصال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنداً ومتناً ، ورواية ودراية وعلماً وعملا ، وهذه ميزة الإسلام وبرهانه الوحيد الذى لايشاركه فيه أى دين سواه ، وهذا القرآن وهذه السنة هما الوحى الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن الأنبياء نبي إلا أعطى مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » متفق عليه(١) .

ولقد أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته فى حجة الوداع قبيل وفاته : « وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله » كما فى حديث جابر عن مسلم فى باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الله تعالى رداً على من لم يكتف بالقرآن ويطلب إنزال آيات على محمد صلى الله عليه وسلم من ربه (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب

---

(١) انظر صحيح البخارى ، ١٤٩/٦ ، باب فضائل القرآن .

يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)(١) .

والجهاد ماض منذ بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، إلى أن يقاتل آخر أمته الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل(٢) .

ولا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال(٣) .

والدجال هو المسيح الدجال الذى من اليهود وهم ينتظرونه ، من نسل داود ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى يباشر قتله المسيح عيسى بن مريم بعد نزوله فى هذه الأمة حكما مقسطاً بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد(٤) .

وصح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يامسلم هذا يهودى ورائى فاقتله »(٥) .

ويكون قبيل خروج الدجال أن الروم يجمعون لأهل الإسلام ، ويجمع لهم أهل الإسلام ، وأخيراً يجعل الله الدبرة على أولئك الأعداء

---

(١) العنكبوت : ٥١ .
(٢) انظر : سنن أبى داود ، ١٧/٢ .
(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٤ .
(٤) انظر : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، ٤٨٨/٦ ، وصحيح مسلم ٣١٢/٣/٢ .
(٥) انظر : تحفة الأحوذى ، ٤٩٤/٦ ، وصحيح البخارى ١٥٧/٤ كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام ، وصحيح مسلم ٣٣٩/٣/٢ .

لأهل الإسلام فيقتلون مقتلة لايرى مثلها وذلك يكون نحو الشام(١) .

اورد الشيخ المحدث ناصر الدين الألبانى فى المجلد الأول من كتابه سلسلة الأحاديث الصحيحة الحديث رقم (٤) عن أبى قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أى المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال فأخرج منه كتاباً ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مدينه هرقل تفتح أولا » يعنى قسطنطينية . اـ هـ

رواه أحمد ١٧٦/٢ والدارمى ١٢٦/١ وابن أبى شيبة فى المصنف ٤٧/١٥٣/٢ وأبو عمرو الدانى فى السنن الواردة فى الفتن ١١٦/٢ والحاكم ٤٢٢/٣ ؛ ٥٠٨/٤ وعبد الغنى المقدسى فى كتاب العلم ، ١٠/٣٠/٢ وقال حديث حسن الإسناد وصححه الحاكم ووافقه الذهبى . قال الألبانى : وهو كما قالا يعنى الحاكم والذهبى ، وكان الألبانى قد علق على قول ابن عمرو بقوله : « قول عبد الله هذا رواه أبو زرعة أيضاً فى تاريخ دمشق ، ٩٦/١ وفيه دليل على أن الحديث كتب فى عهده صلى الله عليه وسلم . الخ .

ثم قال الألبانى يشرح هذا الحديث : [و « رومية » هى روما كما فى معجم البلدان وهى عاصمة إيطاليا اليوم ، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثمانى كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من

---

(١) انظر صحيح مسلم ، ٣١٤/٢/٢ ، ومن ص ٣٢٤ إلى ص ٣٣٩ .
وانظر : المستقبل لهذا الدين لسيد قطب .

أخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وسيتحقق الفتح للثانى بإذن الله تعالى ولابد ولتعلمن نبأه بعد حين ، ولا شك أيضاً أن تحقيق الفتح الثانى يستدعى أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة وهذا مما بشرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم » ا ـ ه قول الشيخ الألبانى .

وفى قوله : « وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثمانى كما هو معروف » الخ . نظر ، لما رواه مسلم [٢٢٢١/٤] عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سُبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا ويقتل ثلث أفضل الشهداء عند الله ويفتح الثلث لا يفتنون أبدا فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح قد خلفكم فى أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته » .

وهذا الحديث يدل على أن الفتح العثمانى للقسطنطينية ليس هو الفتح المبشر به فى الحديث . والله أعلم .

والعقل يحكم بأن « المستقبل للاسلام » بمشيئة الله تعالى ، لأنه منهج الحياة الشامل ، وهو دين الحق ، ولا يليق بالله الواحد القهار أن يجعله

القوميون ونحوهم مختصاً بجانب من جوانب الحياة بينما تكون بقية الجوانب من اختصاص مألوهات أخرى ، كلا فالدين كله لله والحياة التى هى ميدانه كلها لله ، الدين لله والوطن لله وحده لا شريك له ، ويؤتى فضله من يشاء بمحض إرادته وخيرته (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين[1]) .

وقد أصبح الفصام بين الدين والدولة نكدا ظاهراً لكل مبصر أو بصير ، كسائر الأنكاد الواقعة فى كل ميدان حيوى أبعد عن الدين ، و « انتهى دور الرجل الأبيض وحضارته الغربية » ، « وبدأت صيحات الخطر تتعالى منذرة بسوء مصير البشرية فى ظل هذه الحضارة الخاوية من الإسلام ولا مخلص للبشرية إلا بالإسلام »[2] .

ولقد صدق الله رسوله ونصره وصاحبه يوم الغار ، وأيدهم بجنوده التى لم نرها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم .

كان سراقة بن مالك يطلب رسول الله وصاحبه لما خرجا من الغار ليردهما أو يقتلهما طمعاً فى جعل قريش ، مائة من الإبل ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فساخت قوائم فرسه به

ثم طلب منهما الدعاء له بالخلاص ، على أن يرد عنهما الطلب ، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم فنجا ، فجعل لا يلقى أحداً إلا قال كفيتكم ما هنا ، فلا يلقى أحداً إلا رده[3] .

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم ، ٢/٢/ ٣١٤ ومن ص٣٢٤ إلى ص ٣٣٩ . وانظر : المستقبل لهذا الدين لسيد قطب .

(٣) انظر : صحيح البخارى ، ٤/١٦١ .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسراقة وهو على تلك الحال «كيف بك (ياسراقة) إذا ألبست سوارى كسرى »[١] وفى البخارى عن عدى بن حاتم قال : « بينا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل ، فقال ياعدى: هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد أنبئت عنها ، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحداً إلا الله،قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت كسرى بن هرمز ؟ قال كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه) الحديث[٢] .

ولقد صدق الله وعد رسوله لسراقة فى عهد عمر : « فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه وكان أزب كثير شعر الساعدين فقال له ارفع يديك وقل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابى »[٣] .

وقال عدى : « فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة

---

(١) الإصابة ، لابن حجر العسقلانى ، ج ٢ ، حرف السين ، رقم ٣١١٥ (سراقة) قسم ١ ص ١٨ .

(٢) صحيح البخارى ، ٤/١٥٧ .

(٣) الإصابة ، لابن حجر العسقلانى ، ج ٢ ، حرف السين ، رقم ٣١١٥ (سراقة) قسم ١ ص ١٨ .

وانظر : المستقبل لهذا الدين ، لسيد قطب ص ١١٤ .

لاتخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة ، لترون ماقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : يخرج ملء كفه »[1]

وكما صدق الله وعده نبيه ، ووعد نبيه ، فيما مضى ، وما تخلف ، فإن الله الحى الذى لايموت سيصدقه فيما بقى عند وقته ولن يخلف الله وعده ، إن وعد الله حق ، ووعد رسوله حق ، (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم) .

(ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين) . (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) .

---

(١) صحيح البخارى ٤/١٥٧ ، ١٥٨ .

قائمة المراجع

القرآن الكريم — السنة

(أ)

أبحاث مختارة فى القومية العربية — أبو خلدون ، ساطع الحصرى
دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م

الإبداع ، شرح خطب حجة الوداع — للشيخ عبد الله بن محمد بن حميد
مطابع دار الثقافة - مكة الزاهر

الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر — الدكتور محمد محمد حسين
الطبعة الثانية ، المطبعة النموذجية
١٣٨٢ هـ

أحجار على رقعة الشطرنج — وليام غاى كار
ترجمة سعيد جزائرلى ، مراجعة
وتحرير م . بدوى ١٩٧٣ م

الأدب والقومية العربية ، محاضرات عامة — ألقاها الدكتور إسحق موسى الحسينى
على طلاب معهد البحوث والدراسات
العربية ، بجامعة الدول العربية ،
١٩٦٥ م ، ١٩٦٦ م ، مطبعة لجنة
البيان العربى

أرض العروبة — عبد الحى حسن العمرانى
مطبعة الجامعة — الدار البيضاء

أزمة المجتمع العربى المعاصر (المسألة الحضارية)	مدثر عبد الرحيم الطيب الطبعة الأولى ١٩٦١ م ، دارالطليعة بيروت
أسرار الماسونية	الجنرال جواد رفعت آتلخان ترجمة من التركية : نور الدين الواعظ المحامى ، سليمان محمد القابلى، الطبعة الثانية ، مطبعة دار البصرى بغداد ١٩٦٥ م
أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب	تأليف محمد بن السيد درويش الطبعة الأولى ١٣٥٥ﻫ مطبعة مصطفى محمد بمصر
أشعة خاصة بنور الإسلام	إيتين دينيه ترجمة راشدرستم، سلسلة الثقافة الإسلامية (١٧) بإشراف محمد عبد الله السمان، رمضان ١٣٧٩ﻫ المطبعة الكمالية
الإصابة فى تمييز الصحابة	تأليف أحمد بن حجر العسقلانى ، مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨ ﻫ
أعمدة الحكمة السبعة	ت . أ . لورانس ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م منشورات المكتبة الأهلية بيروت
إفادة الأخيار ببراءة الأبرار، الجزء الاول	تأليف الشيخ محمد العربى التبانى ١٣٨٤ ﻫ مطبعة الحلبى

اقتضــاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم — تأليف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقى ، الطبعة الثانية ١٣٦٩ مطبعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة

الأمة والعوامل المكونة لهـا ، (المجتمع العربى) (١) — محمد المبارك ، دار الفكر بدمشق

(ب)

بحوث مؤتمر توجيه الدعوة وإعداد الدعاة العالمى المنعقد فى الجامعة الإسلامية بالمدينة ٢٤ - ١٣٩٧/٢/٢٩ هـ ، المجلد الخامس ، مطبوع على الاستنسل .

بحث مخطوط فى حديث « إذا ذلت العرب ذل الإسلام » — للنصف الثانى لنصف السنة الأخيرة (الليسانس) قسم الشريعة ١٣٨٥ هـ بكلية الشريعة بمكة ، للطالب صالح ابن عبدالله العبود ، قرضه المشرف أمين المصرى بخطه (رحمه الله) فقال : « بحث جدير بأن ينشر بين الناس لينتفع به الناس »

البداية والنهاية فى التاريخ ، جزء : ١ ، ٢ . ابن كثير — تحقيق محمد عبد العزيز النجـار ، مطبعة الفجالة

بروتوكولات حكماء صهيون — محمد خليفة التونسى ، تقدير العقاد الطبعة الخامسة

البلاد العربية والدولة العثمانية | أبو خلدون، ساطع الحصرى طبعة ثانية ١٩٦٠، دار العلم للملايين بيروت

بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية | أبو الأعلى المودودى، دار العروبة بيروت

(ت)

تاريخ الطبرى جزء ١، ٢ | تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ذخائر العرب ٣٠) طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م

تاريخ مكة جزء ٢ | أحمد السباعى، الطبعة الثانية، مطابع دار قريش بمكة ١٣٨٢ هـ توزيع رابطة العالم الإسلامى بمكة

التبشير والاستعمار فى البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التى ترمى إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربى | تأليف الدكتور مصطفى خالدى، الدكتور عمر فروخ الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م بيروت

تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى | للإمام محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفورى الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ، مطبعة المدنى

تطور المفهوم القومى عند العرب | أنيس صايغ، الطبعة الأولى، دار الطليعة بيروت ١٩٦١ م

تفسير القرآن العظيم | اسماعيل بن كثير، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، طبعة ثانية

التلمود ، تاريخه وتعاليمه — ظفر الإسلام خان ، الطبعة الأولى ١٩٧١ م دار النفائس بيروت

(ث)

ثقافتنا فى جامعة الدول العربية — أبو خلدون ، ساطع الحصرى ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ م دار العلم للملايين بيروت

الثورة الفلسطينية أبعادها وقضاياها — تأليف ناجى علوش ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ م دار الطليعة بيروت

(ج)

جامع البيان عن تأويل آى القرآن — تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٣ هـ ، الحلبي

جذور البلاء ، القسم الأول — عبدالله التل ، دارالإرشاد بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ

الجامعة الإسلامية وأوربا — تأليف رفيق العظم ، سلسلة الثقافة الإسلامية ٤٣ ربيع آخر ١٣٨٣ هـ بإشراف محمد عبد الله السمان ، طبع دار الثقافة العربية

الجديد فى التربية القومية — (القومية العربية والوحدة العربية) ، للصف الثالث الثانوى (أدبى وعلمى) ودور المعلمين والمعلمات الفنى .

تأليف لجنة من الأساتذة المتخصصين، مطبعة دار العالم العربى رقم الإيداع بدار الكتب ٥١٨٠

جـــذور الأزمة فى المجتمع العربى الإسلامى — محمد المبارك ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٦٨ م

(ح)

حصوننا مهددة من داخلها (فى أوكار الهدامين) — الدكتور محمد محمد حسين ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ

حقيقة القومية العربية ، دراسات علمية فى المجتمع العربى — محمد الغزالى ، نشر دار العروبة ، مطبعة المدنى

حكومة العالم الخفية — شيريب سبيريدوفيتش ، تحـــرير وتقديم أحمد راتب عرموش الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، دار النفائس بيروت

حواشى الأمير شكيب أرسلان على كتاب : حاضر العالم الإسلامى — الطبعة الثانية ١٣٥٢ هـ مطبعة الحلبى

خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية — عبد الله التل ، ١٣٨٤ هـ الطبعة الثانية ، دار القلم بالقاهرة

الخطر الصهيونى على العالم الإسلامى — ماجد كيلانى ، الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى جدة ١٣٨٩ هـ

(د)

دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضارتهم الإنسانية — الدكتور محمد معروف الدواليبى الطبعة الأولى ١٩٧١م ، دار الكتاب الجديد بيروت

دراسات سياسية وقومية — دكتور محمد طه بدوى ، دكتور محمد طلعت الغنيمى ، طبعة أولى ، نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٣ م

دراسات عن مقدمة ابن خلدون — أبو خلدون ساطع الحصرى ، الطبعة الثالثة ، موسعة ١٣٨٧ هـ

الدعوة (مجلة من الرياض) عدد ٥٩٢ فى ٢ ربيع الثانى ١٢٩٧ هـ

دفاع عن العروبة — ساطع الحصرى ، الطبعة الأولى ١٩٥٦ م ، دار العلم للملايين بيروت .

الدنيا لعبة إسرائيل — الكومندوز وليم كار ، الناشر كولور فيوز كومبانى ، بيروت

(ز)

زاد المعاد ، الجزء الثانى — تأليف محمد بن قيم الجوزية ، طبعة ثانية ١٣٦٩ هـ ، الحلبى

(س)

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشىء من فقهها وفوائدها ، المجلد الأول — تأليف محمد ناصر الدين الألبانى منشورات المكتب الإسلامى

سنن ابن ماجه	تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة الحلبى ١٣٧٢ هـ بمصر
سنن أبى داود	بتعليقات أحمد سعد على ، الطبعة الأولى ، الحلبى ١٣٧١ هـ
السياسة العربية بين المبدأ والتطبيق	صلاح الدين البيطار ، طبعة أولى ١٩٦٠م بيروت

(ش)

شرح ديوان امرؤ القيس	تأليف حسن السندوبى ، الطبعة الخامسة ، مطبعة الاستقامة بمصر
شرح المعلقات السبع	للقاضى أبى عبد الله الحسين بن أحمد الزوزنى، طبعة على يوسف ١٣٨١هـ القاهرة
الشعوبية الجديدة	محمد مصطفى رمضان ، الطبعة الأولى بيروت ١٣٨٩ هـ
الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول	الدكتورة زاهية قدورة ، دار الكتاب اللبنانى ط ١ ، ١٩٧٢م

(ص)

صحيح البخارى	تقديم وتحقيق وتعليق محمود النواوى وزميليه ، مطبعة الفجالة الجديدة ، ١٣٧٦ هـ بمصر

صحيح مسلم	طبعة الحلبي ، جماد ثانى ١٣٧٢ هـ
صراع مع الباطل	محمد أحمد باشميل ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٦٠ م
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية	أبو الحسن على الحسنى الندوى ، الطبعة الأولى لبنان ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م

(ض)

ضحى الإسلام	أحمد أمين ، الطبعة السابعة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٦٤ م بمصر

(ع)

العرب فى الشام قبل الإسلام	محمد أحمد باشميل ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٣٩٣ هـ
العرب والإسلام	أبو الحسن الندوى ، مطبعة ندوة العلماء (الهند) ١٣٨٤ هـ
العرب وتجربة المأساة	تأليف صدق اسماعيل ، ط ١ ، ١٩٦٣ م ، منشورات دار الطليعة بيروت
العصر الجاهلى	دكتور شوقى ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر
العقد الفريد لابن عبد ربه جزء ٢ ، ط ٢	المطبعة الأزهرية ١٣٤٦ هـ

العقلية العربية بين الحربين ١٩١٨ م ١٩٢٩ م — كتبه على حاج بكرى ، وقدم له نبيه أمين فارس مطبعة الترقى بدمشق ، منشورات دار الرواد

(غ)

الغارة على العالم الإسلامى ، لخصها ونقلها إلى العربية — محب الدين الخطيب ومساعد اليافى ط ٢ ، ١٣٨٧هـ جدة الدار السعودية للنشر

الغرب والشرق الأوسط — برنارد لويس رئيس قسم التاريخ فى كليـة الدراسـات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن ، تعريب الدكتور نبيل صبحى ١٩٦٥ م

الغزو الفكرى ، أهدافه ووسائله — للدكتور عبد الصبـور مرزوق ١٣٩٤ هـ ، مطـابع مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ، نشر رابطة العالم الإسلامى بمكة

(ف)

فتح البارى بشرح الصحيح للبخارى — لابن حجر العسقـلانى ، طبعة السلفية بمصر

الفكر العربى فى عصر النهضـة ١٧٩٨ - ١٩٣٩ م ، ألبرت حورانى — ترجمه إلى العربية كريم عزقول ، دار النهار ، بيروت

فى ظلال القرآن ، جزء ٤ ، ٧ — سيد قطب ، الطبعة الثانية ، الحلبى ١٩٦١ م

(ق)

قصة الحضارة ، عصر الإيمان	تأليف ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، ط ٢ ، ١٩٦٤ م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة
قضايا الثورة العربية : الثورة العربية والوحدة ، الثورة العربية والديمقراطية ، الثورة العربية والاشتراكية .	للدكتور سعدون حمادى ـ الطبعة الثانية ١٩٧٠ م دار الطليعة بيروت
القرب فى محبة العرب	زين الدين عبد الرحيم العراقى ، تحقيق وتعليق إبراهيم حلمى القادرى ، ونشر عادل محمد البهى وزميله ، الاسكندرية ١٣٨١ هـ
القومية العربية	تأليف الدكتور أبو الفتوح رضوان . الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، ١٩٦٥ م
القوميـة العربية ، للصف الثالث الثانوى ومافى مستواه	تأليف على عبد الله ، صلاح العرب عبد الجواد ، سمير باقى يوسف ، إشراف ومراجعة الدكتور صوفى حسن أبو طالب ، الدكتورة عائشة راتب ، طبع بدار الهلال القاهرة

١٩٧٤ م ، وأودع بدار الكتب
برقم ١٩٣٤/٤٩٢٤

القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها الأمير الأستاذ مصطفى الشهابي على طلبة معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية عام ١٩٥٨ م ، المطبعة الكمالية وقدمه مؤلفه للطبع عام ١٩٥٩ م وهو بمكتبة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة
برقم ١٥٨/٣٢٠ ، م/ش/م

القومية والغزو الفكرى — محمد جلال كشك ١٣٨٦ هـ ، نشر مكتبة الأمل الكويت

القومية فى نظر الإسلام — محمد أحمد باشميل ، ط ٢ ، بيروت ١٩٦٠ م

القيان والغناء فى العصر الجاهلى — الدكتور ناصرالدين الأسد ، ط ٢ ، ١٩٦٨ م دار المعارف بمصر

(ل)

الله ، كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية — بقلم عباس محمود العقاد ، ط ٤ ، ١٩٦٤ م دار المعارف بمصر

اللغة والأدب ، وعلاقتهما بالقومية — ساطع الحصرى ، ط ٢ ، ١٩٦٦ م دار الطليعة بيروت

(م)

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — تأليف أبي الحسن على الحسنى الندوى ط ٤ ، ١٩٦١ م ، ١٣٨١ هـ مطبعة السعادة

مجالى الإسلام — تأليف حيدر بامات (ج ريفوار)، نقله إلى العربية عادل زعيتر طبع بدار إحياء الكتب العربية ١٩٥٦م ، القاهرة

مجلة الأحكام العدلية — ط ٥ ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

المجتمع (مجلة من الكويت) — الأعداد : ٢٦٥ فى ١٣٩٥/٨/٢٥ هـ ، ٢٧٩ فى ١٣٩٥/١٢/٢١ هـ ٣١١ فى ١٣٩٦/٨/٧هـ ، ٢٨٥ فى ١٣٩٦/٢/٣هـ ٣٤٠ فى ربيع الأول ١٣٩٧ هـ ، ٣٤٣ فى ١٣٩٧/٤/٩ هـ

مجموعة التوحيد — طبع آل ثانى بقطر

مجموعة التوحيد — طبع السلفية بمصر على نفقة مشعل ابن عبد العزيز

مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن جمع وترتيب ابن قاسم ، مطابع تيمية الرياض

محاضرات الأستاذ محمد قطب فى مادة « المذاهب الفكرية المعاصرة » : الديمقراطية ، العلمانية ، العقلانية القديمة والحديثة ، العالمية (الإنسانية)

الوجودية ، القومية ، الوطنية ، الإلحاد ، التى ألقاها على طلاب الدراسات العليا (الماجستير) بفرع العقيدة فى السنة المنهجية ٩٤/٩٥

محاضرات فى النصرانية — محمد أبو زهرة ، ط ٣ ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م ، مطبعة يوسف

محاضرات المعيد صالح بن عبد الله العبود فى مادة « الحضارة الإسلامية » ألقاها على طلاب السنوات : الأولى والثانية والثالثة — شريعة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة للعامين الدراسيين ٨٦-٨٧، ٨٧ - ١٣٨٨ هـ

محنة القومية العربية — أركان عبادى ، قدم له الدكتور صلاح الدين المنجد ، ط ١ ، ١٩٦٢م منشورات دار الكتاب الجديد بيروت

مختار الشعر الجاهلى ، الجزء الأول — للشنتمرى ، تحقيق مصطفى السقا ، ط ٢ ، ١٣٦٨ هـ ، الحلبى

مختصر السيرة — للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق محمد حامد الفقى ١٣٧٥ هـ مطبعة السنة المحمدية بمصر

المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام   محمد محمود الصواف

مذكرات سفير عراقى فى تركية ، الجزء الثانى من أوراق أيامى ١٩٥٨ — ١٩٦٥ م   طالب مشتاق ، الطبعة الأولى ، دار الكاتب العربى بيروت ١٩٦٩م

مذكراتى فى صميم الأحداث ١٩١٨ — ١٩٥٨ م   محمد مهدى كبة ، ط ١ ، ١٩٦٥ م دار الطليعة بيروت

مذكراتى فى العراق ١٩٢١ م — ١٩٤١   أبو خلدون ، ساطع الحصرى ، ط ١ ، ١٩٦٧ م بيروت

مسند الإمام أحمد بن حنبل ، الذى بهامشه منتخب كنز العمال   تصوير عن طبعته الأولى ، نشر المكتب الإسلامى ودار صادر بيروت

مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية   الدكتور ناصر الدين الأسد ، الطبعة الرابعة - دار المعارف بمصر ١٩٦٩م

معاجم لغوية : لألفاظ القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واللغة العربية

معالم فى الطريق   سيد قطب ، ط ١ ، ١٣٨٤ هـ مطبعة مخيمر

المستقبل لهذا الدين   سيد قطب

معنى القومية العربية   الدكتور جورج حنا ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٧ م

من بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم ، مشاكلنا القومية وموقف

الأحزاب منها: الرجعية ، الإقليمية ، الشيوعية ، القومية العربية موقف الأحزاب العملى ، تجربة لواء اسكندرونة السياسية ، الفلاح والزراعة ، العامل والصناعة ، قضية فلسطين
بقلم زكى الأرسوزى ، ١٩٥٨ م ، دار اليقظة العربية . . بسورية

من الثورة القومية إلى الثـــورة الاشتراكية — تأليف عزيز السيد جاسم ، ط ١ ، ١٩٧١ م بيروت

(ن)

نجد وملحقاته — أمين الريحانى ، ط ٣ ، ١٩٦٤ دار الريحانى بيروت

نحو استراتيجية عربية جديدة — تأليف أكرم ديرى ، المقدم الهيثم الأيوبى ، دار الطليعة بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٩ م

نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية — زين نور الدين زين ، ترجمة الطبعة الثالثة إلى العربية للمؤلف دار النهار للنشر بيروت لبنان ١٩٦٨ م

نظرات فى الملامح الأساسية للمرحلة الراهنة — الدكتور إليـــاس فرج ، ط ١ ، ١٩٧١ م بيروت

نقد الفكر القومى ، أ – ساطع الحصرى	إلياس مرقص ، ط ١ ، ١٩٦٦ م بيروت
نقـــد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع	جمع الفقير إلى الله عبد العزيز بن عبدالله بن باز الأثرى ، منشورات المكتب الإسلامى ١٣٨٤ هـ

(و)

الوحدة عسكريا ، المضمون العسكرى للوحدة العربية	الفريق الركن صالح مهدى عماش ط ٢ ، ١٩٧٠ م بيروت

(هـ)

هذا الدين	سيد قطب

(ى)

يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية	ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد ، الدكتور إحسان عباس ، تقديم الدكتور نبيه أمين فارس ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين . . بيروت – نيويورك ١٩٦٦م الطبعة الثانية دار العلم للملايين بيروت
اليهودية (مقارنة الأديان)	الدكتور أحمد شلبى ، ط ٣ ، ١٩٧٣م التزام مكتبة النهضة مصر

فهرس

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

تصويبات

كتاب فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٢	ويسوا	وينسوا
١٦	٦	حقيتها	حقيقتها
١٨	١٥	الرثيسى	الرئيسى
١٩	٢١	صررة	صورة
٦٦	٣	شعاراً لثورة	شعار الثورة
٨٦	٧ الآية	وإن	وأن
١٣٣	١٠	إيمان	إيماناً
١٣٥	٢٨	نخال	فخال
١٥٢	١٩	بدأ	بدا
١٦٦	١١	اظلاع	اطلاع
١٨٣	١٥	مسلمين	مسلمون
١٨٨	١٩	المغالات	المغالاة
٢١١	٢	يغعم	يفعم
١٨٣	٩	نبذة	نبذه
٢١٤	٤	محنظة	محنطة
٢١٥	١٩	ذبه هب	مذهبه
٢٢٣	١٠	بالهدايا	بالهداية
٢٢٧	١٨	عرب	عرباً
٢٤١	٨	أفا	أما
٢٤٧	٤	بأذن	بإذن
٢٥١	٦	كوه	كره
٢٥٦	١٦	وأخوانكم	وإخوانكم
٢٥٦	٢٠	اسثتبطان	استبطان
٢٦٩	١٣	أخوة	إخوة
٢٩٨	الهامش ٢	سدناصر الدبن	ناصر الدين الأسد
٣٢٦	١٠	جيمهم	جميعهم

رقم الإيداع ٣٠٦٨ / ١٩٨٢